January — May 1936

يناير الى مايو سنة ١٩٣٦

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صرّوف والدكتور فارس نمر

المجلد الثامن والثمانون

AL-MUKTATAF

A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

Edited by : FUAD SARRUF

VOL. LXXXVIII

Founded 1876 By Drs Y. Sarruf & F. Nimr

فهرس المجلد الثامن والثمانين

المقتطف

الجزء الاول من المجلد الثامن والثمانين

٦ شوال سنة ١٣٥٤ — ١ يناير سنة ١٩٣٦

هذا العدد من المقتطف يختلف عن كل عدد صدر منذ ستين سنة الى يومنا هـذا. فهو في موضوع واحد، ولكاتب واحد

أما الموضوع فأبو الطيب المتنبي

وأما الكاتب فالاستاذ محمود محمد شاكر

وقد رأى محرر « المقتطف » في العناية بالاحتفال بانقضاء ألف سنة على وفاة المتنبي، وفي طرافة المباحث التي انطوت عليها رسالة الاستاذ شاكر، ما يسوغ له أن يجعل هذا العدد بمثابة كتاب يرفعه :

الى ابى الطيب المتنبي

ذكرتُكِ بين ثنايا السُّطورِ،
وأضْمرتُ قلبيَ بين الكلِمْ
ولستُ أبوحُ بما قد كتمتُ،
ولو حزّ في النَّفس حدُّ الألمْ
تُمزّقني — ما حييتُ — المنى،
فأرْقعُ ما مزّقتْ بالظُّلَمْ
فكم كتمَ الليلُ مِنْ سِرّنا،
وفي الليل أسرارُ منْ قد كتمْ
تشابهَ — في كَتْمِ ما نستسرُّ —
سوادُ الدُّجى، وسوادُ القلمْ

محمود محمد شاكر

وتضريب أعناق الملوك ، وأن ترى لك الهبوات السود والعسكر المجرُ
وتركك في الدنيا دويًّا كأنما تداول سمع المرء أنمله العشرُ

***

وعندما اراجع ديوان المتنبي الآن تمر بي أبيات من الشعر كأن رنينها إذ أقرؤها محمول الي من مغاور متغلغلة في جوف الماضي . واكثر هذه الابيات من شعر الغزل والنسيب الذي كان المتنبي يستهل به بعض قصائده . ولست أحفظ الآن من ذلك إلاَّ نزراً يسيراً ، لان رجولة المتنبي كانت هي التي فتنتني في صباي دون رقته ونسيبه ، وقد كنت اظن ان رجولته هذه يكون مردها، في الغالب ، الى خياله المتوثب وحده — الى ان قرأت اصول هذا الجزء من المقتطف وتجاربه ، فاذا هي ، بحسب رأي الكاتب ، متصلة أوثق اتصال بأصله ونشأته وتربيته التي قامت عليها جدته ، « أم أمه » وحوادث عصره وحياته ، واذا أقوى شعره إعراب بليغ ، وبيان واضح عن ذلك كله

وكنت اطلب العلم في جامعة بيروت الامريكية فكان أستاذنا في الادب العربي (جبر ضومط) رحمة الله عليه ، مولعاً بدراسة المتنبي وتدريسه ، فقضينا معه سنتين نحفظ من قصائد المتنبي ما يتخيره لنا منها ، ونمعن في حل أبياتها وإعراب ألفاظها ، ويمعن هو في تفسير معانيها وبيان ماتحمل في ثناياها من حكمة وفلسفة . وكان لا يفوته ان يلمح احياناً الى ان حياة المتنبي لعلى صلة وثيقة بعصره . وكان معظمنا لايعي من تاريخ الشرق العربي في ذلك العهد الاَّ اليسير ، فمرَّ بهذا التلميح غير آبه

وأكبر الظن عندي الآن — وقد اطلعت على رسالة صديقي الاستاذ محمود محمد شاكر ، وما جلاه فيها من دقائق هذه الصلة — ان استاذنا كان قد حاول ان يجتلي بعض هذا الغامض ، فتبينت له اشياء لم ينشرها ، إما التزاماً للحذر العلمي قبل القطع برأي ، وإما مراعاة للاحوال السياسية

وعلى ذلك ظل المتنبي — على علو مقامه في الادب العربي ، ونصوع معانيه ، وسمو حكمته ، وكمال رجولته — تكتنفه في ذهني غمامات من الغموض ، على كثرة شراح ديوانه ومفسريه

ولكن مشاغل الحياة، وانصراف أساتذتنا — عند طلبنا العلم — عن ترسيخنا في معرفة أصول تاريخنا الشرقي العربي صرفتني عن دراسة المتنبي. فكنت فيما تلا من عهد الدراسة لا أذكره الا عندما أسكن الى ساعة من الراحة، فأخرج شرح اليازجي، وأقرأ بعض قصائده المشهورة، صادفاً عما قد تنطوي عليه احياناً من مغلق المعنى، او مهجور اللفظ، او معقد التركيب، مكتفياً بما فيها من قوة ورجولة، تكاد تحسهما — بعد انقضاء عشرة قرون — تتفجران من معاطف هذا العربي كالينبوع، وتتطايران من عينيه كالشرر

فلما ذكر المذكرون بانقضاء ألف سنة على مصرع المتنبي في ٢٧ رمضان سنة ١٣٥٤ (وقد كان مصرعه في ٢٧ رمضان سنة ٣٥٤) قلت: هي فرصة فذة تتيح للمقتطف أن يشارك في إحياء ذكر عظيم من عظماء العرب، ونابغة من نوابغ اللسان العربي، كسنته في الاشتراك في إحياء ذكرى العظماء من علماء الفرنجة، وفلاسفتهم، وكتابهم، وزعمائهم. ولكن الفرق فيما يجب على المقتطف في الحالين واضح:

فنحن حين نحتفل بذكر عظيم من عظماء الفرنجة نجتزىء بمجمل من سيرته وأثره، لأن الغرض إنما هو التعريف بآثاره من الناحية الذهنية، والاشادة بخلقه أو مثاله من الناحية الأدبية. ولكننا — اذ كان المتنبي من عباقرة شعرائنا — لا ينبغي لنا أن نجتزىء بمجمل أقوال الرواة والنقاد في حياته وشعره

فتحدثت في ذلك مع صديقي المحقق الاستاذ محمود محمد شاكر ورغبت اليه أن يكتب كلمة مسهبة بعض الأسهاب عن المتنبي. وأقر أني كنت مقتنعاً — عند ما ألقيت اليه هذا الاقتراح — أن الكلمة لن تزيد عن عشرين، أو ثلاثين من صفحات المقتطف، فوعدني ان يبذل ما لديه. ولكن البحث تشعب أمامه، ومواطن الاستنباط والمقابلة تعددت، فلم يرض — وقد وجد مجال القول ذا سعة — بالنهج المطروق. فبعد ان كتب عشرات من الصفحات مزقها ونبذها، وعاد الى الكتابة على نهج آخر. فأصبح المقال عدداً كاملاً من المقتطف، أو يزيد. وليس هذا العدد الكامل الا موجز سفر في المتنبي ينوي أن يجعله في أربعة مجلدات أو أكثر

ولا أخفي عن القارىء أني مغتبط بهذا كل الاغتباط. ففي هذه الرسالة — على ايجازها بالقياس

الى ماكان يجب ان تكون — دلائل على تبحّر الكاتب في تاريخ هذا العصر من حياة شرقنا العربي ، ومقدرته على تبين الاشارات الخفية في شعر المتنبي الى حوادث ذلك العصر ، وبراعة عجيبة في استنباط حالات الشاعر النفسية من أبيات شعره وربطها بحياته الخاصة ، والاحداث التي كانت في الامة العربية بوجه عام . وفي الغالب ان يكون عملٌ كهذا متعذراً اذا لم يوفق الكاتب الى دليل يهديه سواء السبيل في تيه الحوادث ومجاهل الآراء ، فضلاً عما يقتضيه من سعة نادرة في العلم ، وبراعة فذة في الاستنباط . وهذا الدليل الذي هداه هو رأي جديد في أصل المتنبي ونشأته : أشبه مايكون بالنظرية العلمية في ميدان العلوم الطبيعية :

فالحقائق في علوم الطبيعة هي خصوم النظريات . والبحث عن الحقائق بالمجهر والمطياف وغيرها من ادوات العلم، عمل لا ينقطع ولن ينقطع ما بقي الانسان على فطرته في حب الاستطلاع. ولا يخفى أن النظريات توضع لتفسير طائفة معروفة من الحقائق . فاذا انقضت عقود من السنين أو سنوات قلائل، فالغالب أن تجيء هذه الحقائق الجديدة التي يكشف عنها بعد وضع النظرية مخالفة للنظرية في مجملها او لنواح منها، فتعدل النظرية القديمة ، أو تطوى وتوضع نظرية جديدة. ويشترط في النظرية الجديدة أن تكون تفسيراً عامًّا متسقاً للحقائق الجديدة والقديمة معاً ، وأن يكون فيها من المرونة ما يجعلها تحتمل تفسير الحقائق التي تستجد ، والتمهيد للكشف عن أمور مجهولة

فالاستاذ شاكر وضع هذا الرأي اولاً فيما قيل عن أصل المتنبي ووالده وذهابه الى الكوفة لزيارة جدته ، وامتناع ذلك عليه ، فاستقامت الحوادث المتناقضة في الروايات المنقولة على أساس هذا الرأي الجديد . ثم لما طبقه على نفسية المتنبي في شعره ، وحوادث حياته الاخرى ، وخاصة حديث نبوته الى ان اتصل بسيف الدولة، تساوقت واتصل الاول منها بالآخر . واستقام كذلك فهمها على منوال يرتضيه العقل ، ويؤيده ماكان من حوادث العصر . ولا يبعد أن تكون هذه النظرية تمهيداً للكشف عن أشياء في حياة المتنبي وتاريخ عصره على منوال ماتولده النظريات في العلوم الطبيعية ، كما قدمنا. ولعلّ الاستاذ محمود يحقق كل هذا تحقيقاً مفصلاً في سفره المرتقب إن شاء الله

ولا يسعني في هذه السطور أن أفصّل القواعد التي بنى عليها الاستاذ شاكر رأيه ، فهي

كثيرة مفرقة في جميع الفصول،وهذا البحث الطريف في حياة المتنبي وأدبه ليس الا وليد تطبيقها فقد استطاع ان يكشف من شعر المتنبي عن دقائق حياته ، وينقض الروايات المنقولة الينا عن أصله ونشأته وتنبؤه وحبه ومصرعه ، ويصل بين حياة الرجل واحداث عصره . وبذلك انسقت حياة المتنبي ، واتصل اولها بآخرها ، وقلت الفجوات في تسلسلها ، واستقام فهمها على اساس معقول من الأدب والتاريخ

فالذي يقرأ هذا البحث ويعود الى مطالعة ديوان المتنبي ، متدبّراً ، تتكشف امامه معاني شعره ، وصلتها بنفس صاحبها من ناحية ، وبتاريخ عصره من ناحية اخرى

فقد نقض الاستاذ شاكر الرواية المتداولة عن ان والد المتنبي كان سقاء بالكوفة ، ورسم صورة لحداثته في مدارس الاشراف العلويين فيها ، وبين صلة المتنبي بالعلويين من نشأته الى وقت مصرعه ، وتأثير ذلك في حياته وشعره وآرائه السياسية ، ونفى ما اتهم به المتنبي من النبوة مستدلاً على صحة ما يذهب اليه بما استنبطه من شعره ، وما استخرجه من دفائن الحوادث التاريخية المتصلة بمسألة النبوة ، واستطاع ان يصل الى السبب المعقول في تسمية ابي الطيب بالمتنبي

وقد درس حياته وهو في جوار سيف الدولة دراسة وافية من شعره وحوادث عصره ، فكشف عن الصلة بين سيف الدولة والمتنبي ، وانهما كانا يعملان معاً على تحقيق الامل السياسي لردّ الحكومة الى العرب ، ونزعها من يد الاعاجم الذين كانوا قد استولوا على مقاليدها ، وبيّن أثر هذه الصلة السياسية في شعر ابي الطيب الذي قاله لسيف الدولة

وأثبت في ما أثبته من تاريخ هذه الفترة ان ابا الطيب كان يحب « خولة » اخت سيف الدولة وما كان لهذا الحب من الاثر في سمو شعره ، وروعة بيانه

فؤاد صرّوف

المقتطف

الجزء الأول من المجلد الثامن والثمانين

٦ شوال سنة ١٣٥٤ — ١ يناير سنة ١٩٣٦

هذا العدد من المقتطف يختلف عن كل عدد صدر منذ ستين سنة الى يومنا هذا. فهو في موضوع واحد، ولكاتب واحد

أما الموضوع فأبو الطيب المتنبي

وأما الكاتب فالاستاذ محمود محمد شاكر

وقد رأى محرر « المقتطف » في العناية بالاحتفال بانقضاء ألف سنة على وفاة المتنبي، وفي طرافة المباحث التي انطوت عليها رسالة الاستاذ شاكر، ما يسوغ له أن يجعل هذا العدد بمثابة كتاب يرفعه :

الى ابى الطيب المتنبي

ذكرتُكِ بين ثنايا السُّطورِ ،

وأضْمرتُ قلبيَ بين الكَلِمْ

ولستُ أبوحُ بما قد كتمتُ ،

ولو حزّ في النّفس حدُّ الألمْ

تُمزّقني — ما حَييتُ — المُنى ،

فأرْقَعُ ما مزّقتْ بالظُّلَمْ

فكم كتمَ اللّيْلُ مِنْ سِرّنا ،

وفي الليل أسرارُ من قد كتمْ

تشابهَ — في كَتْمِ ما نستَسِرُّ —

سوادُ الدُّجى ، وسوادُ القلمْ

محمود محمد شاكر

أنا ابنُ من بعضُه يفوقُ أبا الـ
ـباحثِ والنَّجْلُ بعضُ من نَجَلَهْ
وإنما يذكُرُ (الجُدُودَ) لَهُمْ
من نَفَرُوهُ وأنفَدُوا حِيَلَهْ
إنّ الكِذابَ الّذي أُكادُ به
أهوَنُ عِنْدِي من الذي نَقَلَهْ

« أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصَّمد الجعفيّ
« أحمد بن الحسين بن مرّة بن عبد الجبّار الجعفيّ
« أحمد بن محمد بن الحسين بن عبد الصّمد الجعفيّ

هو ابو الطيب الملقّبُ بالمتنبي . ولد بالكوفة سنة ٣٠٣ بمحلة كانت بها تسمى كندة ، وكان ابوه الحسين سقاءً يستي الناس على جملٍ له بالكوفة ، وكان يلقّب بعَبْدان السقّا

حدّث عليّ بن المحسّن التنوخيّ عن ابيه (المحسّن بن علي التنوخي) قال :

« اجتمعت بعد موت المتنبي بسنينٍ مع القاضي ابي الحسين بن ام شيبان [1] الهاشمي وجرى ذكر المتنبي فقال : كنت اعرفُ اباه بالكوفة شيخاً يسمّى عبْدان يستقي على بعير له، وكان جعفيًّا صحيح النسب »

وحدث التنوخي ايضاً عن ابيه قال :

« حدثني ابو الحسن محمد بن [2] يحي العلوي الزيدي قال : كان المتنبي وهو صبيّ ينزل في جواري بالكوفة ، وكان يعرف ابوه بعبدان السقاء — يستي لنا ولاهل المحلة ... »

---

(١) هو علي بن محمد بن صالح بن علي ينتهي نسبه الى عبد الله بن عباس بن عبد المطلب مات بشارع دار الرقيق ببغداد في يوم الثلاثاء ١٢ شعبان سنة ٤٢٠ ، ويعرف بابن ام شيبان

(٢) هو « محمد بن عمر بن يحي » ينتهي نسبه الى زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنهم . كان من اهل الكوفة ثم سكن بغداد وكان المتقدم على الطالبيين في وقته والمنفرد في علو محله مع المال واليسار ، وكثرة الضياع والعقار . ولد سنة ٣١٥ وتوفى ببغداد في ١٠ ربيع الاول سنة ٣٩٠ ثم حمل بعد ذلك لسنة او اقل الى الكوفة فدفن بها

وقال ابو الحسن العلوي ايضاً من حديث التنوخي عنه : «كان عبدان والد المتنبي يذكر أنه جعفي وكانت جدة المتنبي همدانية صحيحة النسب لا اشك فيها ، وكانت جارتنا ، وكانت من صلحاء النساء الكوفيات ... »

ثم قال التنوخي (علي بن المحسن) ، قال ابي :

« فاتفق مجيء المتنبي بعد سنين الى الاهواز منصرفاً من فارس فذكرته بأبي الحسن (يعني محمد بن يحيى العلوي الذي مرّ آنفاً) فقال : ترْبي وصديقي وجاري بالكوفة ، وأطراه ووصفه ...

وسألتُ المتنبي عن نسبه فما اعترف لي به ، وقال : انا رجلٌ أخبط القبائل ، وأطوي البوادي وحدي ، ومتى انتسبتُ لم آمنْ ان يأخذني بعضُ العرب بطائلةٍ بينها وبين القبيلة التي أنتسبُ إليها . . وما دمتُ غيرَ منتسبٍ إلى أحدٍ فأنا اسلم على جميعهم ويخافون لساني »

هذا ما ذهب اليه رواتنا ممن وقع الينا كلامهم في نسب المتنبي يزيد بعضهم وينقص بعضٌ . . . وقبل ان نبدأ كلامنا عن نسبه ، نذكر لك طرفاً من امر (الكوفة) التي ولد بها أبو الطيب وفيها نشأ عسى ان تكون منه فائدةٌ فيما يستقبل من كلامنا

كان تمصير الكوفة وأول امرها — على ما ذهب اليه اكثر العلماء — في زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما بين سنة ١٧ إلى سنة ١٩ من الهجرة ، وذلك ان المسلمين لما فرغوا من وقعة رستم بالقادسيّة وعصفوا بالفرس ثم انحدروا ، كان مما انزلهم فيه سعدُ بن ابي وقاص رضي الله عنه — مكانٌ من سواد العراق يقال له (سُوق حَكَمَة) فنَفِضَ المسلمون وجهدهم المرض ، فكتب سعدٌ إلى عمر بذلك فكتب اليه :

« إن العرب لا يصلحها من البلدانِ إلاّ ما أصلحَ الشاةَ والبعير ، فعليك بالريف ، ولا تجعل بيني وبين المسلمين بحراً »

فلما ورد كتابُ عمر دَلّ (ابْن بُقَيْلة — رجُلٌ من سواد العراق) سعداً على موضع الكوفة وكان يقال له (سُورَسْتان) ، فلما اقرّ سعدٌ الرأي على اختيار الموضع أسهم بين المسلمين ، فأسهم لنزارٍ وأهل اليمن سهمين ، فمن خرج سَهْمه اولاً فله الجانب الشرقي (وهو خيرُهما) فخرج سهمُ اهل اليمن اولاً فصارت خططهم في الجانب الشرقي من الكوفة

ومما وردَ في صفتها وحسْنها ما يروى عن مالك بن دينار قال : كان علي رضي الله عنه إذا أشرف على الكوفة قال :

يا حَبَّذا مُقَالُنا بالكُوفَهْ   أرضٌ سَوَاءٌ سهلةٌ معروفَهْ
تعرفُها جِمَالنا العلُوفَهْ

وما قاله محمد بن عمير العطاردي في مجلس عبد الملك بن مروان

«الكوفة سفلت عن الشام ووبائها ، وارتفعت عن البصرة وحرها ، فهي مريئة مريعة . اذا أتتنا الشمال ذهبت مسيرة شهر على مثل رضراض الكافور ، وإذا هبت الجنوب جاءتنا ريح السواد(١) ووردة وياسمينه وأترنجه . ماؤنا عذب وعيشنا خصب »

فهي كما ترى ارض ذات طيبة جميلة ، حببت الى كثير من المسلمين البقاء بها فآثروها على غيرها ، حتى كانت الفتنة الكبرى بين علي ومعاوية رضي الله عنهما ، فاتخذها امير المؤمنين علي قاعدة امره ، واجتمع فيها اشياعه وغلبوا عليها ، فمن يومئذ والكوفة معقل من معاقل الشيعة والعلوية والزيدية الى يوم الناس هذا . يقول السيد محسن الامين الحسيني العاملي صاحب كتاب (اعيان الشيعة)(٢) « ثم إن الكوفة ضعفت بعد انتقال الخلافة منها إلى بغداد ثم خربت . واليوم فيها كثير من العمران ، وجميع أهلها شيعة »

اما امر تخطيطها وعمرانها في القرن الاول والثاني أو في القرن الرابع الذي عاش فيه ابو الطيب ، فلا نكاد نجد بين ايدينا شيئاً مما روي يدلنا عليه ويقفنا عنده إلا ما روي عن بشر بن عبد الوهاب القرشي من انه ذكر قدر الكوفة فكانت ستة عشر ميلاً وثلثي ميل ، وذكر ان فيها خمسين الف دار للعرب من ربيعة ومضر ، وأربعة وعشرين الف دار لسائر العرب ، (وستة آلاف دار لليمن) ، وذلك في سنة ٣١٤ وما قبلها

وقد رمى الينا المتنبي طرفاً آخر من تخطيط الكوفة لعهد صباه إذ يقول وهو بالشام فيما مدح به (علي بن ابراهيم التنوخي)

أمنسيّ السّكونَ وحضرموتاً (ووالدتي) وكِندةَ والسَّبيعا

يقول الواحدي « هذه اماكن بالكوفة سميت بأسماء قبائل كانوا ينزلون هذه المحال » . ولا شك ان (محلة كندة) التي ولد بها صاحبنا ابو الطيب كانت خطة من خطط الكوفة نزلها في الصدر الاول من نزل من بطون كندة فسميت بهم ، وان سائر الكوفة — او الجانب الشرقي منها على التحقيق — كان مقسماً مخططاً الى احياء كثيرة غير هذه التي ذكرها ابو الطيب في شعره . ولكن مما نعجب له ان بشر بن عبد الوهاب يقول أن دور اهل اليمن (جميعاً في كل احياء الجانب الشرقي) بالكوفة كانت في سنة ٣١٤ وما قبلها وعدتها (ستة آلاف دار) ، ويقول صاحب (إيضاح المشكل لشعر المتنبي) ابو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الاصفهاني ان (ابن النجار) حدثه ببغداد :

---

(١) السواد الريف (٢) هو كتاب جليل طبع الجزء الاول منه بدمشق في الاشهر الماضية وسيتم ان شاء الله في اثنى عشر جزءاً او يزيد

« أن مولد المتنبي كان بالكوفة في محلة تعرف (بكِندة) بها ثلاثة آلاف بيت من بين رَوَّاءٍ ونسَّاج » وذلك سنة ٣٠٣ ، فليت شعري أكان جُلّ اهل اليمن النازلين بالجانب الشرقي من الكوفة — وهو خير جوانبها — ما بين سقاء ونساج . هذا عجبٌ ان يكون ذلك كذلك ، إذا كان النساجون والسقاؤون وحدهم قد شغلوا من دور اهل اليمن بالكوفة ، ثم بمحلة كندة وحدها ، ثلاثة آلاف دار ، فكم شَغَل من بقي من اهل اليمن من اصحاب الصناعات ومن لفَّ لفهم من التجار وأصحاب الارضين ، ثم ما يبقى من حي اهل اليمن لرجالات اليمن واشرافها وفرسانها وعلمائها وشعرائها وأدبائها وهمْ كثر

فهذه المبالغة وجهٌ من وجوه إسقاط قول (ابن النجار) هذا ، وسترى ان المتنبي قد مُنِيَ في حياته وبعد موته بضروب من المداوات قد جعلت تاريخ الرجل مزلَّة لا تثبت عليها قدم ولا يهتدي فيها إلاَّ بصيرٌ متثبتٌ . ولو نظرتَ إلى أقوال الاصفهاني صاحب (إيضاح المشكل) وما رواه في مقدمة كتابه رأيته ممن كان يتحامل على ابي الطيب ، ويذكره بالسوء في كل قوله ، وما أتى له بمحمدة إلاَّ واتبعها بمذمةٍ بالغة قارصة ، وهو قد ألف كتابه هذا لاصغر ابناء (عضد الدولة) — الذي مدحه المتنبي ، وكان آخر من مدح — بهاءُ الدولة خاشاذ بن عضد الدولة ، وكان التحاسد واقماً بين ابناء عضد الدولة حتى إن المتنبي حين ذكر اخويه (وهما اكبر من بهاء الدولة) في مدح ابيهما قال ودعا لهما

فعاشا عيشةَ القمرين يُحْيا بضوئهما ولا يتحاسدان

فكأني بالمتنبي قد ادرك ذلك منهما ، وألمَّ بطرفٍ من تحاسُدِهما ، وقد خابت دعوة صاحبنا فإن شرفَ الدولة شيرزيل بن عضد الدولة حاربَ اخاه صمصام الدولة وظفر به بعد حروب وحبسه . فلعلَّ بهاء الدولة هذا كان ممن يحقد على المتنبي إذ لم يمدحه او يذكره في شعره (مع صغره إذ ذاك) ، فكتب الإصفهاني كتابه تقرباً وزلفى اليه . ومما يؤيد ذلك ان كتابَ الاصفهاني في نقد كلام ابن جني ، وهو صاحبُ المتنبي ومريده ومن الضَّالعين معه . وسيأتي طرفٌ من غرائب ما ذكره الاصفهاني في ثنايا القولِ يؤيد رأينا في ان الرجل كان يلفق بالهوى الجائر ، وما كان يؤلف بالتاريخ (١)

(١) هذا طرف من القول ، وبقيت اطراف ترجع الى العداوة بين بني بويه وسيف الدولة ، وما جرت هذه من الخصومة بين أهل العصر ، والادباء خاصة ، وقد اشتدت المنافسة أخيراً بين بهاء الدولة وسيف الدولة وتورط الادباء فيها فكتبوا وألفوا يريدون بما الفوا التقرب الى واحد من الخصمين . وايضاً فان بني بويه كانوا يعرفون يقيناً أن المتنبي لم يكن خالص المدح لهم فقد شاب مدحه بالحسرة على لقائهم في بعض قصائده وما كان ذلك ليخفي عليهم . . . وهناك كثير من القول أغفلناه هنا ، وربما اتى بعضه عرضاً في آخر ما نكتبه عن مدح المتنبي بني بويه ان شاء الله

والآن وقد فرغنا من القول عن محلة كندة التي ولد بها المتنبي ، وما وقع في أمرها من المبالغة ننظر في نسب الرجل ، لترى كيف بالغوا ايضاً في الإساءة اليه ، وتحقير مولده ، والحط من أصله ونشأته لاغراض خافية قد أحاطت بصاحبنا ، أضرت به في حياته وأفسدت تاريخه بعد وفاته . رأيت قبل في اول ما روينا لك من اقوال الرواة انهم أرادوا ان يثبتوا بما رووا ان الحسين والد المتنبي هو عبدان السقا كان يستقي الماء على بعير له بالكوفة . وراوي القصة كلها هو علي بن المحسن التنوخي عن ابيه المحسن التنوخي ، ونحن نقدم فنشك في رواية المحسن التنوخي لاسباب نذكر طرفاً منها هنا ثم يأتي بعد اسباب أخرى تثبت ما نقوله ان شاء الله

القاضي ابو علي المحسن بن علي التنوخي ولد سنة ٣٢٧ وتقلد القضاء سنة ٣٤٩ . فكان من اصحاب الوزير ابي محمد المهلبي ، وكان المتنبي حين دخل بغداد في طريقه إلى عضد الدولة بشيراز قد ترفع عن ان يمدح الوزير المهلبي ، فأغرى المهلبي به الشعراء وغيرهم كابي علي الحاتمي صاحب الرسالة العجيبة المعروفة بالحاتمية ذكر فيها سرقات المتنبي ، وزعم انها قد وقعت كما قيدها بينه وبين المتنبي ، فلا عجب ان يكون المحسن التنوخي من اعداء ابي الطيب لصلته القريبة بالوزير فقد بلغ به ان كان من ندمائه ، ولا عجب ايضاً ان يسند التنوخي روايته (او كذبه) إلى بعض شيوخه فيفتضح . ذلك انه زعم كما قدمنا لك ان القاضي ابن ام شيبان حدثه فقال « كنت اعرف اباه بالكوفة شيخاً يقال له عبدان . . . الخ » والقاضي ابن ام شيبان وإن لم نعلم تاريخ مولده فان في ما اثبته البغدادي الخطيب من تاريخ وفاته مقنعاً وغنى

فوالد المتنبي — كما ذهب اليه كثير من المحدثين ، وكما تبين لنا من بعض الوجوه — قد مات والمتنبي صغير ، فإذا تجاوزنا وقلنا ان أباه مات وهو في الثانية والعشرين من سنه اي سنة ٣٢٥ او بعد ذلك بقليل فعجب ان يكون القاضي بن ام شيبان كان قد رآه إذ يقتضي ذلك ان يكون القاضي قد عمّر وحطم المائة فإنه قد مات سنة ٤٢٠ ، فلو انه رأى (عبدان السقا) وهو ابن عشر سنين لأنافت سنه على المائة ، ولو كان ذلك كذلك لما فات البغدادي ان يشير اليه فقد يكون هذا القاضي من اعلى شيوخ عصره إسناداً ، وعلو الإسناد عند المتقدمين امر لا ينصرف عن تقييده ، كما أن المعمرين من الرجال مذكورون حتى إنهم ليذكرون الرجل في كتبهم ، وما له من فضل الأطول عمره . فأنا مطمئن إلى ان هذه الكلمة موضوعة على لسان القاضي الفاضل الذي وصفه البغدادي فقال « كان صدوقاً »

هذا التنوخي يقول انه سأل المتنبي عن نسبه فما (اعترف له) به وكان إذ ذاك شاباً في السابعة والعشرين ، وكان المتنبي قد نيّف على[1] الخمسين ، فما نظن ان القاضي كان يجرؤ ان

(١) لقيه التنوخي بالاهواز منصرفاً من فارس من عند عضد الدولة قبيل وفاته سنة ٣٥٤

يسأل المتنبي عن ذلك ، لبُعْدِ ما بينهما ولتعالي المتنبي وترفُّعه حتى على الخلفاء والوزراء ، وأيضاً لما يعلم من صلة القاضي بالوزير المهلبي وتحققه بخدمته (كما قال عن نفسه) فمن يترفع عن الوزير ابي محمد المهلبي وهو من هوَ في سياسة عصره ودسائسه ، لا يتبذل مع صاحبنا القاضي التنوخي- هذا ولئن كان قد سأل المتنبي حقاً كما يقول فما يكن جواب المتنبي عن ذلك هذا الكلام الملفق الضعيف الذي يَضَعُ من رأي صاحبه ويستفسد من عقله «انا رجل اطوي البوادي وحدي وأحيط القبائل .... » فلم يكن المتنبي ممن يطوي البوادي وحده اذ ذاك بعد ان سار اسمه سير الشمس ما بين مشرقها ومغربها . والمتنبي الذي لم يخف ان يخرج غير محروس يوم قتل وقد اوعدوه ، وأرصدوا له وتحقق هو ذلك لا يقول « ومتى انتسبت لم آمنْ ان يأخذني بعض العرب بطائلة بينها و بين القبيلة التي انتسب اليها » وهل اذلُّ من قوله « وما دمتُ غير منتسبٍ الى إلى احدٍ فأنا اسلم على جميعهم ويخافون لساني » أهذا يقوله من اوعد الملوك وجاهرهم بالمداوة في عصر كانت تذهب فيه الارواح مع كلمات الوشاية والدسيس والمكر السيء ؟.. كلاَّ يا ابا علي . . .

وقد بالغَ صاحبنا التنوخي في روايته عن المتنبي حين سأله عن ابي الحسن محمد بن يحيي العلوي مما يدلُّ على انه كان يريد ان يولد كلاماً ، فأطال فيما روى ليوهم السامع بطول قوله ان المتنبي حرَّكته الذكرى فأفاض فقال عن ابي الحسن العلوي « تِربي... وصديقي...وجاري بالكوفة . . وأطراه ووصفه » . ونسي التنوخي انه قد وضع فيما وضع كلمةً افسدت عليه ما اراد وهي قوله « تِربي » وتِرْب الرجل ولِدته هو الذي وُلد معه والمتنبي وُلد سنة ٣٠٣ وأبو الحسن العلوي كما قدمنا ولد سنة ٣١٥ والرجل لا يقول للذي بينه وبينه ما يزيد على عشرة أعوامٍ (تِرْبي) فما ظنّك بأبي الطيب

وأُخرى . . . فمن جهل هذا التنوخي بأساليب الوضع المتقنة — التي جرى عليها شيوخ الوضّاعين وأحكموا أمرها حتى خفيتْ على الحفيّ البصير من العلماء والادباء — أنه جمع بين النقائض في الكلام الواحد الذي يراد به إثبات ما لا يكون ، أو كَوْن ما لم يثبُتْ ، فمن ذلك أنه روى أن أبا الرجل كان سقاءً يستقي على بعير له ثم حدّث عن الرجل نفسه انه قال « متى انتسبت لم آمَنْ أن يأخذني بعض العرب بطائلة بينها وبين القبيلة التي أنتسبُ اليها » . وهذا أمرٌ من الامر ، فإن العرب لذلك العهد كانت قد نسيت التِّرات القديمة ، وألقت بالسخائم المتوارثة وانصرفت إلى ما جدّ من الاحداث في دولتهم وفرّق شملهم وجعل بأسهم بينهم تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتّى ، حتى لعبت بهم الاعاجم لخطمتهم الايام . فإذا كانت العرب قد نسيت ما قدُم أو ذكرته قليلاً قليلاً فما خوف المتنبي مما لا يخاف منهُ ؟ وما خوفهُ وهو آمنٌ في المدن بين

الكوفة وحلب وانطاكية ودمشق والفسطاط ؟ أو كان المتنبي وحده من أهل عصره هو الذي يخشى ذاك ؟ ألم يكن في عصره مثلُه ممن يطوي البوادي وحده؟ كلاّ ، وإن رجلاً قد سقطت بآبائه السواقطُ إلى السقاءة وغيرها من حقيرة المهن لا تنبغي عنده طائلةٌ ، وإن بُغيت فما يكون لمدركها عنده نخرٌ . و(ابن السقاء هذا) ما عرض في شعره كله إلى قبيلة فهجاها أو عرّض بها أو لمزها بشيء ، حتى يخشى ظهور كيدٍ يُكاد به ، ولئن فعل لقالوا له كما قال الاول

وكنْ كيف شئتَ، وقل ما تشا ءْ، وأرعِدْ يميناً وأرقْ شمالاَ
نجا بكَ عرضُكَ منجى الذبا ب حمته مقاذرُه أن يُنالاَ

وما عرضٌ كعرض سقاءٍ وابن سقاء ينجو به ناجٍ من طالب ثأرٍ أو مدرك ترة

وهلاّ أدرك هذا المترفع المتعالي على الملوك والأمراء — عنيتُ المتنبي — بنسبه رجلاً آخر غير هذا السقاء — الذي هو ابوه — فوقف عليه بنسبته!! ما كان يضير هذا الرجل — لو انه كان قد سئل عن نسبه كما يوهم التنوخيّ — أن يرتفع بنسبه شيئاً إلى رجلٍ من الناس معلوم غير منكور ولا محقر ؟! إن الرواة قد اختلفوا — كما رأيت في صدر مقالنا — في اسم جدّه (أبي أبيه) ولم يجمعوا على شيء ، واخطأ بعضهم في اسم ابيه فسماهُ (محمداً) ، واقتصر جلّ شراح ديوانه من الاوائل ، ثم اكثر النسخ المخطوطة — على اسم أبيه وحسب ولم يزيدوا ، فهذا دليل على أن الكتمان إنما كان كتماناً للنسبة كلها لا كتماناً إلى قبيلة بعينها يخشى من الانتساب اليها أنْ يلحقه من جرائها أذىً في ترة او مكروهاً في ضغينة قديمة أو محدثة، وأيُّ ثأرٍ يكون للعرب والقبائل عند منْ كان سقاءً بالكوفة !

ثم إن التنوخيّ يروي هذا الخبر ، ويروي ايضاً انه كان جعفيّاً صحيح النسب. وما تصحُّ نسبة سقاء إلى جعفيّ بن سعد العشيرة إلاّ أن يذكر نسبه متّصلاً إلى جعفيّ ، لان سقاءً يدعي الانتساب إلى جعفي لا بدّ له من أن يقيم دعواه بالدليل والبرهان : وهما النسب المتصل المعروف غير المنكر ، ما من ذلك بُدٌّ ، ولو كان ذلك ، لوقع الينا نصٌّ واحدٌ يذكَرُ فيه نسب المتنبي إلى رجل من جعفيّ لا يختلفُ في أمر نسبته . فما ظنك بمن اختلف في جدّه الادنى والذي بعده ولم يتجاوزوا ذلك إلى متفق عليه من عمود النسب ؟

أو لم يكن الذي حفز التنوخيّ ان يسأل المتنبي عن نسبه فأخفاه عنه ، ليحفزهُ ان يسأل ابن أم شيبان الهاشمي ، أو أبا الحسن العلويّ ، كيف صحت نسبةُ الرجل إلى جعفيّ ، وخاصة بعد ان جحده المتنبي وكتم عنه ما عرفه غيره ؟ ولو كان فعل ، لكان نسب الرجل مشهوراً عندنا كما صارت مهنة أبيه مشهورة منقولة

وبعد ، ألم يكن بين العرب جميعاً مَنْ يعرف ان الرجل جُعفيٌّ القبيلة غير (ابن أم شيبان

الهاشمي) و (أبي الحسن العلوي) و (أبي عليّ التنوخيّ) ؟ أو قد حرصوا ثلاثتهم على أن لا يذيع نسب الرجل الى جعفيّ ؟ ولو كان ذلك . فما الذي حملهم على هذا الحرص ؟ والتنوخي نفسه لم يكن يعرف سبب حرص المتنبي على كتمان نسبه الاّ في السنة التي مات فيها (سنة ٣٥٤)! أكانوا ثلاثتهم لا يأمنون (أن يأخذ المتنبي بعض العرب بطائلة بينها وبين القبيلة التي ينتسب اليها) ؟ وكذلك شهد الرجل (التنوخي) على نفسه في حديثه بالتخليط أو الوضع

ولا يفوتنّك أن المتنبيّ في أول أمره كان بأنطاكية واللاذقية وكان التّنوخيون ينزلونهما من قديم ، وقد نبتت بين صاحبنا وبين رجال من تنوخ هناك نابتةٌ من المودة ثم نمت وربت واهتزّت فدحهم ورثاهم ودفع عنهم ورمى دونهم وأقامَ طويلاً بينهم مكرّماً ، وقد كان بين أصحاب أبي الطيب من التنوخيين وأبناء أعمامهم عداوة ، فلما مات محمد بن اسحق التنوخي ورثاهُ المتنبي جرى في انطاكية الخبر بأن أبناء عمه قد شمتوا بموته فلجأ هؤلاء الشامتون الى أبي الطيب يسألونه أن ينفي الشماتة عنهم فكان مما قال في ذلك

(أبناءُ عمٍّ) كل ذنبٍ لامرئٍ إلاّ . (السّعاية) بينهم مغفورُ
طار الوشاةُ على صفاءِ ودادهم وكذا الذبابُ على الطعامِ يطيرُ

ثم عادوا فسألوه أن يزيد فكان مما قاله على لسانهم

رأى ابنَ ابينا غيرُ ذي رَحِمٍ له فباعدنا عنه . ونحن الاقاربُ
وعُرِّضَ أنا شامتونَ بموته وإلاّ فزارت عارضيه القواضبُ
(أليس عجيباً أن بين بني أبٍ لنجلِ يهوديٍّ تدبُّ العقاربُ)

وهذه العداوة التي كانت بين التنوخيين مما يحجزنا عن الثقة بأقوال أحدٍ من تنوخ (كأبي علي التنوخي) ممن يذكرُ من أمر أبي الطيب شيئاً ، وعلينا أن لا نطمئن إلى قوله حتى تقطعنا الحجة بأنه كان ممن لا يميلون الى هوًى ، ولا يُصغون أفئدتهم الى بغضةٍ ، فما ظنك بأبي عليّ التنوخي وهو قد اجتمعت الدلائل — كما رأيتَ — على وهن روايته ، واختلاط حديثه ، وبيان هواه

وليس عجيباً ان يكون التنوخي ممن يحمل لابي الطيب في صدره شحناء لصلته المعروفة بأبناء عمومته ، فتحمله هذه الشحناء على وصف الرجل بكل نقيصة او النيل منه بكل سبيل .

واعلمْ ان عليّاً التنوخي (والد المحسّن هذا) كان ممن وُلدَ بأنطاكية وشبّ بها ثم رحل عنها ، فلعلّه رحل عن انطاكية لحدثٍ وقع بين اهله وبين اقاربهم ، وبقيتْ في صدره وصدر ابنائه حزازاتٌ موروثة وأحقاد لبني عمه هناك ، ولا عجبَ ، فقد كانت هذه الفترةُ من العصرِ العباسي يرجلاً يغلي بالاحقاد بين الاخوة وبني الاعمام حتى قتل الرجل منهم اباه وعمه وأخاه ، وهتك

عرضه ، واستباح حرماته ، وخاصة من رَقِيَ درجات الامارة ، أو أدرك سبباً من السلطان كأصحابنا التنوخيين ، (وهم نسلُ ملوك تنوخ الاقدمين)

هذا ، ولو سلمنا للتنوخي رحمه الله بصحة روايته عن أبي الحسن العلوي ، وان الذي قالهُ عن المتنبي هو من لفظ أبي الحسن جملةً ليس بموضوع ولا مبتدع من عند نفسه — فعندنا في أقوال العلويين المعاصرين عن أبي الطيب سببٌ للتوقف دون التسليم لهم هكذا ، لا نجادل(١)...

ففي ديوان أبي الطيب معنىً من المعاني ، وإخالهُ سرًّا من الاسرار ، لعلهُ أن يكون يوماً مفتاحاً تتسنى لهُ الابواب المغلقة في نسب الرجل ، ومعرفة أصله الذي يصلهُ بنسب غير مجهول ولا موضوع ، فعلينا أن نستوفيَ هنا بعض الرأي الذي نذهب اليه ونقيّدهُ على مُكْث .

نشأ صاحبنا بالكوفة ، وهي إذ ذاك دارُ العلويين ، ومعقل الائمة منهم والنابهين من رجالهم وشجعانهم ، فكان حقيقاً بمثله ممن ينالُ بالشعر ويؤمّلُ منه أن يمدحَ من تُرجى عنده الفواضل من كبار العلويين وأجوادهم ، وهم أهل بلده الذين في ظلهم نشأ ، وبين ربوعهم نما ، ومن علومهم(٢) نَهِلَ واغترف ، واستقى وأفاض (على الناس من غيرهم) مما استقى وما اغترف

فعجباً لابي الطيب ، أيما عجب ، أن لا يكون مدح من العلويين إلا رجلين ما امتدَّ به العمر وقد بيّن أبو الطيب في إحدى قصيدتيه ، وبينت الرواية في الاخرى سببَ ذلك المدح...

قال العكبري : وكان محمد بن عبيد الله — العلويُّ المعروف بالمشطّب — هذا الممدوح قد واقع قوماً من العرب بظاهر الكوفة ، وهو شابٌّ دون العشرين سنة فقتل منهم جماعة ، وجرح في وجهه فكسته الضربة حُسناً . . . . فهذا ما سمعته من جماعة من مشيخة بلدنا »

فمدحه المتنبي بقصيدته(٣) التي أولها

أهلاً بدارٍ سباكَ أغيدُها أبعدُ ما بان عنكَ خُرَّدُها

فذكر فيها أن ناقته حملته الى (ابن عبيد الله) هذا الممدوح

---

(١) وقبل فلا تنس — ما كتبنا لك — أن العصر الذي كان أبو الطيب أحد رجاله ، كان من بين العصور العربية عصراً خبيث النفس ، فاسد الطوية ، قد طفت فيه الدسائس ولعبت به الاهواء واستحرت الاحقاد بين الرجل وأخيه ، والوالد وبنيه ، والوحيد وعشيرته التي تؤويه ، وفصل هذا المعنى ، وخذ به واعرضه في اثناء كلامنا فا في كل موضع يمكن الاشارة ، ولا عند كل مفرق من القول يجب التعليق والتفصيل ، وما يفوز القارىء حين يفوز الا بما يفطن اليه مما يغفل عنه غيره ويتجاوزه سواه

(٢) اعلم كما سترى بعد ان المتنبي تعلم في كتاب للعلويين

(٣) الرأي عندنا أن المتنبي قال هذه القصيدة بعد مرجعه الى الكوفة من مقامه بالبادية سنة او اقل وقبل خروجه الى بادية كلب واللاذقية حيث سجن في دعوى النبوة — كما يزعمون ، وقد كانت سنه حين قالها على الارجح عندنا خمس عشرة سنة اي سنة ٣١٨هـ واعلم اننا انما نجتهد في تأريخ ما لم يؤرخ من قصائد المتنبي — وقد وجدنا في ذلك المشقة وما فوقها — لنترجم للرجل على بينة وهدى وستجد فائدة ذلك في كثير مما يمر بك ان شاء الله

إلى فتىً يُصدرُ الرماحَ وقد أنهلها في القلوب مُوردُها
لهُ أيادٍ إليَّ (سالفةٌ) أعُدُّ منها ولا أعدِّدُها

ثم طفق يمدحه إلى أن قال

وكم وكم نعمةٍ مجلّـلةٍ ربَّيتها كان منك مولدُها
وكم وكم حاجةٍ سمحت بها أقرب مني إليَّ موعدُها
ومكرُمات مشت على قدم الـبرِّ إلى منزلي تردِّدُها
أقرَّ جلدي بها عليَّ فلا أقدرُ حتى المات أجحدُها
فعُد بها لا عدمتُها أبداً خيرُ صلات الكريم أعودُها

والمتنبي كما ستعلم بعد كان — أول أمره وهو صبيٌّ — «يختلف الى كتّاب فيه أولاد أشراف الكوفة» من العلويين فكأن (محمد بن عبيد الله العلوي) هذا كان من لِدَات أبي الطيب أو أسنانه[1] الذين كانوا معه في المكتب، وأخذت بينهما المودةُ ثمَّ، ولعلهُ كان يُفضل على المتنبي ويتعهدهُ ويكرمه فلذلك قال «لهُ أيادٍ اليَّ سالفةٌ». فأكدت هذه المودة القديمة سبب المدح حين عاد من رحلته في البادية يتسقطُ اللغةَ وينتجع الرزق. وأرجح الظن أن المتنبي حين عاد الى الكوفة، عاد اليه صاحبه العلوي بالافضال والتعهد، فلما أصيب بالجراحة في حربه مدحه المتنبي لصداقته ومودته، ولما أسدى اليه من معروف، وما اتخذ عنده من صنائع

أما آخر الرجلين العلويين ممن مدح، فهو أبو القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي لم يمدحه المتنبي ابتداءً، كما مدح غيره. وفي ما نرويه لك من خبره عجب

كان الامير ابو محمد الحسن بن عبيد الله طغج وهو بالرملة لم يزل يراسل أبا الطيب وهو بطبرية سنة ٣٣٦، ويعزم عليه في القدوم عليه فلما كثر ذلك منه أجابه ومدحه وأقام عنده مُديدة، فلم يزل أبو محمد (الحسن بن عبيد الله بن طغج) — يسألُ ابا الطيب ان يخصَّ ابا القاسم (طاهراً) العلوي بقصيدة من شعره (وأنه قد اشتهى ذلك)!! وأبو الطيب يقول: «ما قصدتُ الاّ الامير (ولا امدح سواه)!!» فقال له ابو محمد: «عزمت عليكَ ان اسألكَ قصيدة تنظمُها فيَّ فاجعلها فيه» (تأملْ هذا) وضمن له عنده مئات من الدنانير، فأجاب

قال محمد بن القاسم الصوفيّ: «فسرتُ انا والمطابيّ برسالة طاهر الى ابي الطيب، فركب معنا حتى دخلنا عليه، وعنده جماعةٌ من الاشراف، فلما اقبل ابو الطيب نزل طاهرٌ عن سريره، والتقاه مسلماً عليه، ثم اخذ بيده فأجلسه في المرتبة التي كان فيها، وجلس هو بين يديه. فتحدّث معه طويلاً ثم انشده ابو الطيب فخلع عليه للوقت خلعاً نفيسة»

(١) يقول فلان سن فلان اي مثله في سنه والجمع اسنان

قال علي بن القاسم الكاتب : « كنت حاضراً هذا المجلس ، فما رأيت ولا سمعت ان شاعراً جلس الممدوح بين يديه مستمعاً لمديحه غير ابي الطيب ، فاني رأيت هذا الامير قد اجلسه في مجلسه ، وجلس بين يديه ، فأنشده

اعيدوا صباحي فهو عند الكواعبِ وردّوا رقادي فهو لحظ الحبائب (١)

وفي هذه القصيدة التي يمدح بها رجلاً علويًّا سامي القدر يقول

« كثيرُ حياة المرء مثل قليلها يزول ، وباقي عمره مثل ذاهبِ
اليكَ ، . . فاني لستُ ممن إذا اتّقى عِضاضَ الافاعي نامَ فوق العقارب
اتاني وعيدُ (الادعياء) وانهم اعدوا لي السودان في كفر عاقبِ
ولو صدقوا في جدّهم لحذرتهم فهل فيَّ وحدي قولهم غير كاذبِ
اليَّ لعمري قصد كلّ عجيبةٍ كأني عجيبٌ في عيون العجائبِ
بأي بلادٍ لم اجرَّ ذؤابتي ؟ ! وأيُّ مكان لم تطأه ركائبي ؟ ! »

ونفَسُ الرجلُ في القصيدة يدلُّ على انه كان قد لقي كيداً في سنته تلك من هؤلاء القوم الادعياء (وهم الذين يدعون الشرف بنسبتهم الى علي رضي الله عنه) . وبين مما ورد في شعر ابي الطيب انه حين ازمع الرحيل من طبرية سنة ٣٣٦ ارصد له هؤلاء العلويون (الادعياء) قوماً من السودان عبيدهم في طريقه بكفْر عاقب(٢) ليقتلوهُ فلم يظفروا بما أمّلوا ، واحفظ ذلك أبا الطيب ، فلما دخل الرَّملة كان — على عادته كما سترى ذلك — ثائراً لا يفتأ يذكر ، ما يختلج في ضميره لا يراعي ولا يحابي ولا يتهيَّب ، ومن آثار هذه الحفيظة قوله في هذه القصيدة أيضاً

« إذا (علَويٌّ) لم يكن مثل طاهرٍ فما هو إلاّ حُجَّةٌ للنواصبِ » (٣)

ثم أجرى هذا الامر مجرى المثل كعادته فقال

إذا لم تكن نَفْس النسيبِ كأصله فماذا الذي تُغْني كرَام المناصب!!
وما قربتْ أشباهُ قومٍ أباعدٍ ولا بَعُدَتْ أشباهُ قومٍ أقاربِ

والبيت الاخيرهو حجتهُ في نفي العلوية عنهم وإثبات أنهم أدعياء لا يمتون إلى الشرف بسببٍ

---

(١) لابد لنا هنا من التنبيه الى خطاء بليغ وقع فيه أحد كبار ادبائنا في كتابه عن المتنبي اذ زعم ان المتنبي قال هاتين القصيدتين (في ابن طغج والعلوي) بعد فراق سيف الدولة وقبل اتصاله بكافور ، والصحيح انهما قيلتا سنة ٣٣٦ وهو بالرملة ومن ثم في تلك السنة رحل الى انطاكية قاصداً أبا العشائر الحمداني الذي وصل اسبابه بسيف الدولة سنة ٣٣٧ وسترى ذلك في موضعه من مقالنا . هذا على ان اسلوب الرجل في هاتين القصيدتين ونفسه في الشعر ، غيره فيما قاله بعد فراقه لسيف الدولة ، وذلك بين لمن تدبر ادنى تدبر

(٢) كفر عاقب : قرية على بحيرة طبرية من اعمال الاردن

(٣) النواصب هم الخوارج الذين نصبوا العداوة لامير المؤمنين علي كرم الله وجهه واحدهم ناصبي

ولاصلة . فلو كانوا علويين — لاجرم — لتشابهت الاخلاق في الكرم والسموّ ، ولكانوا كهذا العلويّ الذي يمدحه (طاهر بن الحسين)

ليس هذا فحسب ، فإن أبا الطيب يقول للامير أبي محمد ابن طغج في مديحه

كريمٌ نفضتُ الناسَ لمّا بلغتُه كأنهمُ ما جفَّ من زاد قادمِ
وكاد سروري لا يفي بندامتي على تركِهِ في عُمرِيَ المتقادمِ
وفارقتُ شرَّ الارض أهلاً وتربةً بها (علويٌّ) جدُّه غير هاشمِ

(وشرُّ الارض) هي طبريّة التي كان بها قبل مقدمه إلى الرَّملة!

أو ما ترى بعد ان في تجنب المتنبي مدح العلويين ورجالهم وأئمتهم في اول امره وهو بالكوفة ، إلاّ واحداً كان رفيق صباه وأحد اسنانه ، ومن خير المفضلين عليه والمتعهديه في محنته وفقره — ثم في طلب الامير منه ان يمدح طاهراً العلويّ فيمتنع ويستعصي عليه حتى يكثر عليه الامير ويقول « أنا اشتهي ذلك » فيقول أبو الطيب « ما قصدت الاّ الامير ولا أمدح سواه » فلا يزال به يحتال عليه حتى يستخرج من وعده — ثم في اكرام العلويّ له هذا الاكرام البالغ بنزوله لهُ واجلاسه في مرتبته وعلى سريره ، ولا يتورَّع المتنبيّ إذ ذاك ان يذكر بعض العلويين بالمذمة والتعريض ونفي النسبة الكريمة عنهم — ألا ترى ان هناك سراً من الحفيظة بينهُ وبين العلويين الذين نشأ بينهم وفي ديارهم ، ودرس في مكتبهم ، بين أولادهم!

هذا وسيأتي طرف من ذلك (١) بعد ، فترى ان أبا الطيب حين خرج في اول أمره باللاذقية كان الذي عذّبه وسجنه رجلٌ هاشميٌّ علويٌّ هو (ابن عليّ الهاشمي) وكان بكوتكين لجعل في عنق صاحبنا ورجليه خشبتين من الصفصاف فقال له

زَعَمَ المقيم بكوتكين بأنّه من آل هاشم بن عبد منافِ
فأجبته : مذ صرْتَ من ابنائهم صارتْ قيودهم من الصفصافِ

يسخر منه ، ومما أخذه به!

أفلو شككنا — من اجل هذا — في صحة ما يقوله العلويون عن أبي الطيب ، وتوقفنا دون الاخذ بأقوالهم في ترجمة الرجل — نكون قد اتينا امراً كبيراً لا يقرّنا احد عليه ؟ لا ادري

رأيت قبل ان الذي قال انّ والد المتنبي هو عبدان السقّا — انما هو أبو علي المحسّن التنوخيّ وهو من شيوخ العراق واصحاب الوزير المهلبيّ فزدْ على هذا ايضاً ان المتنبي حين دخل العراق بعد فراق كافور ، أعرض عن المهلبي ، ولم يمدحه ، ولم يبال به فأغرى به الشعراء وغيرهم من الكتاب والادباء . وكان شعراء العراق خاصة يخافون أن ينال ابو الطيب في العراق ما نال

(١) سيأتيك في خبر نبوته أيضا بعد انهم زعموا ان أبا الطيب ادعى أنه علوي حسني ثم ادعى النبوة ثم عاد يدعي أنه علوي وسترى بطلان ذلك ان شاء الله وتأويله عندنا على الرأي والنظر لا الرواية

في الشام فيذهب بأرزاقهم من المدح ، ويعصف بذكرهم عند الملوك والامراء كما فعل بمن هم أعلى منهم طبقة من شعراء الشام كابي فراس الحمداني ، والسري والرفاء ، وابي العباس النامي ، وأبي الفرج الببغاء وخلق كثير من الشعراء. وقد هجم على ابي الطيب ووقع في عرضه شعراء العراق حين اغراهم الوزير المهلبي به حتى قالوا فيه

أيُّ فضلٍ لشاعرٍ يطلبُ الفضـــلَ من الناسِ بكرةً وعشيًّا
عاش حيناً يبيع بالكوفة المـا ء وحيناً يبيع ماء المحيّا

فزعموا انه هو هو الذي كان سقاء لا أباه ، وهاج هذا القول الحسن بن لنكك شاعرالبصرة وكان كما كان الخالديان (حاسداً له طاعناً عليه هاجياً إيّاه ، زاعماً ان أباه كان يسقي الماء بالكوفة) فقال ابن لنكك شماتةً حين رأى وقيعة شعراء بغداد في الرجل

قولوا لاهل زمانٍ لاخلاق لهم ضلوا عن الرُشدِ من جهلٍ به وعموا
اعطيتمُ المتنبيّ فوق منيتــه فزوّجوه برغم امهاتكم
لكن (بغداد) جاد الغيث ساكنها نعالهم في قفا السقاء تزدحم

وقال ايضاً

« متنبيكم ابن سقاء كوفاني . . . .

ونضحَ — بعد ذلك — إناء ابن لنكك بما فيه

فذكرُ المتنبي بالسوء وزعمهم بأن أباه كان سقاء من (مصنوعات) العراق وتجارته التي كا المهلبي (وزيراً) لها إذ ذاك على ما نرجح ، فكم اتجر صاحبنا المهلبي بالاكاذيب في ايام وزار كما روت التواريخ عنه وعن ايام اصحابه . والاّ فكيف (يصحُّ في الاذهان) ان يقف ابن السة هذا المتنبيء كما زعموا في كل المواطن موقف المتعالي المتكبّر الذي لا يرى احداً فوقه ولا اح مثله حتى سيف الدولة ابن حمدان وليّ نعمته ، وصاحبه ، ومكرمه على حين مساءةٍ من الزمن يا عجباً !! ألمْ يكن في مجلس سيف الدولة من يعرف ذلك يوم غضب عليه ، وترك الشعراء يقعو فيه ، ويتصدّى له ابو فراس وهو ينشد فيجبهه ويقطعه عن الانشاد .يقول المتنبيّ في هذا المجل

سيعلمُ الجمع ممن ضمَّ مجلسنا بأنني خير من تسعى به قدمُ
أنا الذي نظر الاعمى الى ادبي وأسمعت كلماتي من به صمم

فانظر كيف فضّل نفسه على من ضمّ مجلس سيفِ الدولة وفيهم سيف الدولة نفسه ، يزد ابو فراس — وهو قريع المتنبي في الشعر وعدوّه لمنزلته عند سيف الدولة — على ان له فيما قال : « ومن انت يادعي كندة » !! وفي قوله « دعيْ كندة » نظر .فما نظنُّ الر- ادّعى لكندة واصحابنا يزعمون انه كان يخفي نسبه ، وكان اولى بأبي فراس ، واوقع في الم

واوضع له في تيهه وتماليه على الامراء والملوك وكبار الشعراء كابي فراس نفسه - ان يقول له إذ ذاك «من انت يا ابن سقاء كوفاني» .. لو انه كان علم ما علمه (التنوخيّ واصحابه وشعراء العراق وشاعر البصرة الحسن بن لنكك) الذين كانوا بالعراق على صلة (ببلاط) الوزير المهلّبي وزير معز الدولة احمد بن بويه (الديلمي) عدوّ بني حمدان وفي رأسهم سيف الدولة (العَدويّ العربيّ)

أترى شعراء الشام الذين ذهب برزقهم وذكرهم، ولم ينفهم من ذمّه لهم في شعره، كانوا لا يتقصّون خبر الرجل وقد استفحل أمرهُ بينهم فيعلمون انه كان (ابن سقاء) فيلمزونه بذلك ويستخفون به، او يعبثون به ويتنادرون عليه؟! وهذا ابن السقاء يتحداهم ويتحدى سيف الدولة نفسه، وأبو فراس قريعه وعدوه في المجلس إذ يقول

كَمْ تَطلبون لنا عيباً فيُعجزكُمْ ويكرهُ الله ما تأتون والكَرَمُ
ما أبعد العيبَ والنقصان من شرفي أنا الثريّا، وذانِ الشيبُ والهَرَمُ

أئنهم ليطلبون له عيباً فيعجزهم الطلب ويكون متعالماً في العراقِ بعدُ أن الرجل ابن سقاء كان يسقي الناسَ على بعيرٍ له بالكوفة!!

اقرأ ديوان الرجل كله، تجده تيّاهاً يتسامى بنفسه على كلّ ممدوحٍ، ويتعالى على كلّ اهلِ عصره، ولا يفتأ يوسع الشعراء من سخريته وهو قد قطع أرزاقهم، وألوى بهم وبذكرهم، وكلامه كلام الواثق الذي لا يدخله الشكّ، ولا يروعه الكذب، ولا يردُّه الافتراء، فلو كان في نسب الرجل (اذ ذاك) مطعنٌ لطاعن، او في اصله تهمة لمتّهم لتردّد في قوله تردّد الحيران ولاجتنب الفخر حيث يكثر الحسد والهمهمة والتأفيق والدسُّ عند الامراءِ ومن اليهم من رجال الدولة. ولو كان في نسب الرجل شيءٌ، لسمعتَ عن كل موضعٍ من فخره في شعره نادرة يتناقلها الادباء وغمزةً قد غمزه بها انداده وأعداؤه من الشعراء. الم يسمع هؤلاء إلى قوله في فخره

لا بقومي شَرُفتُ بل شَرُفوا بي وبنفسي فخرتُ لا بجدودي
وبهمْ فخرُ كُلّ من نطق الضّا د وعَوذُ الجاني وغوث الطريدِ

فهذا من اكبر الفخر فما من قوم يفخر بهم (كلّ من نطق الضاد) غير أبناء علي رضي الله عنه وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ويقول يرثي جدته وقد ماتت بالكوفة، وكان صاحبنا إذ ذاك قريباً من الكوفة حيث نشأ وعرفَ

«وإنّي لمن قومٍ كأنّ نفوسَهُمْ بها أنَفٌ أن تسكنُ اللحمَ والعَظْما»

والعجب أن لا يصلنا عن هذا وغيره خبرٌ واحدٌ يطعن فيه الرجل بأنه ابن سقاءٍ ومايكون لابن سقاءٍ أن يقول مثل هذا، ويكون كل ما وصلنا من خبر أبيه إنما وصل في خبر دخوله بغداد في آخر عمره، ومن رجالٍ بينهم وبين الوزير المهلبي آصرة مودّةٍ وتنادم، أوشعراء آسدَهم هذا الوزير المهلبي وأغراهم بالرجل، حتى وقعوا في عرضه، وولغوا في شرفِ نسبه، وجودة قريضه وبيانه

فوَا أسَفا ألاَّ أكِبَّ مقبِّلاً
لرأسِكِ والصدرَ اللذَا مُلِئا حَزمَا
وألاَّ ألاقي رُوحَكِ الطيِّبَ الذي
كأنَّ ذكيَّ المسْكِ كان له جِسما
ولو لم تكوني بنت أكرَمِ والدٍ
لكان أباك الضخْم كونُك لي أمَّا

هما ، ولا غيرهما ، . . . ابوه الذي كان سقاء — زعموا — يستقي على بعير له بالكوفة ، وكان جعفيًّا صحيح النسب . . . وجدته ، وكانت همدانية صحيحة النسب (لا يُشكُّ فيها) ، وكانت من صلحاء النساء الكوفيات . هما ولا غيرهما . . ، اصلهُ وفرعهُ ، وقديمه وحديثه ، وعشيرته وأهلهُ ، وعصبته وقومه ، والقائمون بأمره في اول حداثته لا عمٌّ ولا خالٌ ! !

اما امهُ فقد جهدتُ ان اجدَ لها خبراً واحداً ، او ذكراً في كلامٍ ، فما وصلتُ ، اما ما يزعم بعض الكتاب والادباء من انه اراد امهُ بقوله وهو في السجن وقد كتب به الى الوالي

بيدي ايها الاميرُ الاريبُ لا لشيءٍ الاَّ لأني غريبُ
او (لامٍّ) — لها اذا ذكرتني — دم قلبٍ بدمع عينٍ يذوب

فليس عندنا بشيءٍ فانه كان يسمي جدّته (امه) وقد جاء ذلك في قصيدته التي رثاها بها فقال

ولو لم تكوني بنت اكرم والدٍ لكان اباك الضخم كونُك لي (امَّا)

ومن قرأ قصيدته هذه وتدبرها وقع في قلبه اليقينُ انه لم تعطفه عاطفةٌ الى احدٍ من اهله (ولا نستثني اباه السقاء ! !) الاّ ان تكون هذه الجدّة الكريمة التي حملته صغيراً وثكلته شابًّا بفراقه لها ، ثم ماتت به سروراً حين جاءها كتابه وهو متوجه الى العراق (ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك ! !) او كما قالوا . . . . وفي قصيدته هذه اشارة دقيقة بليغة مقدّرة ، يشير بها الى ان امه قد ماتتْ وهو صغيرٌ فكفلته جدته العجوز رحمها الله وذلك في قوله

« طلبت لها حظًّا ففاتت وفاتني (وقد رضيتْ بي-لو رضيتُ بها- قسما[1])

(١) القسم بالكسر النصيب ، وقد مضى الشراح من اصحابنا ولم يفسروا في قوله (لو رضيت) فعلى ان (لو) في هذا البيت انما تفيد الاسف والحسرة وهما وجه من وجوه التمني ولا بيت موضع آخر من مقالنا هذا نتولى فيه شرحه . فقد افسده الشراح

فتدبر الشطر الاخير فضل تدبر تجد المعنى الذي اردناه من ان امه ماتت وهو صغير فكان مما (قُسِم) لجدته ان تحضنه فرضيت بذلك رضى خالصاً وأحبته حبًّا عظيماً يقول في الدلالة عليه

« لكِ الله من مفجوعةٍ بحبيبها قتيلةِ شوقٍ غير مُلحقِها وصما »

وفي تسميته جدته (امًّا) بعضُ الغنى في الحجة المرجحة لقولنا هذا

شهد التنوخي او ابو الحسن العلوي — او من تشاء — لجدّة المتنبي انها كانت من « صلحاء النساء الكوفيات » ولعلّ هذا امرٌ لا ريب فيه – وان لم يكن قد وقع لنا الخبر بذلك – فانها هي التي تولت تنشئة المتنبي من صغره — ولقد تعلم وقد شهد له اكثر اهل عصره حتى أعداؤه — انه كان كما قال علي بن حمزة البصريّ (راوية المتنبي — كما سماه اهل المغرب)(١)

« بلوتُ من أبي الطيب ثلاث خلال محمودة ، وتلك أنه ما كذب ولا زنى ولا لاط » وقال ابن فورجه « لم يكن فيه ما يشينه ويسقطه الاّ بخله وشرهه على المال »

وقد كان أثر جدته بيناً في اول شعره كما سترى ، وقد ذكر المتنبي خلُقه في ابيات له منها قوله :

وترى المروّة والفتوّة والابوّة في كلّ مليحة ضرّاتها
هنّ الثلاثُ المانعاتي لذّتي في خلوتي لا الخوف من تبعاتها

فلا شكّ أن أكثر ذلك من أثر جدّته، وزكاة نفسها ، وصلاح قلبها . وقد وصفها المتنبي فجمع ما شاء ودلّ عليها ، وأبلغ ، صادقاً فيما قال

فواأسفا ألاّ أكبَّ مقبّلاً لرأسِكِ والصدرَ اللّذا مُلئا حزما
وألاّ ألاقي روحَكِ الطيّبَ الذي كأنّ ذكِيّ المسكِ كان له جسما

ويبدو لنا ان هذه العجوز الحازمة التي بنت للمتنبي أمره ومهدت له طريقه ، كانت مع حزمها وهديها وبصيرتها ، رقيقة القلب تكاد تتخلع من نفسها اذا أعطت عواطفها قيادها ومع ذلك فقد كانت تحزم أمرها وتقسو على نفسها حتى يخيّل لمن لم يخبرها أنها لا تعطي المقادة لشيءٍ الاّ للعقل والتدبير المحكم ، وفي الذي رووّا من خبر وفاتها دليلٌ بيّنٌ على ذلك فانها كتبت تشكو الى ولدها وحفيدها شوقها ولوعتها وطول غيبته عنها فلما توجه الى العراق (من الشام) « ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك ! ! » انحدر الى بغداد وكتب اليها كتاباً يسألها موافاته ببغداد فلما أخذت كتابه (قبّلته وحمّت لوقتها وغلبها الفرح فقتلها) رحمة الله عليها . وقد ورث المتنبي عنها هذا فقد كان مع ما يبدو من شدته وصولته ورجولته ، متهالكاً لا يستمسك فيما يمس عاطفته ويلمّ بقلبه ، وفي رثاء جدته بلاغٌ لك ان تدبرته ، وسترى ذلك ايضاً في آخر ما نكتبه عن أمره مع سيف الدولة، وعن أمره مع النساء او مع المرأة التي أحبها فهلكت وأهلكته

(١) كان من أئمة العربية ، مات في رمضان سنة ٣٧٥ بصقلية ، ولما دخل المتنبي بغداد كان بها علي بن حمزة فنزل المتنبي في داره، وقرأ عليه شعره ، وقد تركنا بقية قوله في المتنبي لموضعه من المقال ان شاء الله

لا بقومي شَرُفتُ بل شَرُفوا بي
وبنفسي فخرتُ لا بجدودِي . . .
وبهم فخر كلِّ من نطق الضّا
دَ وعوذُ الجاني ، وغوثُ الطريدِ

***

وإني لمن قوم كأن نفوسهم
بها انفٌ انْ تسكُنَ اللحم والعظما

ندعُ الآن امر جدته الى حينه — ان شاء الله — في كتابنا عن المتنبيّ ، ونبدأ برأي لم نجد له ما يؤيده من نصوص التاريخ ، ولكن . . . . . .

روى الاصفهانيُّ ان المتنبي ، وهو ابن السقاء !! ، « اختلف الى كتّاب فيه اولاد اشراف الكوفة ، فكان يتعلم دروس (العلوية) [١] شعراً ولغةً واعراباً ، فنشأ في خير حاضرة »

وتأويل هذا ، ان العلويين — وهم (الاشراف) — كما يتضح من هذا النص كانت لهم مكاتب خاصة يتلقّى فيها اولادهم مبادىء العلوم ، ولاشك ان العلويين كانت — ولا تزال — لهم مدارس خاصة بهم تقوم اصولها في التعليم على اصل اعتقادهم ، وقد مرّ بي في قراءتي كثير من ذلك لا اذكر موضعه الآن وانما اذكر ان الشريف الرضيّ كانت له مدرسة سماها (دار العلم).

ونحن وإن لم نك نعلم نظامَ هذه المدارس العلوية الا انه يتبادر الى الفهم ان هذه الكتاتيب والمدارس كان لا يدخلها الا ابناء العلويين ، ونصُّ الاصفهاني يقول بذلك ، فدخول (احمد ابن عبدان السقاء) — الذي هو المتنبي — بين ابناء العلويين في كتّاب لهم غريب عجيب، فيجب هنا ان نفهم من هذا الشاهد ان بين جدة المتنبي وبين العلويين سبباً موصولاً قويّاً هو الذي شرح صدورهم وارضاهم انْ يدخلوا بين ابنائهم غلاماً كان ابوه سقاءً في بلدهم .

هذه واحدة من علاقة ابي الطيب وجدته بالعلويين ، ثم ان ابا الطيب فارق جدته ورحل لغير سبب معلوم الى البادية ثم عاد الى الكوفة شاعراً قوّالاً ذا لسان فلم يمدح الا « محمد بن عبيدالله المشطب العلوي » — الذي قدمنا ذكره وذكر السبب في مدحه — ولم يمدح احداً من العلويين

(١) صواب هذه العبارة « وكان يتعلم دروس العلوية ، وحذق العربية شعراً ولغة واعراباً »

قاطبة على كثرتهم ، وثرائهم وعلوّ مرتبتهم ، وخلوص عربيتهم [٢] في عصر اختلطت فيه الامور وصارت الشوكة الى الاعاجم

فلما خرج صاحبنا الى الشام ذكروا فيما ذكروا من (امر الفضول الذي نُبز به يعنون النبوة) انه ادعي العلوية مرتين – اي ادعى انه علويّ صليبة وكان الذي قبض عليه هناك وعذبه وسجنه (ابن عليّ الهاشمي) العلوي ، وكان إذ ذاك باللاذقية سنة نيف وعشرين وثلاثمائة . واللاذقية يومئذٍ دارٌ من ديار العلويين يربض فيها رؤوس من الدُّعاة العلويين

ولما كان أبو الطيب بطبرية سنة ٣٣٦ وأراد الخروج إلى الرملة أرصد له العلويون قوماً من عبيدهم السودان ليقتلوهُ ، ولكنه فاتهم بحيته ودهائه ، ودخل الرملة يمدح الامير أبا محمد الحسن بن عبد الله بن طغج فكان مما قال في قصيدته

وفارقت شرَّ الارض أهلاً وتربةً بها (علويٌ) جَدُّه غير هاشم

ثم كان ما روينا لك من امتناعه عن مدح العلوي (أبي القاسم طاهر بن الحسين) ولم يمدحه إلاّ بعد إلحاح الامير وتدنيه في السؤال منه وكان مما قاله أبو الطيب في هذا المدح

أتاني وعيد (الادعياء) وأنهم أعدُّوا لي السودان في كفر عاقبِ

ولو صدقوا في جَدِّهِمْ لحذرتهم فهل فيَّ وحدي قولهم غير كاذب ؟

ثم انتزع من ذلك أمثالاً في النِّسبة إلى العلوية المكرمة فقال

« إذا لم تكن نفسُ النسيب كأصله فماذا الذي تغني كرامُ المناصبِ

وما قربت أشباهُ قومٍ أباعدٍ ولا بَعُدَتْ أشباهُ قومٍ أقاربِ

إذا (عَلَوِيٌّ) لم يكن مثل طاهر فما هو إلاّ حجَّةٌ للنواصبِ »

فلما دعتْه جدتُه إلى العراق أن يزورها قصدها ، والنصُّ الذي ورد في ذلك هو هذا « فتوجه نحو العراق ولم يمكنه دخول الكوفة (على حالته تلك) فانحدر إلى بغداد وكانت جدته (قد يئست منه) فكتب اليها كتاباً يسألها المسيرَ اليه . . . » وهو نص غريب كما ترى وليت شعري وشعرك ما الذي أرادوا بقولهم (لم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك) ، وهو قد أتاها قاصداً دخولها ، ورؤية جدته التي تحبه ويحبُّها ، ويقطع صاحبنا الارض من أقصى الشام إلى أسفل العراق ودخول الكوفة همُّه ، ثم يمتنع من دخولها لغير سببٍ مذكور أو معقول ، إذن فلا مناص من القول بأنه قد مُنِعَ من دخول الكوفة وهذا هو الوجه الآخر لتأويل هذا النصّ الغريب

فإن صحّ أيضاً ما أسنده التنوخي (وذلك ما أوردناه في أول كلامنا) إلى أبي الحسن وابن أم شيبان (العلويين الكوفيين) . وان ذلك من كلامهما كثرت الادلة التي توجه الحدس

(٢) والمتنبي كما تعلم كان من اكثر أهل عصره تمجيداً للعربية وتعصباً لها

والظنّ الى وجه يبينه وذلك ان بين المتنبي والعلويين سبباً مجهولاً حملهم اوّلاً اوّلاً الى اكرامه بدحوله بين أبنائهم في كتّابهم بالكوفة . ثم حملهم بعد على النية المعقودة تنتنت به في الشام، ثم منعه من دخول الكوفة ليرى جدته العجوز التي ارسلت اليه تشكو شوقها وطول غيبته عنها . ويزيدك في هذا يقيناً وعليه اعتماداً رثاء المتنبي لجدته ففيه لطائف من الاشارة نكتفي بذكر البيّن منها هنا ثم نعود اليها بعد قليل . يقول المتنبي :

«هبيني (أخذت الثأر فيك من العدى) فكيف بأخذ الثأر فيك من الحمّى »

ثم يقول :

« لئن لذّ يوم (الشامتين) بيومها لقد ولدت مني لأنفهم رغما »

فقد أثبت ابو الطيب أن لجدته ثم له أعداءً كان همّه كله او اكثره ان يأخذ منهم (ثأرها) وثأره ، وان هؤلاء الاعداء قد شمتوا بموتها يوم ماتت ، فهذه الجدة الصالحة العجوز قد اتخذت لنفسها اعداء يرضون انفسهم بالشماتة ، وهؤلاء الاعداء — ولا بدّ — كانوا من الكوفة والارجح انهم كانوا من العلويين لما رأيت قبل من الصلة او العداوة القائمة بينهم وبين ابي الطيب المتنبي

وأنا لا أرى بأساً من ترجيح الظن بأن المتنبي كان من ابناء العلويين فان هذا يفسر كل غموض في حياة الرجل ، وفيما روي عن نسبه من المفقات ، وحسبي هنا ان أمرّ بك مرّاً على مواضع بعينها لترى رأيك — وفقك الله — فيما اردنا من القول به فان رأيت حجتنا ساقطة فأسقطها ولا تؤاخذنا بما ظلمنا ، فان رجحت ما نقول به . . . فأن تدعِ الناسَ لآبائهم أقسطُ عند الله

ووضع القضية عندنا هو هذا :

تزوج رجلٌ من العلويين ولا جرم ان يكون من كبارهم — بنت جدة المتنبي فحملت منه وولدت احمد بن الحسين (وهذا الحسين غير عبدان السقاء) ، ولامرٍ ما أريد هذا الرجل على طلاق امرأته وفراقها ، وحمله العلويون على ذلك ، ففارقها وطلقها ، فرجعت الى أمها بجنينها او طفلها ، وحزنت حزناً اهلكها فاستلها الموت وذهب بها ، وبقي الطفل فكفلته جدّته وتعهدته وقامت بأمره ، ودلته على الطريق بعد ان صرحت له بحقيقة امره ، وصحيح نسبته ، وكان من حزمها ان حذّرت الفتى عواقب التصريح بأمر نسبه وأخذت عليه المواثيق والعهود ، بحبها له وحبه لها ، وأنه ان فعلَ كان في ذلك هلاكها وهلاكه فبقي على ذلك متململاً حتى كان من امره ما كان من ادعائه العلوية بالشام فقبض عليه فاضطرّ الى الاخلاد والتسليم وحرص على ان يطيع امر جدّته بعد أن علم حزمها وصواب رأيها ،واخلاصها له المشورة ومحضها له النصيحة

وهذا الوضع لقضية المتنبي هو الذي يفسر لك طول تكتم المتنبي على نسبه واخفائه جهده من اصحاب الالسنة المتنقلة بين الرجال ، ويفسر ايضاً مخرج قصة (ابيه السقاء) وحرصهم على

حبكها، والتقديم لها بلطيف القول، وحسّن العبارة كما رأيت في اول كلامنا (ارجع الى نقدنا لكلام التنوخي)، ويأتيك بالدليل البين في امر دخوله كتّاب اشراف العلويين بالكوفة وتلمذه دروس العلوية ويبين ايضاً عن السبب الذي من اجله سكت المتنبي عن مدح العلويين وعظمائهم وأصحاب الجاه والسلطان منهم وهو بالكوفة، ثم تأبّيه على مدح ابي القاسم العلوي صاحب الامير ابن طغج حين كان بالرملة، ثم ما كان قبل من ارصاد العلويين له عبيدهم لقتله بكفر عاقب وكفاك هذا فانا سنبني بقية كلامنا عن المتنبي من اول امره على هذا الاس او ما يقرب منه وبحسبك هنا ان نفسر لك بعض المعاني في رثاء جدته على هذا الاصل

« ورد على ابي الطيب كتاب من جدته لامه تشكو شوقها اليه وطول غيبته عنها، فتوجه نحو العراق ولم يمكنه دخول الكوفة على حالته تلك — فانحدر الى بغداد، وكانت جدته قد يئست منه فكتب اليها كتاباً يسألها المسير اليه فقبلت كتابه وحُمّت لوقتها سروراً به، وغلب الفرح على قلبها فقتلها »

وتأويل هذه العبارة كلها: — انه حين ورد عليه كتاب جدته ازمع الرحيل من الشام الى الكوفة ليأتي بها جدته فبلغ الخبر مشيخة العلويين فذهب بعضهم الى جدته، وأبان لها سوء رأيها ونهوها ان يكون لقاء ولدها من همّها، وأخبروها انهم قد اجمعوا رأيهم على منعه من دخول الكوفة بعد ما كان من امره وهو بالشام من اظهاره العلوية، ورغبته في تحقيق نسبته الى العلويين. فلما فجئهم الخبر بورود صاحبهم (المتنبي) على طرف الكوفة خرجوا اليه وأنذروه ان يكون ذلك من ارادته بعد فضوله في الشام، وأمروه بالانحدار الى بغداد، ورجعوا الى جدته فأيأسوها من لقائه بتّا. فلما استقرت بالمتنبي بغداد وزاد شوقه الى جدته وبكى من خيفته عليها، وحمله ذلك على الكتابة اليها — بعد ان لم يجد عن ذلك محيصاً في نفسه فكتب اليها كتاباً يسألها المسير اليه ببغداد، ففرحت العجوز فرح اليائس من امر ثم اتته البشرى بالظفر من وجه آخر، فاشتد ذلك عليها واستبدت العواطف المعتاجة المتنازعة المتضادة بذلك البنيان المهدّم الضعيف فانقض بعضه على بعض، فماتت رحمة الله عليها وأثابها بما صبرت

فلما ماتت المسكينة ثارت نفس الرجل ثورة اليأس، وخاف ان يستعلن للعلويين بالعداوة وهو ببغداد أن يقتلوه من أجل ذلك، فأضمر ما في نفسه وأشار إلى هذه المعاني من طرف خفيّ. ويحسن ان نذكر هنا ان المتنبي خرج آخر مرة من الكوفة مرغماً على ذلك الخروج، وهذا امر طبيعي إذا صح القول الذي نقول به، فانظر الآن ماذا يقول الرجل في رثائه جدته

بكيت عليها خيفةً في حياتها وذاق كلانا ثكل صاحبه قدما

وقد شرح الشراح هذا البيت وأداروا معانيه ولكنه بقي في شرحهم لا معنى له، كقولهم: وكنت ابكي

عليها في حياتها خوف فقدها ، وفرقت الايام بيني وبينها فذاق كلانا ثكل (فقد) صاحبه قبل الموت » فالعطف في الذي قالوا به « وفرقت الايام » لا معنى له هنا ولا فائدة منه. وتفسير البيت هو هذا

لما أيأسوها من لقائي ، وقد منعوني عن دخول الكوفة — علمت يقيناً أنها ستحمل ثِقْلاً يهدُّها فبكيتُ خيفة عليها من اثر الحزن فيها ، وما يبكيني أن لا ألقاها وكيف ابكي لذلك (وقد ذاق كلانا ثكل صاحبه قديماً) بالفراق الذي حملنا عليه ! ولو كنت باكياً لبكيتُ للفراقِ الذي كان بيننا بمنزلة الموتِ ، فعدّتني هي قد مِتُّ ، وعددتها قد ماتت (وهذا تأويل قوله . . وذاق كلانا . . . .) أي ثكلتني وثكلتُها

ثم يقول بعد أبيات

طلبتُ لها حظًّا ففاتتْ وفاتني وقد رضيتْ بي ـ لو رضيت بها ـ قسما [1]

فأصبحت أستسقي الغمام لقبرها وقد كنت أستسقي الوغى والقنا الصّمّا

ومعنى البيتين عندنا — كانت العجوز رضي الله عنها قد رغبت اليَّ ان اكتم امر نسبتي العلوية الى ان يشاء الله ، ولكني خالفتها ، وآثرت فراقها لعلّي أصيب بعيداً عن الكوفة ما لم ادرك بها فخرجت اطلب لها (حظًّا) اي فضلاً وخيراً في ردّ شرف انتمائنا الى العلويين ، ولكن شاء ربُّك ان تفوتني بها الاحداث فتموت ، ويفوتني ايضاً بعد موتها ذلك الحظ لما أعلم من انها كانت هي السبب في امتناعهم عن الفتك بي ان حاولت امراً ، فواحسرتاه ! لم خالفتها وخرجت اطلب لها هذا الحظّ وقد رضيتْ بي قسماً وحظًّا ونصيباً وجعلتْ ظفرها بي عدْلاً لما فاتها من الحظ الذي كنت أطلبه لها ، فياليتني [2] رضيت بها كما رضيت بي وجعلتها عدْلاً لما فاتني من هذا الحظ ، وعلى هذا الاصل يكون معنى البيت الثاني واضحاً بيناً فهو يقول : كنت اريد القتال والحرب لاشفي بالدم المهراق غلياها ، واردّ عليها حياتها في شرف نسبتنا الى العلوية فالآن وقد ماتت وفاتت لاحيلة لي الاّ ان اسأل الله ان يبرّد قبرها بما يدرّ عليها من ماء الغمام. ثم قوله:

«هبيني اخذت الثّأر فيك من العدى فكيف بأخذ الثّأر فيك من الحمّى»

« لئن لذّ يوم الشامتين بيومها لقد ولدت مني لانفهم رغما »

وقد مضى بعض القول في هذين البيتين ، ولكن بقي ان نقول ان هؤلاء الاعداء والشامتين كانوا من اشراف الكوفة لما رأيت اولاً اذ لا يعقل ان يكون غير ذلك ، لا يعقل مثلاً ان يكون أولئك الاعداء والشامتون من طبقة السقائين والنسّاجين ومن اليهم ، ولو كان ذلك كذلك لما

---

(١) تفسير البيت عند الشراح هو هذا : فارقتها لأطلب لها حظاً من الرزق ففاتتني هي وفاتني هذا الحظ وقد كانت راضية ان اكون قسماً لها من الدنيا لو رضيتها قسماً لي (والقسم النصيب) وقد كنت أطلب من الرياح ان تسقيني دم الاعداء فلما ماتت تركت الحرب وحداً عليها وصرت أطلب من السحاب ان يسقي قبرها — او كما قالوا !! فانظر هذا التفسير ، واقرأ تفسيرنا

(٢) اعلم ان (لو) في بيت المتنبي معناها التمني والاسف والحسرة

حفل المتنبي بذكرهم ولا التعريض بهم وان يجعل نفسه رغماً لانوفهم . وهو من هو في الكبرياء والتسامي والغلوّ في الترفع والعظمة

وعلى عادته اتى في القصيدة باشارة عجيبة . هي من باب التفات القلب الى ما يلج فيه من الرأي المضمر . . . يقول

فوا أسفا الا اكبّ مقبّلاً لرأسك والصدر اللذا ملئا حزما
والا ألاقي روحك الطيب الذي كأن ذكيّ المسك كان له جسما

ثم استيقظت في قلبه تلك الثورة العجيبة التي اصبحت طابع شعر الرجل كله ، فانتقل من معاني الحنان والرقة الى معاني القسوة والعتوّ فقال

ولو لم تكوني بنت اكرم والد لكان اباك الضخم كونك لي امّا
لئن لذّ يوم الشامتين بيومها لقد ولدت مني لانفهم رغما

ذكرته روح جدته بالثأر القديم الذي نسيه في قوله قبل ذلك « هيني اخذت الثأر فيك من العدى » فصرخ صرخته هذه فكأني به يقول : ابعدوك ونفوك ، فما يضير نفيهم روحاً طيباً ، ونفساً زكية ! ! ولا تأسي ولا تحزني ، فانك قد ولدتني ، وكفاك شرفاً ان تكوني لي أمّا ، فاني مرغم انوفهم وحاملهم على خطة الخسف حتى يعطوا المقادة وهم صاغرون فعلى هذا فسر قوله

واني لمن قوم كأن نفوسهم بها انف ان تسكن اللحم والعظما
كذا انا يا دنيا اذا شئت فاذهبي ويا نفس زيدي في كرائهها قدما
فلا عبرت بي ساعة لا تعزني ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما

وقوله :

ما بقومي شرفت بل شرفوا بي وبنفسي فخرت لا بجدودي
وبهم فخر كل من نطق الضا د وعوذ الجاني وغوث الطريد

ونخر من نطق الضاد هم ابناء رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقوله ايضاً

ولكنني مستنصر بذبابه [1] ومرتكب في كل حال به الغشما
وجاعله يوم اللقاء تحيتي والا فلست (السيد البطل القرما)

ثم فسر على هذا الاصل قوله ايضاً وقد جمل قوم يستعظمون ما اتى به في رثاء جدته

يستعظمون أبيّاتاً نأمت [2] بها لاتحسدن على ان ينأم الاسدا
لو ان ثمّ قلوباً يعقلون بها انساهم الذعر مما تحتها الحسدا

(١) يعني سيفه (وذبابه) حده (٢) النئيم زئير الاسد

وتدبر قوله (لا تحسدنّ) ! ! ولو كان غيرُ المتنبي — هذا الموتور صاحب الثأر عند هؤلاء القوم — لقال (لا تعجبنّ) او ما يقرب من ذلك

ونحن لو شئنا ان ننقل لك هنا ونفسر كل شيء يدلُّ من قريبٍ أو بعيدٍ على ما نذهبُ اليه ، لكلفنا ذلك أن نشرح لك اكثر ديوان المتنبي ولكن بقيتْ أشياء ننبّه اليها — لو أنت قرأتَ ديوان الرجل لوقعت على كثيراتٍ من أمثالها وذلك كقوله بعد وفاة جدته ومرجعه إلى الشام

سأطلب (حقّي) بالقنا ومشايخٍ كأنهمُ من طول ما التثموا مُرْدُ

فقوله (حقّي) لا يقع هذا الموقع من شعر إلاّ من أحد رجلين رجل دعيٍّ طويل الباع واللسان في الدعوى والكذب ، أو رجل صادقٍ لا يكذبُ على نفسه ولا على الناس ، وليس المتنبي بأولهما ، إذن فقد كان لهُ حقٌّ يطلُبه بالحرب وهو الذي سماه (حظًّا في رثاء جدته ، وإنما خفف الحق في الرثاء وجعله (حظًّا) لما أشرنا اليه من قبل . ومثل هذا قوله لكافور

فارم بي حيث شئتَ منّي فإني أسدُ القلبِ آدميُّ الرواء
وفؤادي من (الملوكِ) وإن كا نَ لساني يُرَى من الشعراء

فلا عجب بعد في فخر المتنبي وتعاليه وتعاظُمه ، فكلُّ مفسَّرٌ بيِّنٌ واضحُ العِلّة والمعنى على هذا الاصل ، وكان عجباً عاجباً عند الناس أن تبلغ الحماقة بابن سقاء أن يفخر مثل هذا الفخر ويتعاظم على الملوك مثل هذا التعاظم ، وذهبوا في تأويل ذلك مذاهبهم ولعلّ هذا — ان شاء الله هو المذهب الحقّ

أذاقني زمني بلوى شرقت بها
لو ذاقها لبكى — ما عاش — وانتحبا
وان عمرت جعلت الحرب والدة
والسمهري أخاً والمشرفي أبا
بكل أشعث يلقى الموت مبتسماً
حتى كأن له في قتله أربا
فالموت أعذر لي، والصبر أجمل بي،
والبر أوسع، والدنيا لمن غلبا

ماتت أمّ (أحمد بن الحسين) أبي الطيب المتنبي — فيما زعمنا — فوقع الى جدته واختارته وآثرته على حظها من الدنيا فكفلته. وألقت كل ذات قلبها وكبدها في تعهده ورعايته، ثم في تربيته وتنشئته، ثم في النصيحة له وتطريق وعر الدنيا عند قدميه. ومنحته في ذلك حنان الام الفاقد على ولدها اليتيم الملطّم، وكانت العجوز كما وصفوها «من صلحاء النساء الكوفيات»، وكما وصفها حبيبها ولدها ثم حفيدها «حازمة، طيبة الروح، زكية النفس» غير أنثى العقل

وكانت امرأةً موتورةً كما ذهبنا اليه فيما مضى بك، لا تزال تجد في قلبها الامر الذي يقول لها: «ها أنا ذا.... فلا يفتنكِ حنانكِ عن الجدّ في تدبير العزم وادارة الرأي على وجوهه في طلب الثأر الذي لكِ في أعدائك المنزليك بشر منزلةٍ ما ترضاها نفسٌ كنفسك في الطيب والزكاة». وأطاعت العجوز أمرها بالانتصاف لنفسها ولحفيدها، ولا حيلة لها الا تنشئة الصغير على غرارٍ فذٍّ يكفل لها إدراك ما تروم، وكذلك فعلت. فكان المتنبي في الزمن ثم في الشعراء خاصةً شخصيةً عجيبة، اذا أخذتها من يمين التوت بك الى شمال، وان ذهبت تطلبها من وجه راغت من وجوه، واستبهم أمرهُ على الناس باستبهام الغرض الذي رمى اليه هذا الانسان. وكان كما قال ابن رشيق «ملأ الدنيا وشغل الناس»...

لا ندري كيف تمّ الرأي بينها وبين العلويين أن «يختلف — الفتى أحمد — الى كتّابٍ فيه أولاد أشراف الكوفة» كما نقل الاصفهاني، ولعلهم أرادوا بذلك أن يرضوا العجوز، ويخففوا عنها ثقل همومها، ويحملوها على المطاوعة لهم خشية أن تفجأهم بما لا يحبون من اظهار ما أرادوا

كتمانه وإخفاءه . دخل الفتى الكتاب، وقد قال التنوخي في حديثه الذي أسنده الى أبي الحسن العلوي — يعني المتنبي — « ونشأ وهو محبٌّ للعلم والادب فطلبه » ، ولا شك أن جدته الحازمة الصالحة كانت من ورائهم تستحثه على طلب العلم وتستفزه الى ذلك ليتم لها — ان شاء الله — ما تؤمل من الفرح بنبوغه وتفوقه على لِداته وأسنانه من العلويين ، ويستطيع بعد أن يدرك لها « حظًّا » ويطلب لنفسه « حقًّا » هضم ، ومنع من دونه حتى أُلقي في أسوأ مجهلة وبشرّ منزلة ، في خفاء من النسب ، وقلّة من المال وبعد عن مساعي المجد ، وقد وجدت العجوزُ أرضاً صالحة بطبيعتها لما تريد من أمر بنيها فتأدب الفتى بالعلم الذي كان يتلقاه في كتاب أولاد أشراف الكوفة واجتهد في ذلك ، وبرع وفاق أصحابه وأخذته جدّته بأخلاق صالحة طيّبة ، وحاسبته وحرصت على استطلاع خبره كلّه وألقت في قلبه وفكره وخياله طلب المجد بالعلم ، ثم زيّنت له الفتوّة وعلوّ النفس وبُعد الهمّة ، وعِظَم المطلب ، وأدّبته بالصدق والامانة وكتمان السِرّ ، وعلّمته من حيلتها ودهائها وحذرها ، سعة الحيلة ، وخفاء الدهاء ، وتقديم الحذر ، وبعد أن أدرك الفتى من الفكر ما يسّر لها ما تريد أن تبوح له به ، طفقت تدير له السِرّ من هنا ومن هنا ، وتأخذ نفسها بالحذر والتكتم والاحتراس من ثورة الفتى إذا هي فجئته بما تريد ، حتى بلغت ما أرادت . وهذه المعاني كلها دائرة في حياة المتنبي وشعره دوران الدّم في عروقه فإذا أنت قرأت ديوانه من أوله إلى آخره فلن يفوتك أن تراها جميعاً او ترى بعضها ماثلاً غير خفيّ في كلّ موضع من شعره

ويؤيد قولنا هذا : أن الغلام — وهو صغيرٌ بالمكتب — كانت له وفرة من الشَّعر تسيل على أذنيه ، وكانت حسنةً جميلةً فقال له بعضُ أصحابه من الفتيان (العلويين) يا أحمد « ما أحسن هذه الوفرة » فكان جوابه أعجب جواب من صبيّ في مكتب

لا تحسن الوفرة حتى تُرى منشورة الضفرين يوم القتال
على فتىً معتقلٍ صَعْدَةً يَعلُّها من كل وافي السبال [1]

فظُنّ ما شئت بغلام في مثل سنّه لا يزال في أول طلبه للعلم يقول مثل هذا القول .
ويحسن أن نطيل القول قليلاً في هذين البيتين ففيهما أصولٌ كثيرة من حياة الرجل ونفسيته فيما بعد

فالاصل الاول هو هذا الالتفات الشِعْري الجميل من المعنى المحدود بغرض قائله إلى المعنى المترامي بخيال سامعه ، فإن اصحابه كانوا يعجبون من حسن وفرته واسترسالها ولينها ، فتجاوز صاحبنا هذا بخياله من الصورة الحاضرة إلى الصورة التي يريد أن يراها شعثاء غبراء يوم ينشر

(١) « الضفر » الخصلة المضفورة من الشعر كالغديرة ، وقوله « معتقل صعدة » اي حامل رمحه الى الحرب « ويعلها » يسقيها من الدم مرة بعد مرة « والوافي السبال » هو الطويل اللحية

مضفورها يوم القتال بين الغبار الثائر والدم المهراق وهذا إثباتٌ للاصل الشعري القائم في نفسه.
والاصل الثاني، هو الرُجولة والفتوَّة، وبعد الهمّة، وعظم المطلب وانصرافه عن سفساف الامور الى معاليها، لا يعبأُ بلذةٍ لا تجدي خيراً، ولا تؤتي ثمراً، وانما يجد لذّته فيما يأتيه مما يريد ولو كان فيه فيه شقاؤه وجهده، وقد شرح صاحبنا هذا المعنى النفسيّ في شعره بعد فقال:

« سبحان خالقِ نفسي كيف لذّتها فيما النفوس تراه غاية الأَلم
الدهرُ يعجب من حَمْلي نوائبه وصبر نفسي على احداثه الحُطُمِ »

وهذا اصل رجولته وفتوته وقوته النفسية التي ظهرت واستعلنت في كل شعره حتى صار بها فذاً أوحد
والاصل الثالث: هو الثورة الدائمة، فأنت تراه من صغره هكذا لا يريد الاّ القتال والدّم
والرابع: ان هذين البيتين من صغير كقائلها يضمران وراءهما معنى آخر غير هذه المعاني وهو انه منشأ على طلب الثأر من عدوٍّ فهو لا يزال ينقلُ الصورة من وضع الى وضع آخر يُرضي ما يدور في نفسه من المعاني المحددة بطفولته وما غذيت به من الآراء والاخلاق. وإن شئت فتدبّر السرّ العجيب في قوله « يعُلُّها » اي يسقيها الدم مرّة بعد مرّة لا يكتفي بواحدة، وتعجّب من قوة الاصل الشعريّ في هذا الغلام، ومن طغيان الحِقْدِ والثأر على قلبه الصغير
والخامس: هو بيانه الخفيُّ عن عدوّهِ الذي يريد ان يحاربه وقد صرّح بذلك في قوله « كلّ وافي السِّبال »، فانظر من اراد هذا الصغير بهذه الصيغة، أتراه عنى كل كبير السن ذي لحية طويلة؟ أترى ذلك!! كلاّ فالبين الهين انه اراد قوماً باعيانهم كنى عنهم بهذه الصيغة؟ ومن هؤلاء الذين يريدهم بهذه الصفة؟ أليس المعقول ان هذا الصغير انما يتجه خياله الى اقرب الناس اليه في بلده، ثم إلى الذين اوحت اليه جدته بأن بينها وبينهم سخيمة من العداوة؟ ومن يكون هؤلاء من اهل بلده الاّ مشيخة العلويين[١] الذين انزلوا الهوان به وبجدته فيما ذهبنا اليه من الرأي فيما مضى
والسادس: ان هذه الثورة التي تلبست به واخذت عليه مذاهبه في حياته انما هي من اثر جدته اذ باحت له بسرها والقت اليه بمكنون صدرها، وذلك لان الفتى الصغير لا يكادُ يدرك هذه المعاني كلها، ويبينها حتى تظهر هكذا مسهلة على لسانه الا ان يكون قد أُخِذَ بها، وهيء لها، وأُعطيَ من نفس غيره قوة تخرجه من طبيعة الطفولة، الى عادة الرجولة والفتوة
ولولا ان صاحبنا ابا الطيب قد « اسقط من شعره[٢] الكثير، وبقي ما تداوله الناس »

(١) وهذان البيتان من الادلة على ما ذهبنا اليه في قضيته مع العلويين في الذي مر بك ولم نذكرها هناك لنفادى الاطالة

(٢) هذا القول يغلب على شعر صباه ولا شك، ولاشك ايضا ان بعض شعره في فتوته وكهولته قد سقط او اسقط ولكنه قليل جداً لا يكاد ينفع شيئاً

كما حدثنا ابو القاسم الاصفهاني عن ابي الفتح بن جني لوجدنا فيما اسقطه كثيراً من امثال هذا القول الذي ينم على نفسية الصبي التي كبرت معه، وكانت هي (المتنبي) الشاعر الفرد الذي لا يكاد يخفى شعره على اقل الناس بصراً بالشعر

وابيات اخرى قالها وهو بالمكتب ايضاً

الى اي حين انت في زي محرم[1] وحتى متى في شقوة؟ والى كم؟!

وإلاّ تمت تحت السيوف مكرماً تمت وتقاس الذل غير مكرم

فثب واثقاً بالله وثبة ماجد يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم

وهي وان كانت مما قال في صغره إلاّ انها امثل من الابيات الاولى في الدلالة على المعاني التي ذكرناها والاصول التي استنبطناها فتدبرها على ما قدمنا لك تجد الشاعر الكبير في الشاعر الصغير الاّ في موضع واحد قل في شعره بعد الكبر وذلك هو تقديم الثقة بالله، على الثقة بسيفه ونفسه، وهذا الموضع ولا شك من اثر جدته التي كانت «من صلحاء النساء الكوفيات» وهو يؤيد رأينا في ان العجوز كانت تمنحه نفسها وتمحضه نصحها وتربيه على ما ارادت، لم تكتف ان تركن في تأديبه وتثقيفه الى المكتب او الى الزمن واحداثه، وهو المعلم الاكبر والاستاذ البارع

هذا، وما نشك في ان الفتى كان وهو بالمكتب اكثر اصحابه تحصيلاً للعلم واقبالاً عليه وانصرافاً اليه، وذلك لما ذكروا من قوة ذاكرته التي كادت تكون احدى الخوارق، ثم لما اخذته به جدته من الادب والرأي، وما زينت له من طلب المجد، ثم ما تهيأ في نفس الصغير من اصل طبيعته التي تسرع به الى السمو. ولهذا كان الفتى محسداً بين اترابه منظوراً اليه بعين. فالحسد الصغير الذي مني به وهو في المكتب، وما يموج في صدره من حقد وثورة — وبغض لمن اريد له ان يشنأهم ويبغضهم — كل ذلك كان هو الاصل فيما تعجب منه المتعجبون من كثرة ذكر هذا الشاعر للحسد والحساد والوشاية والوشاة وما الى ذلك مما يلم به، وقد الم صاحبنا بهذا الذي اردناه في قوله وهو بأنطاكية فيما بعد

ابدو فيسجد من بالسوء يذكرني فلا اعاتبه صفحاً واهوانا

(وهكذا كنت في اهلي وفي وطني) ان النفيس غريب حيثما كانا

(محسد الفضل مكذوب على اثري) ألقى الكمي ويلقاني اذا حانا

فهو من يوم كان في وطنه الكوفة الى سنة ٣٢١ حين رحل الى الشام كان يلقى العنت من

(١) (زي محرم) كناية عن فقره لقلة ثيابه التي تستره، والمحرم من الحاج لا يلبس الا ازارين غير مخيطين

الحسد والحسّاد ، وما تكذّبوا به من اباطيلهم ، وما القوا عليه من عيوبهم ، فلما استمرّ مريره وبرع وفاق الشعراء ، وأكل ارزاقهم الى رزقه — اجلب عليه الحساد والوشاة ، فدسوا له وأذاقوه من بأسهم ، فبقي الى آخر عمره يذكر ذلك في شعره ، ويتخيله في صغير امره وكبيره

قلنا ان الفتى كان احذق اسنانه وأسرعهم الى التحصيل ، وأحفظهم للعلم ، وظاهر شعره الذي قاله في اول امره وصباه ، انه لم يقصر درسه على « دروس العلوية وحذق العربية شعراً ولغة واعراباً » بل كان كما كان الى يوم وفاته متتبعاً للكتب يقرؤها ويحققها ويحفظها ، من كتب الشعر والادب والدين والفلسفة والكلام وغيرها من علوم عصره وسنأتي على طرفٍ من شعره في سياق الدليل على ذلك . وقد روى بعض الرواة — هو صاحبنا الاصفهاني — ان المتنبي وقع في صغره الى واحدٍ يكنى ابا الفضل بالكوفة فهوّسه وأضله كما ضلّ » هكذا قالوا

ولا شكّ ان ابا الطيب قد لقي هذا الرجل وهو بالمكتب لم يبرحه بعد . والقصيدة التي في ديوانه ، والتي قدموا لها بقولهم « وقال وهو بالمكتب يمدح انساناً ، وأراد ان يستكشفه عن مذهبه » هي في ذكر هذا الرجل الذي ذكره الرواة ، وأولها

«كفِّي ـ اراني ـ ويكِ لومكِ ـ ألوما همٌّ اقام على فؤادٍ أنجما »

ويقول فيها وقد ذكر اسم الرجل

« كصفات اوحدنا (ابي الفضل) الذي بهرت فانطق واصفيه وأفحما »

ومن قرأ القصيدة كلها القاها كلها ، فما فيها بيتٌ واحدٌ من الشعر ، ولفظها وكلامها ومعانيها غثٌّ كله ، وما ندري ما الذي جعل ابا الطيب يحرص على ابقائها في ديوانه ، وقد اسقط الكثير من شعر صباه على ما ذكر تلميذه ابن جنـي ؟ وقد أعجم صاحبنا القصيدة كلها وأتى فيها بكل ساقطةٍ من الفلسفة وما اليها ، وبالغ حين مدح الرجل بما ينقل الكلام من معنى المدح إلى معنى الهجاء ، حتى أخلّ ذلك بعربيتها إخلالاً بيّناً لم يقع مثله في ساقط شعره وسفسافه . والظنُّ عندنا أنه لقي أبا لفضل هذا ، وكان يدّعي الفلسفة ، ويتبجّح بذكرها ، ويظنُّ بنفسه العلم بها ، ويعرض نفسه لقراءة درس فيها ، وكان في ذلك أضحوكة يعجب منها ويتفكه بها ، وكانت صورته في ذلك كله تستقصي الضحك وتستخرجه ، فقال له أبو الطيب هذه القصيدة تندُّراً به وعبثاً وسخريةً . ولا حاجة بنا إلى تفصيل ذلك بذكر الابيات التي تدلُّ على ما أردناه فإن قليلاً من التدبُّر — فيما جمع فيها أبو الطيب من السخف والمضحكات والمناقضاتِ والمبالغات ـ دليلٌ كافٍ وافٍ . وبيّنٌ إذن أن المتنبي ما أثبت هذه القصيدة في ديوانه إلاّ لانه كان يذكر بها شخصية كانت تستخرج من قلبه الحزين أقصى الضحك ، وغاية الاستغراب

والعجب للاصفهاني صاحب « إيضاح المشكل » الذي مرّ في اول كلامنا ذكره — أن

يزعم أن معتوهاً كأبي الفضل هذا النكرة قد هوّس أبا الطيب وأضلّه كما ضلّ ، فمن كان في بديهة المتنبي ، وذكائه وتوقده لا يلعب به رجلٌ مغمور غير مذكور كهذا الذي ذكروه . وظاهر أمر الاصفهاني أو منْ قال له ذلك ، أنه وقع اليه خبر أبي الطيب وتدره بأبي الفضل، هذا الدعيّ على الفاسفة ، فقلب الخبر من معنى الهزل إلى معنى الجدّ ونسب إلى المتنبي الاخذ عنه ، والاقتداء بسخفه وهذيانه . فلولا جاءوا بشيخ مذكور من شيوخ الفاسفة وادّعوْا ذلك فيما ادعوْا على الرجل ! !

ونحن لا ننفي عن أبي الطيب التأثّر بالفاسفة وغيرها ممـا يداخلها أو تداخله على مذهب الاوائل ، وكيف يكون ذلك ؟ والدنيا يومئذ موجٌ متلاطمٌ بالجدل والخصام ، والعلماء يومئذ كثيرون ، وأصحاب المذاهب الغريبة متوافرون ، وأصحاب الجدل مغرمون بإقامة الشبهة وردّها بالحجة والبرهان العقلي ، والكتب المخنّفة كثيرة لم تذهبْ بعد ، وهي كتبٌ نشأ منها بعد علم الكلام الذي اختلطت به الفلسفة وصارت اصلاً من اصوله ، والمساجد لذلك العهد كانت عامرة بالصخب الذي لا يجدي ولا ينفع في اصول الدين وعقائده . فلسنا نشك بعد ان هذا الفتى المتوقد — الذي قال عنه كثير ممن رأوه انه كان واسع العلم والمعرفة — قد اختلط وسمع وبحث ونظر وجادل واخذ بأطراف مما سمع وقرأ وحفظ ، حتى بان ذلك في شعره الاول بياناً لا خفاء فيه ، وقلّ بعد ان استحكمت قوته وغلب عليه الاصل الشعري الذي استولى على اكثر موهبته وقدرته . ونسوق اليك هنا طرفاً من ذلك فيه غنى ان شاء الله . يقول

« وضاقت الارض حتى كان هاربهم اذا رأى (غير شيء) ظنه رجلا »

يريد « لا شيء » فأبدل ، وهذه من ألفاظ المتكلمة ، والخيال خيالهم

« يترشفن من فمي رشفات هن فيه (حلاوة التوحيد) »

وهذا من ألفاظ المتصوفة

كتمت حبّك حتى منك تكرمة ثم استوى فيه اسراري واعلاني
كانه زاد حتى فاض عن جسدي فصار سقمي به في(جسم كتماني)

والبيت الثاني ، واللفظ الاخير خاصة دليل على تأثره بالمعاني الفلسفية والصوفية وهذه هي التي اخرجت له هذا الخيال السخيف — وقوله

فتىً الف جزء رأيه في زمانه اقلُ جزيء بعضه الرأي أجمع

فهذه قسمة حسابية !! والجزء والجزيء من الفاظ المتكلمين والفلاسفة ، وقلما يأتي احدها في الشعر مستحسناً وقوله

فصيح متى ينطق تجد كل لفظة (اصول البراعات التي تفرّع)

وهذا مدح فلسفي ليس بشعر، وانظر الى جمعه البراعة وهي من الغرائب التي تلدها الفلسفة وقوله

لما وجدت دواء دائي عندها   هانت عليَّ (صفات جالينوسا)
بشرٌ (تصور غاية) في آيةٍ   تنفي الظنون (وتفسد التقييسا)

فقوله (صفات جالينوسا) يريد ما يصفه جالينوس للامراض من الدواء، وهو دليل على نظره في كتب الطب، ثم قوله (تصور غاية) من اساليب المتفلسفة، وقوله (تفسد التقييسا) يريد « تفسد القياس » وهو مما يرد في كتب الكلام . ومن تتبع سائر شعره في صباه، وجد فيه آثاراً كثيرة تدل على ما قرأ ابو الطيب وما سمع من كتب الفقه والحديث والتفسير والجدل والمنطق والملل والنحل والتاريخ وسير الاوائل والانبياء الماضين وغير ذلك مما كان من علوم اهل عصره، وقد احاط بكثير من ذلك واستوعبه ونظر فيه نظر المتفكر المتدبر، ولولا ذلك لما ولع بذكره في شعره، ولما دار على لسانه على غير ارادة منه فيما نظن

وقد كان في هذا القسم من شعره يلجأ الى الاساليب الفلسفية في استخراج المعاني وتوليدها وكان يكثر من التقسيم الفلسفي، والتوجيه المنطقي وغيره من الوان كلام المتفلسفة والمتكلمة والمتزندقة ايضاً حتى فسدت معاني شعره، فلذلك كان اكثر ما تجد من ساقطه ومرذوله—مما عابه عليه النقاد، وخاصمه به المتعصبون عليه —هو من هذا القسم الذي قاله في صباه الى اطراف سنة ٣٢٨ على وجه التقريب لا التحقيق

***

وهذا العهدُ من حياة المتنبي لم تَردْ عنه روايةٌ موثقة مستفيضة، وانما عملنا فيه الاستنباط من قليل شعره الذي قيل في صباه، واستخراج الاصول النفسية منه، ثم مسيرها بعد وتدرجها معه حتى بلغت مبلغها في كبير شعره الذي « ملأَ الدنيا وشغل الناس »

عندنا ان المتنبي بقي في المكتب الى سنة ٣١٧ تقريباً وكانت سنه اربعة عشر، ولكنه كان بتوقده وذكائه في درجة من أناف على العشرين، وقد ذكر التنوخيّ انه قال الشعر صبيًّا، وذكر غيره انه كان آيةً في الذكاء والفطنة، وقال غيرهما انه من دهاة عصر — اي كان كذلك فيما بعد — وكان مما ورثه عن جدته هذا الاحساس المرهف الدقيق الذي يهزُّ في قوته وكبريائه لا في ضعفه وذله . واجتماع الذكاء والحس المرهف هما آلة كلّ شاعرٍ، وقد ظفر المتنبي من كليهما بنصيب الاسد الهصور، ولذلك كان شعره اروع شعر في العربية وكثير غيرها، وكان محبباً الى اهل عصره متداولاً سائراً بينهم لانه كان يأخذ بها من شعور الناس وآلامهم واحداثهم ويبني مما يأخذ بيوت شعره، وروائع بلاغاته

وهب الله هذا الذكيَّ المرهف الحسّ جدةً حازمة كانت — فيما ذهبنا اليه — توقد في

قلبه نيران الثورة ، وتؤرثها بالحقد على قوم بعينهم ، وتدربه على كرائم الخلق كالصدق والامانة والوفاء وحب المجد والتطلع إلى العلياء ، والجرأة المستنفرة التي لا تهيب ، يحد منها الحذر الذي لا يتهاون ، والدهاء الذي لا يتورط في موارد التلف . وترعرع الفتى يطلب العلم ويستزيد منه ويشتد في الطلب مصمماً معتزماً أمراً في نفسه أن يبلغه أو يهلك دونه ، ثم انفتحت لعينيه الدنيا برذائلها وفضائلها وحكمتها وترهاتها ، وجدها وهزلها ، فاضطربت نفسه وطفقت تتلمس الاشياء هنا وثم لتستقر على ما ترضى به وتأنس اليه

وكانت الكوفة — التي نشأ بها وشب وترعرع وتفتى — لذلك العهد ، بلداً من بلاد الإسلام قد رمتها القرامطة بجيوشها مرات وفعلت بأهلها الافاعيل ، وكانت الدولة العربية في شغل عن الكوفة بانقسامها شيعاً يأكل بعضهم بعضاً ، وظهرت شوكة الاعاجم وكانوا أصحاب حيلة ودهاء فأوقعوا بين المسلمين ، وبين عرب البادية حتى صارت الدولة العربية المترامية الاطراف في ثورة دائمة لا تفتر ، ولا تنقطع الحروب في ناحية إلا اتقدت نيرانها في أخرى . وانقسمت دويلات ، ولم يبق للخليفة إلا الاسم الكريم يحمله مرغماً ويضعه مرغماً لا إرادة له . ولا شك أن إحساس أبي الطيب قد ألم بذلك كله وفصّله ونقده ، وعرف الداء الذي كمن في بدن العربية واستل قوتها وقتل روحها ، فازداد إلى ثورته ثورة وإلى حقده حقداً

وكانت أخلاق الامة قد اتضعت وفسلت بما تداخلها من أخلاط الامم الذين لا أصل لهم يرجعون اليه ، ولا خلق عندهم يستذمون به ، وفسدت العامة من أهل المدن فساداً كبيراً ، واضطربت في أيدي الناس حبال الاخلاق ، وصاروا لا يقيسون الناس إلا بمقياس الظاهر ، ولا يزنونهم إلا بميزان المال . فبطلت موازين الرجال التي يوزنون بها من العقل والحكمة والعلم والرجولة وكرم العنصر . فكان نظر الفتى إلى هذا مما ألقى الحطب على النار التي في صدره ، فبغضت اليه سفاسف الاخلاق وتعلق بمعاليها ، وزين في قلبه أن يكون هو الثائر الذي يرد هؤلاء الاهمال والهمج إلى مرد ، ويأوي بهم إلى مأوى ، ويقوم عليهم قيام الراعي حتى يخلصوا من الشر ، ويستمسكوا بالعروة الوثقى ، ويفيئوا إلى الخلق الكريم الذي لا يبخس الناس حقهم ، ولا يظلمهم ، ولا يدنيهم ، بل يعدل بينهم بالقسط ويرفعهم عن الدنية ، ويجعلهم قوة مستحكمة ترد عدوان العادي وبغي الباغي ، ليصلوا بذلك الى المجد والسلطان

اصطدم هذا الخيال الذي اراد ان يحققه بحقيقة ما هو فيه من الفقر والخفاء ، والبعد عن مساعي المجد ، وامتناع نفسه عن اعطاء الطاعة للاخلاق التي كان يصل بها اهل ذلك العصر إلى ما يريدون من المكر السيء والدسيس وما اليهما من حيل الخبيثين . وقد روى الرواة ان ابا الطيب قال: « اذكر وقد وردت في صباي من الكوفة الى بغداد ، فأخذت بجانب منديلي خمسة دراهم

وخرجت امشي في اسواق بغداد ، فمررت بصاحب دكان يبيع الفاكهة ، فاستحسنتها ، ونويت ان اشتريها بالدراهم التي معي ، فتقدمت اليه وقلت :

— بكم تبيع هذه الخمسة بطاطيخ ؟

فقال بغير اكتراث : — اذهب فليس هذا من اكلك ، . . . فتماسكت معه وقلت

— يا هذا ، دع ما يغيظ ، واقصد الثمن

فقال — : ثمنها عشرة دراهم

فلشدة ما جبهني به ، ما استطعت ان اخاطبه في المساومة . فوقفت حائراً ، ودفعت له خمسة دراهم فلم يقبل ... واذا بشيخ من التجار قد خرج من الخان ذاهباً الى داره ، فوثب اليه صاحب البطيخ من الدكان ، ودعا له وقال :

— يا مولاي ! هذا بطيخ باكور ، بإجازتك احمله الى البيت ؟

فقال الشيخ : — ويحك ! بكم هذا ؟

قال : — بخمسة دراهم ...

قال : — بل بدرهمين ...

فباعه الخمسة بدرهمين وحملها الى داره ، وعاد الى دكانه مسروراً بما فعل

فقلت له : — يا هذا ! ما رأيت اعجب من جهلك ؟ استمتَّ عليَّ في هذا البطيخ ، وفعلت فعلتك التي فعلت ، وكنت قد اعطيتك في ثمنه خمسة دراهم ، فبعته بدرهمين محمولاً !!

فقال : — اسكت . هذا يملك مائة الف دينار

قال المتنبي : فعلمت ان الناس لا يكرمون احداً اكرامهم من يعتقدون انه يملك مائة الف دينار وأنا لا أزال على ما تراه حتى أسمع الناس يقولون إن أبا الطيب قد ملك مائة الف دينار »

فبهذا وأمثاله من أعمال الحياة لذلك العهد اصطدم قلبُ الفتى ، فاستقرَّ على ان يجدَ لما يريده مخرجاً ، غير العلم والعقل والنصيحة والاخذ باللين والملاطفة ، وازداد بذلك للناس احتقاراً ولاعمالهم بغضاً ، وحقر العظماء الذين لا يعظمون في أعين الناس إلاّ بالمال ، وجعل يديرُ الرأي حتى خلصَ إلى العزم — أن يطلبَ المال ، لا ليجمعه ويفرح به ، ولكن لينال به ما يريدُ مما ينطوي عليه قلبه من حقدٍ على قوم وما يدور فيه من معاني الاصلاح ، وما يبغي من إيقاظ الهمّة العربيّة للاستيلاء على السلطان المضيّع ، والمجد المفقود

ومع هذا — . . . كان الذكاء ، والثورة ، والنظر ، والتجربة والاختلاطُ بالناس واختبار أخلاقهم ، وتعجُّبه من فساد أقيستهم ، وبطلان مذاهبهم ، ثم اعتماده في نفسه على الثقة بها ، واعتداده بمقدرته ، واستسقاطه لمن يحيط به من رجال الدولة الذين لم يصلوا إلى الحكم أو

السلطان أو القضاء إلاّ بالسُّوء والقبيح ، ثم طبيعتُه الشاعرة المرهفة التي (تلتقط صور) الاشياء ثم تنزع منها الاخيلة الشعرية ، والحِكم البليغة . . كلُّ ذلك أسرع بالفتى إلى ضرب من القول السّاخِر الذي لم ترَ العربيّة مثله في شعر شاعر . إلاّ أن سخريته التي انفرد بها لم تكن بعد في كبره إلاّ ضرباً من الحكمة والعبرة التي لا يفطن اليها إلاّ أفذاذ العقول ، ثم يدلّون عليها بالايجاز العجيب فلا يبالغون في تصورها بل يضعون لها اللّفظ الذي يخرجها مخرج الحكمة ويزيدها روعةً في السِّحر. وسنتعرّض لتفصيل ذلك بعد — وقد حفظ لنا المتنبي ضرباً من سخريته في صغره تدلُّ على ما استحكم في شعره بعد وصار في شاعريته طبيعةً متأصّلة مستحكمة

مرَّ المتنبي برجلين قد قتلا جرذاً ، وأبرزاه يعجّبان الناس من كبره فقال

« لقد أصبح الجرَذ المستغيرُ أسيرَ المنايا صريعَ العطبْ
رماهُ الكنانيُّ والعامريُّ وتلاّهُ للوَجْهِ فعل العربْ
كلا الرَّجلين اتَّلى قتلَهُ ، . . . فأيُّكما غلَّ حرَّ السَّلَبْ
وأيُّكما كان من خلفِه ؟ فإن به عضَّةً في الذَّنَبْ »

قتل الرجلان — الكناني والعامريُّ — هذا الفأر الكبير ، فأخرجاه ليعجّبا الناس من كبره — وهذا سخفٌ منهما إذ شغلا نفسيهما بعبث لا معنى لمثله عند المتنبي الذي يريد في نفسه قتل الملوك — فمن هنا قال « الجرذ المستغير » الذي قد اغار عليهم كما تغير الجيوش ، ثم لما فرغ من جعله كذلك ذكر ان هذا الفأر قد وقع في (اسر المنايا) كما يقع العدو في الاسر حين رماه — الكناني والعامريُّ — بالسهم كما يرمى العدو ، وبذلك يسخر من رجلين يجمعان قلبيهما على قتل ، ثم لا يكون المقتول الاّ فأراً ، ثم لا يكتفي صاحبنا بهذا بل يقول انهما اخذا يصارعانه كما يصارع العربي خصمه مستعيناً عليه بالقوة حتى يكبه على وجهه مقتولاً ، وذلك قوله « تلاّه للوجه فعل العرب » ، ثم يقول بعد كلاكما تولّى قتله — وذلك لكبر الفأر وشدته — ولكن من منكما الذي سرق حرّ ثيابه وجيد سلاحه كما يسرق السارق في الحرب من اسلاب القتلى ويخفيها عن اصحابه من المقاتلة . ثم يعود فيقول ، انكما كنتما تصارعانه بعد ان رميتماه بسهميكما وكان أحدكما من خلفه فمن منكما الذي كان من ورائه ليحتال على صرعه ، وقد عرفت حيلته في صرع هذا الفأر العظيم فانه عضه في ذنبه ، وهذه العضة بينة ثمّ . وأنتَ اذا عدت فقرأت الابيات على ما تكلفنا شرحه رأيت بلاغة الرجل في السخرية ودقته في اختيار اللفظ ، وايجاز الصورة التي يريد ان يتفكه لك بها . وهذا الضرب من الكلام من اكثر ضروب الكلام دوراناً في شعر المتنبي حتى بلغ من دقته في وضعه ، ونفوذه في معرفته واتقانه ، انه كان يقول القول في المدح وهو ابلغ الهجاء ، . كما فعل بكثير من ممدوحيه — حاشا سيف الدولة — وفي اولهم كافور الاسود الخصيّ

وكانت هذه السخرية هي المنفذ لآلام ابي الطيب ، وما يضيق به صدره من الاحقاد والآراء ، ولعله كان في اصل طبيعته قريب الميل الى المرح والطرب في وقار — ولولا ما كلّف نفسه من المشقة للسيادة والمجد ، لكان من ابرع الناس نكتة بليغة ، واكثرهم نادرة عالية . يدلك على هذا ان ابا الطيب كان قد نادم في حياته كثيراً من الامراء وكانوا يحبونه ، ولا يصلح للمنادمة رجل متزمّت بارد الطبع ثقيل الظل ، طويل الصمتِ جهم الوجه ، كاشرٌ . ومما قاله « معاذ اللاذقي » لابي الطيب سنة ٣٢١ : « والله انك لشابٌ خطير تصلح لمنادمة ملكٍ كبير » ومعنى هذا ان ابا الطيب كان ظريفاً خفيف الروح محبباً الى النفس مع وقار وتؤدة . ومن تدبر سخريته في شعره كله وجد فيها هذا المعنى ، الا انه لم يكن يهزل هزل السخفاء

كان هذا الفتى يمشي في نواحي الكوفة بآلامه واحقاده وفقره ، ويتنقل في حوانيت الوراقين يقرؤ ما يقع بين يديه من الكتب ، ويختلف الى مجالس الائمة يستمع العربية والفقه والجدل ، وينظر متعجباً الى الحوادث التي تقع بين ظهراني قومه ، ويتسمع لما ترد به الانباء من اخبار الدولة المترامية الاطراف ، يضحكه ما يقع من الاحداث العجيبة التي ترفع وتضع ما بين عشية وضحاها ، ويكون فيما يرتفع الى الذروة اقوام — من العجب ان يصلوا الى كسب الرزق ، ثم هم يرتفعون فيما يرتفع بهم الى إمرة الامراء ، ومشيخة الكتابة ، وسياسة الدولة ، والقضاء بين الناس . فلا عجب بعد ان يكون هذا الفتى الثائر الذي يشهد آثار الاحداث في امته ، كثير العجب مما يرى وما يسمع ، قليل الحفل بهذه الاصنام التي ترفعها الحوادث وتضعها ، عظيم العجب بنفسه وما أوتي من فطنة وذكاء وعلم ولسان قوّال لم ينل بها الا الفقر والمسكنة والحرمان

لُمِ الليالي التي اخنتْ على جِدَتي برقة الحال ، واعذرني ولا تلمِ
أرى اناساً ، ومحصولي على غنمٍ وذكرجودٍ، ومحصولي على الكلمِ

وقد بقي في الكوفة على ذلك — فيما نرى — الى اطراف سنة ٣١٧ ثم خرج الى البادية القريبة ، بادية الجزيرة المفضية الى نجد وفيها قبائل من كلب ، فالتقى بهم واخذ يتنقل بينهم ليسمع ما بقي من العربية المبرأة على ألسنة هؤلاء القوم الذين قلّت بينهم الاعاجم ، ولم يظفر هناك بطائل الا ما مرن عليه من مشقة السفر واكتساب الصديق ، واختبار الخلق ثم عاد الى جدته بالكوفة يشاركها آلامها وشقاءها واحقادها ، ينال من فضل بعض اصحابه متعففاً — كمحمد بن عبيد الله العلوي الذي مرّ آنفاً — ولعلَّ العلويين الذي نكبوا جدته كانوا يفضلون عليها ليتقوا بذلك احداثها ان حدثتها نفسها بشيء وبقي المتنبي هناك بالكوفة منقطعاً عن مدح احد من العلويين او غيرهم من رجال الكوفة وعظائها . وقد جاء في حديث المتنبي الذي ذكرناه انه انحدر مرّة من الكوفة الى بغداد وما نشك ان مخرجه هذا الى بغداد كان فيما بين سنة ٣١٩

الى اوائل سنة ٣٢٠ . ودخل صاحبنا بغداد يرى العجب العاجب من الاحداث التي كانت تقع بها ، وشغب الجند على الخلفاء ، وظهور الموالي من العجم والديلم والترك على مواليهم من الامراء والخلفاء ، وقضاءهم في شؤون الدولة ،وتصريفهم سياسة الأمة على الشهوات المتنازعة ، والاهواء المتصارعة ،لا يرتدعون ولا يرعوون . فعف كذلك عن بمدح احد من هؤلاء الامراء والخلفاء وانف ان يتكسب بشعره من هؤلاء المحقرين لديه ، ورضي بالفقر واستمسك به ، وبدأت تندفع الدوافع في صدره المملوء احقاداً مؤرثة ، وترات لم ترو بعد من الدم . فعج صدره بالنار المضطرمة التي لا تهدأ ، تؤرثها افكاره ونظراته التي لا تفتر ولا تكل . ففي سنة ٣٢٠ اعتزم الخروج من الكوفة، وان ابت جدته عليه ذلك ، لما كانت تخشى من تدفعه الى موارد التلف بما يحمل في صدره .—وعقد قلبه على احداث حدث لعله ان يصيب من ورائه ما يبتغي وما يؤمل ، ويدرك به في قوم ثأراً ،ويشفي به صدر جدته وصدره . ولعل هذه الابيات التي نرويها لك كانت آخر ما قاله بالكوفة مما وصل الينا وما لم يصل من شعره ولعله عنى بالخطاب فيها جدته— قال:

محي قيامي ما لذلكم النصل ... بريئاً من الجرحى ، سليماً من القتل
اري من فرندي قطعة من فرنده ... وجودة ضرب الهام في جودة الصقل
وخضرة ثوب العيش في الخضرة التي ... ارتك احمرار الموت في مدرج النمل
امط عنك تشبيهي بما وكأنه ... (فما احد فوقي ولا احد مثلي)
وذرني واياه وطرفي وذابلي ... نكن واحداً يلقى الورى وانظرن فعلي

وقوله « محي قيامي » يعني ثورته وظهوره وخروجه ، وما نظن احداً كان يحب ذلك منه غير جدته، مع خوفها عليه وخشيتها ان يصيبه مكروه ممن يتربص به من العلويين فيما — ذهبنا اليه — وفي الابيات اثر بين من ثورة الصبا وغروره ، ولكنها تدل دلالة بينة على عزيمة هذا الفتى الابي الذي يريد ان يدرك ثأراً ، ويحدث امراً

ولم يمض الا قليل بعد ذلك حتى خرج الفتى من الكوفة واتخذ طريقه—على ما وقع عندنا من الرأي—من الكوفة الى بغداد، ثم خرج لوقته متخذاً طريقه في ديار ربيعة بين النهرين الى نصيبين ورأس عين وحران ومنبج، وطفق ينتقل بين القبائل في جوف البوادي حتى انقضى به المسير الى الشام في سنة ٣٢١ فنزل بدمشق وأعمالها وما يدانيها (اعني بعلبك ، وطرابلس وحمص) ثم كره الارض التي نزلها ثم صعد سنته الى منبج وحلب واللاذقية وانطاكية ومدح بها من مدح ثم اعتقل بحمص ، لما قالوا به من ادعائه العلوية ثم النبوة ثم العلوية ثم استتيب وأشهد عليه بالكذب فيما ادعى ثم تاب وأطلق . هذا موجز رحلته الاولى بالشام وتفصيلها غير ميسر بعد لغموضها ونقصها . ولهذه الرحلة عندنا تفسير آخر سنعرضه بعد

سيصحب النَّصلَ مني مثلَ مضربهِ
وينجلي خبري عن صِمَّةِ الصِّمَمِ
لقد تصبَّرتُ حتى لاتَ مصطَبرٍ
فالآنَ اقحمُ حتى لاتَ مُقْتَحَمِ
ميعادُ كلِّ رقيقِ الشفرتين غداً
ومن عصى من ملوك العرب والعجمِ
فان اجابوا ، فما قصدي بها لهمُ ،
وان تولَّوا ، فما ارضى لها بهمِ

النبوَّة في حياة المتنبي هي ابرز الحوادث التي عرف بها الرجل ثم نُبِزَ بها بَعْدُ. وقد اختلف الناس في امرها اختلافاً كبيراً ، فعلينا هنا ان نذكر لك اول ذي بدءٍ رواية الرواة في امر نبوته ، تامة كما رووْها ثم نعقبها برأينا الذي ارتضيناه ، وقضينا به ، وقد جاءت الرواية بها عن التنوخي الذي مرَّ ذكره في اول كلامنا عن نسب المتنبي ، وجاءت اخرى عن ابي عبد الله معاذ بن اسماعيل اللاذقي الذي قال انه لقي المتنبي باللاذقية وبايعه بالنبوة ، واخذ بيعته لاهله ايضاً !! كما سترى

روى التنوخيّ (علي بن المحسّن) عن ابيه المحسّن التنوخيّ عن القاضي ابي الحسن بن ام شيبان الهاشمي الكوفيّ قال :

١ — « وقد كان المتنبي لما خرج الى كلبٍ وأقام فيهم ادَّعى انه علويٌّ حسنيٌّ ثم ادعى بعد ذلك النبوة ، ثم عاد يدعى انه علويٌّ الى ان أُشهد عليه بالشام بالكذب في الدعويين ، وحبس دهراً طويلاً واشرف على القتل ، ثم استتيب ، واشهد عليه بالتوبة واطلق »

٢ — وحدث التنوخي ايضاً عن ابيه المحسن قال : حدثني ابو علي بن ابي حامد قال : «سمعت خلقاً بحلب يحكون — وابو الطيب المتنبي بها اذ ذاك — انه تنبأ ببادية السماوة ونواحيها الى ان خرج اليه لؤلؤ امير حمص من قبل الاخشيدية فقاتله وانفره ، وشرّد من كان اجتمع اليه من كلبٍ وكلابٍ وغيرهما من قبائل العرب ، وحبسه في السجن حبساً طويلاً ، فاعتل وكاد ان يتلف حتى سئل في امره فاستتابه ، وكتب عليه وثيقة اشهد عليه فيها ببطلان

ما ادعاه ورجوعه الى الاسلام ، وانه تائب منه ولا يعاود مثله واطاقه »[١] . . . .

ثم هذا حديث معاذ اللاذقي ننقله على طوله

٣ — « قدم ابو الطيب اللاذقية في سنة نيف وعشرين وثلاثمائة ، وهو لا عذار له ، وله وفرة الى شحمتي أذنيه ، فاكرمته وعظمته لما رأيت من فصاحته وحسن سمته . فلما تمكن الانس بيني وبينه وخلوت معه في المنزل اغتناماً لمشاهدته ، واقتباساً من ادبه قلت :

والله انك لشابٌ خطير ، تصلح لمنادمة ملك كبير

فقال : ويحك ! ! اتدري ما تقول ؟ انا نبيٌّ مرسل

فظننت أنه يهزل ، ثم تذكّرت أني لم أسمع منه كلمة هزل قطُّ منذ عرفته

فقلت له : ماتقول ؟ فقال : — انا نبي مرسلٌ فقلت : الى من مرسل ؟ فقال : الى هذه الأُمة الضالة المضِلّة . قلت : تفعل ماذا ؟ قال : أملأُ الدنيا عدلا كما مائتْ جوراً قلت : بماذا ؟ قال : بادرار الارزاق والثواب العاجل لمن اطاع وأتى ، وضرب الرقاب لمن عصا وأبى ، فقلت له : ان هذا امرٌ عظيمٌ اخاف عليك منه وعذلته على ذلك ، فقال بديهة

ابا عبد الإله ، معاذَ ، إنّي خفيٌّ عنكَ في الهيجا مقامي
ذكرت جسيمَ مطّلبي ، وأني اخاطرُ فيه بالمهج الجسام
امثلي تأخذ النكبات منه ويجزع من ملاقاةِ الحِمامِ ؟
ولو برزَ الزمانُ إليَّ شخصاً لخضّب شعرَ مفرقِه حسامي
وما بلغتْ مشيئتَها الليالي ولا سارتْ وفي يدها زمامي
اذا امتلأتْ عيون الخيلِ منّي فويلٌ في التيقّظ والمنام

فقلت ذكرت أنّك نبي مرسلٌ الى هذه الأُمة ، أفيوحى اليك ؟ قال : نعم ! قلت : فاتل عليَّ شيئاً مما أُوحي اليك . فأتاني بكلام ما مرَّ بسمعيّ احسن منه . فقلت : وكم أُوحي اليك من هذا ؟ فقال : مئة عبرة واربع عشرة عبرة . قلت : وكم العبرة ؟ فأتاني بمقدار اكبرِ من الآي في كتاب الله تعالى . قلت : في كم مدة أُوحي اليك ؟ قال : جملة واحدة . قلت : اسمع في هذه العبرات ان لك طاعةً في السماء ، فما هي ؟ قال : احبسُ المدرار ، لقطع ارزاق العصاة والفجار ، قلت اتحبس في السماء مطرها ؟ قال : إي والذى فطرها ! اما هي معجزة ؟ قلت : بلى والله ! قال : فإن حبستُ المطر عن مكان تنظر اليه ، ولا تشك فيه ، هل تؤمن بي ، وتصدقني على ما أوتيت من ربي ؟ قلت : إي والله . قال : سأفعل ، ولا تسألني عن شيءٍ بعدها ، حتى آتيك بهذه المعجزة ، ولا تظهر شيئاً من هذا الامر حتى يظهر ، وانتظر ما وعدته من غير ان

(١) لهذا الحديث تتمة فيها ذكر قرآن ابي الطيب وغير ذلك سنعرض له فيما بعد

تسأله . ثم قال لي – بعد ايام – : أتحبُّ ان تنظر المعجزة التي جرى ذكرها ؟ قلت : إي والله فقال لي: اذا ارسلتُ اليك هذا العبد فاركب معه اليّ ولا تتأخر، ولا تخرج معك احداً. قلت: نعم

فلما كان بعد ايامٍ تغيّمت السماء في يومٍ من ايام الشتاء ، واذا عبده قد اقبل فقال : يقول لك مولاي : اركب للموعد فبادرتُ الى الركوب معه ، وقلت : اين ركب مولاك ؟ قال : الى الصحراء . واشتد وقع المطر فقال : بادر بنا حتى نستتر من هذا المطر مع مولاي ، فإنه ينتظرنا بأعلى تلٍّ لا يصيبه فيه مطر . قلت : وكيف عمل ؟ قال : اقبل الى السماء أوّل ما بدا السحاب الاسود ، وهو يتكلم بما لا افهم ثم اخذ السوط فدار به في موضع ستنظر اليه ... واذا هو على تل بعيد عن البلد نصف فرسخ ، فأتيت اليه ، فإذا هو على التل لم يصبه من ذلك المطر شيء ، وقد خضتُ في الماء الى ركبة الفرس ، والمطر في اشدّ ما يكون . ونظرتُ الى نحو مئتي ذراعٍ في مثلها من ذلك التل ما فيه قطرة مطر . فسلمتُ عليه فردّ عليّ السلام . فقلت : ابسط يدك . اشهد انك رسول الله . فبسط يدهُ فبايعته بيعة الاقرار بنبوته ثم قال

اي محلٍّ ارتقي اي عظيم اتّقي
وكلّ ما خلق الله وما لم يخلق
محتقرٌ في همّتي كشعرةٍ في مفرقي

واخذتُ بيعتهُ لاهلي ، ثم صحّ بعد ذلك ان البيعة عمّت كل مدينة الشام . وذلك بأصغر حيلةٍ تعلّمها من بعض العرب وهي « صدحة المطر » يصرفه بها عن ايّ مكانٍ احبّ بعد ان يحوي بعصاً وينفث في الصدحة التي لهم

قال ابو عبد الله : وقد رأيت كثيراً منهم بالسكون وحضرموت والسكاسك من اليمن يفعلون هذا ولا يتعاظمونه ، حتى ان احدهم يصدح عن غنمه وابله وعن القرية فلا يصيبها شيء من المطر ، وهو ضربٌ من السحر . وسألت المتنبي بعد ذلك : هل دخلت السكون ؟ قال : نعم ! أما سمعتَ قولي

مُنِيتُ القطر اعطشها ربوعَا والاّ فاسقها السمّ النقيعا
أمنسيّ السكون وحضرموتاً ووالدتي وكندة والسبيعا

فقلت من ثم استفاد ما جوزه على طغام اهل الشام . . . . (وانت منهم يا ابا عبد الله اذن)

ثم قال ابو عبد الله هذا : ومما كان يخرق به في البادية ، انه كان مشّاءً قويّاً على السير يسير سيراً لا غاية بعده ، وكان عارفاً بالفلوات ، ومواقع المياه ، ومحالّ العرب بها . وكان يسير من حلّةٍ الى حلّةٍ بالبادية ، وبينهما مسيرة اربعة ايام ، فيأتي ماءً فيغسل وجهه ويديه ورجليه ، ثم يأتي اهل هذه الحلّة فيخبرهم ما حدث في تلك الحلّة التي فارقها ويوم ان

الارض تطوى له . وسئل في تلك الايام عن النبي صلى الله عليه وسلم: فقال : اخبر بنبوتي حيث قال : « لا نبي بعدي » وأنا اسمي في السماء (لا)

ولما اشتهر امره ، وشاع ذكره ، وخرج بأرض (سَلَمْيَةَ) من عمل حمص في بني عديّ (وظهر منه ما خيف عاقبته) [1] قبض عليه ابن علي الهاشمي في قرية يقال لها (كوتكين) وأمر النجار ان يجعل في رجليه وعنقه قرمتين من خشب الصفصاف فقال المتنبي :

زعم المقيم بكوتكين بأنه من آل هاشم بن عبد مناف
فأجبته مذ صرت من ابنائهم صارت قيودهم من الصفصاف

انتهى حديث معاذ بن اسماعيل اللاذقي (ابي عبد الله الصدّيق) الذي كان اول من صدّق بنبوة ابي الطيب وآمن به وأخذ بيعته لاهله ! !

وما دمنا قد اطلنا بذكر هذا الحديث فلا بأس عليك ان شاء الله - ان نقلنا لك ما رواه ابو العلاء المعري ايضاً قال :

« وحدثني الثقة عنه حديثاً معناه انه لما حصل في بني عديّ وحاول ان يخرج فيهم قالوا - وقد تبينوا دعواه : ها هنا ناقةٌ صعبةٌ ، فان قدرت على ركوبها أقررنا انك مرسل ، وانه مضى الى تلك الناقة وهي رائحة في الابل فتحيل حتى وثب على ظهرها فنفرت ساعة وتنكرت برهة ، ثم سكن نفارها ومشت مشي المسمحة ، وانه ورد بها الحلة وهو راكب عليها فعجبوا له كل العجب وصار ذلك من دلائله عندهم

وحدث ايضاً انه كان في ديوان اللاذقية ، وان بعض الكتّاب انقلبت على يده سكين الاقلام فجرحته جرحاً مفرطاً ، وأن ابا الطيب تفل عليها من ريقه وشد عليها غير منتظر لوقته . وقال للمجروح : لا تحلها في يومك ، وعد له اياماً وليالي ، وان ذلك الكاتب قبل منه فبرىء الجرح فصاروا يعتقدون في ابي الطيب اعظم اعتقاد ويقولون : (هو كمحيي الاموات)

وحدّث رجلٌ كان ابو الطيب قد استخفى عنده في اللاذقية او في غيرها من السواحل : انه اراد الانتقال من موضع الى موضع ، فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولقيهما كلبٌ الحّ عليهما في النباح ، ثم انصرف . فقال ابو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : انك ستجد ذلك الكلب قد مات ، فلما عاد الرجل الفى الامر على ما ذكر . . ولا يمتنع ان يكون اعد له شيئاً من المطاعم مسموماً ، وألقاه له وهو يخفي عن صاحبه ما فعل . . . والخِبز يبق سمُّ الكلاب »

هذا حديث نبوته ونبوءاته ومعجزاته عند اكثر الرواة ، اما قرآنه فقد اجمعوا انه لم يبق

(١) في بعض الكتب هذه الزيادة

الاَّ ما نرويه لك قال ابو علي بن ابي حامد — الذي مرّ آنفاً — :

وكان (يعني ابا الطيب) قد تلا على البوادي كلاماً ذكر انه قرآنٌ انزل عليه ، وكانوا يحكون له سوراً كثيرةً ، نسخت منها سورة ضاعت ، وبقي أولها في حفظي وهي :

«والنجم السيّار ،والفلك الدوّار ، والليل والنهار ، إن الكافر لفي أخطار ، امض على سننك ، واقف أثر من كان قبلك من المرسلين ، فإن الله قامع زيغ من الحد في دينه (الدين) وضل عن سبيله (السبيل) » قال : وهي طويلةٌ لم يبق منها في حفظي غير هذا

وأنا لا أحبُّ ان اتجاوز هذه النصوص إلى ماسواها ، إلاّ وقد نظرت فيها وبصَّرْت القارىء بالتوائها وضعفها ووهنها ، ويأتيه ما استنبطناهُ وقد وقر في نفسه ردُّ هذه المقالة التي نبز بها أبو الطيب ، وبذلك يقوم ردّنا مقام البيّنة على ما أردناهُ — أصبنا أو أخطأنا

لن نعودَ تارة أخرى إلى ما قدّمنا من ذكر التنوخي ثم روايته عن أبي الحسن العلوي وابن أم شيبان الهاشميّ ،ففي أول كلامنا تجدُ بعض الادلّة على وهن رواية التنوخي، واستسقاطنا إياها ، ولا غنى لك عن العوْدة إلى تذكّره عند هذا الحديث عن نبوّة المتنبي

بيّنا لك فيما مرَّ ما بين أبي الطيب وبين العلويين، وأن صاحبنا كان له عندهم ثأرٌ قديمٌ هو الذي أراد أن يدركه فيهم ، وينال «حقّه» منهم ، ورجح عندنا الاستنباط ان يكون أبو الطيب « علويًّا » منكوباً في نسبه وشرفه وجاهه ، وأنه كان يريد ان يظهر نسبته إلى العلويين ولكن عارضته دون ما أراد أهوالٌ وأحداثٌ ، فإذا جمعت هذا الرأي هنا ونظرت في النص الذي وقع الينا من التنوخي عن ابن أم شيبان الهاشمي —وهو علوي كبير—ملكك الشكُّ وغلب عليك فيما روى فإنه لم ينس أن يذكر لنا فيما قال — لو صدق التنوخي في روايته عنه — أن أبا الطيب ادعى العلوية مرتين

أما حديث معاذ بن اسماعيل اللاذقي فنقد سنده لا يتيسر لنا لان صاحبنا هذا اللاذقي مجهولٌ لم نقع له على ذكر ، ولكن مما لاشك فيه أن اللاذقية التي نسب اليها كانت لوقت أبي الطيب موطناً لفئة من العلويين ، ومحطًّا لكثير من كبار الدُّعاة العلويين الذين أحدثوا أحداثاً عظيمة في التاريخ العربي كله . فلا بأس من ان تجعل هذا ذكراً مذكوراً وانت تتبصر في اصل الرواية ، على وهنها وتضاربها وتهالك معانيها التي يفسد بعضها بعضاً كما سترى بعد

فالحديث الاول وهوحديث ابن ام شيبان الهاشمي عجيبٌ لا يفرغ من العجب من اختصاره وتداخله فهو رتّب امر ظهور المتنبي على درجات ثلاث الاولى ادعاؤه العلوية ، والثانية النبوة ، والثالثة العلوية ايضاً . فاما ان يدّعي العلوية، ثم يعود فيدّعي النبوة فهو قول لا بأس به ، ولكن العجب انه بعد هذا عقب على النبوة بلفظ التعقيب (ثم) فقال « ثم عاد يدعي أنه علوي » .

فالذي يدّعي النبوة ويبايع بها كما يقول اللاذقي الصدّيق ! ! — لا يعقب على هـذه الدعوى بالعلوية . فادعاء الرجل النبوة ثم انحطاطه منها إلى العلوية إكذاب لنفسه، واقرارٌ منه بالمخرقة على الناس والعبث بهم. ولا يكون ادعى النبوة ثم ينحطّ منها الاّ بعد قتالٍ يرغم فيه على التسليم، ولاشك انه ان كان فعل بصاحبنا ذلك ، لحُبس لوقته قبل ان يتمكن من القيام بالدعوة الى نفسه مرة اخرى بين بني كلب فيدعي العلوية . ثم لو انه كان مطلقاً ، ورجع عن النبوة الى ادعاء العلوية ، لكان ذلك كافياً في تكذيبه وتحقيره عند من سلّموا له بما ادعى من علويته بدءاً ، ونبوته بعد . فهذا وجه في ابطال هذا النص

أما حديث ابي علي بن أبي حامد — ولم نعرف الرجل — فهو حديث محكم لا يقع فيه هذا الاعتراض الذي قدمناه إذ اقتصر صاحبه على ذكر النبوة وحدها ، وما يأتيه التوهين الاّ من قبل غرابته عما جرت عليه الاحكام في شأن من يدعون النبوة ، فيقول ابو علي ان لؤلؤاً امير حمص «استتابه ، وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه الى الاسلام» اما ان يستتيبه ويشهد عليه انه تائب فهذا لا بأس به وهو الحكم مع المتنبئين ، واما ان يكتب وثيقة عليه ببطلان نبوته فهذا امر لامعنى له ، لان الوثيقة انما تكتب فيما يخاف من قبله معاودة الدعوى ، فتكون اقراراً مكتوباً مشهوداً عليه بالبطلان من المدعي نفسه كدعوى المالكية في العروض، ودعوى العلوية « مثلاً » في النسب، فتكون الوثيقة حجة عليه اذا عاد ليُحاجّ الناس فيما ادعاه بعد الاقرار بالكذب في الدعوى الاولى ، اما النبوة فالامر فيها على غير ذلك فان الرجل اذا ادعى النبوة ثم استتيب واشهد على نفسه بالكذب فيما ادعى ، ثم رجع بعد ذلك يدعيها مرة اخرى لم يكن يُنظر حتى يحاج الناس فيما يدّعي، ويقول لهم انكم لم تأخذوا عليّ وثيقة مكتوبة مشهوداً عليّ فيها بالكذب ، وانما يكون جزاؤه القتل من غير إنظار ولا استتابة

فهذه الوثيقة التي ذكرها ابو علي — ان صح امرها —انما تكون قد اخذت عليه في دعوى العلوية لادعوى النبوة . فأنت ترى ان نص ابن ام شيبان فيه ذكر العلوية مرتين ، وان ذكر النبوة يكاد يكون مقحماً فيه ، وترى ان نص ابي علي بن ابي حامد يرجح دعوى العلوية لادعوى النبوة ، فاذا قرنت هذا الى ما تمادينا في ذكره عن نسب المتنبي وما اتينا به من الحجة في ترجيح نسبته الى العلويين ، لم تبعد عن الحكم بأن هذه الروايات انما يراد بها العلوية لا النبوة

اما ثالث الاحاديث ـ وهو حديث ابو عبد الله الصدّيق ! ! معاذ بن اسماعيل اللاذقي ـ فعجب كله وبطلانه بيّن للمتدبر ، ولولا ان كثيراً ممن كتب عن المتنبي مرّ به ولم يعرض له ، لتركناك تحكم بوضعه من سياقه ومدرجه دون ان نأخذ انفسنا بنقده . وأنت اذا تدبرت الحوار

الذي زعمه ابو عبد الله هذا بينه وبين ابي الطيب ، لم تشك ساعة في ان الرجل كان يضع هذا الكلام وضعاً ولا يرويه رواية . والعجب له !! — قد اتهم نفسه في مواضع من كلامه بقلة العقل وعمى البصيرة ، وسرعة التهور في التسليم

فهذا المسمى معاذاً كان ولا شك رجلا مسلماً مدركاً يملك من العقل مقداراً يكفي — على الاقل — في الانصات له اذا حدَّث ، والاَّ لبطل حديثه هذا من غير محاولة منا في ابطاله ... فان كان كذلك او اقل من ذلك قليلاً ، فما نظنه كان يصبر على الرجل حين ادعى النبوة كل هذا الصبر ، فيتمادى في الحوار معه ثم يصف كلام فتى في السابعة عشر انه (ما مرَّ بسمعه احسن منه)، فهذه امَّا ان تكون كلمة جاهل او كلمة وضاع يريد ان ينتقص من الرجل، فهو يجيء لا نتقاصه بامتداحه وتعظيمه . ثم كيف يعقل ان رجلاً مسلماً كان في عصر المتنبي ، ثم في مدينة كاللاذقية ويدل كلامه على بعض العلم ، يصدِّق دعوى حبس المطر ويعدُّها معجزة ، فضلاً عن تصديقه النبوة بعد موت محمد صلى الله عليه وسلم ! وأعجب من ذلك في الوضع البين انه يدَّعي هذا المسمى معاذاً انه اقر بنبوة المتنبي ثم بايعه لما رأى معجزة حبس المطر وأنه اخذ البيعة لاهله ايضاً على الايمان به ، فأيُّ رجلٍ مسلمٍ غير جاهلٍ ولا مفتون في ذلك العصر يهور في الكفر بغير معجزة ولا بينة ، ومن عجيب سهو هذا اللاذقي في الوضع انه قال بعد ذلك توًّا « يريد معجزة حبس المطر » « وذلك بأصغر حيلة تعلمها من بعض العرب » . فلو انه كان قد اتقن وضعه لزعم انه بقي على بيعة المتنبي والإقرار له بالرسالة الى ان رأى — بعد زمان — او سمع واستيقن ان الذي فعله المتنبي وزعمه معجزة له ، امرٌ مشهور عند بعض العرب يتعاطونه اذا كرَبهم المطر ثم يصف كما وصف انه « صدحة المطر » يصرفونها به عن اي مكان يحبون بعد ان يحوون بعصا وينفثون في الصدحة التي لهم ..... الخ فكفر بنبوة المتنبي لذلك وتاب ورجع الى الاسلام . ثم من ضعف وضع هذا اللاذقي انه زعم انه كان قد رأى كثيراً من اهل السكون وحضرموت يفعلون صدحة المطر ولا يتعاظمونها ، فسأل المتنبي : هل دخلت السكون ، قال : نعم ! وما دام اللاذقي هذا كان قد عرف هذه الصدحة ، فكيف آمن بنبوة صاحبه ولا دليل له على نبوته غيرها ، وهي مشهورة في اليمن معروفة معمول بها كما يقول

وأعجب من هذا انه يدعي ان دعوة المتنبي قد عمت كل مدينة بالشام وبويع له بها ، كيف يكون هذا ؟ والشام اذ ذاك منزل من منازل أئمة الدين والعلم ، وكان اكثر اهلها لا يتخلفون عن صلاةٍ ، ولا يزال بين ظهرانيهم عالمٌ يقرأ في مجلسه ، او واعظ يعظ في حلقته ، او خطيب يخطب من منبره ، ثم يؤمنون بدعوى رجل لا تؤيده معجزة بيانية ، ولا خارقة كونية ، وان زعمنا ان اللاذقي قد آمن بالمتنبي لصدحة المطر ، افتؤمن له كل مدينة بالشام وتبايعه لهذه الضلالة

او هذه الاكذوبة التي لا تعقل . ليكن اللاذقي رجلاً لا عقل له ، أفيكون اهل الشام كلهم هذا الرجل ؟ !

ويقول اللاذقي للمتنبي يخوفه مما يقول به من النبوة «ان هذا امرٌ عظيم اخاف عليك منه» فيجيبه المتنبي بشعر لا ذكر للنبوة فيه ، وانما هو شعر رجل مقاتل يريد الحرب ، لا نبي يريد ان يؤمن الناس به ، ثم ان الذي قاله في الشعر يدل على غير ذلك فانه قال

ذكرت جسيمَ مطلبي ، واني اخاطر فيه بالمهج الجسام

وليست النبوة مطلباً يطلب ويخاطر فيه بالنفس والنفيس ، انما النبوة امر من الله لمن اوحي اليه ان يصدع بما يؤمر به ، فيكون عمله هداية الناس باللين او بالشدة كما يشاء الله ، فلا يكون ذلك مطلباً للنبي يريد ان يناله ، بل يكون امراً يجب ان يطيعه ويعمل به ، وكذلك الابيات التي انشدها

أي محل أرتقي اي عظيم أتقي

فالقول فيها قريب من هذا . اما البيتان الاخيران فهما الدليل على تلفيق الرجل فالبيت الاول هذا «مُلِثُّ القطر» اول قصيدة للمتنبي ، والبيت الثاني في آخر القصيدة ، ولا رابط بين البيتين حتى ينشدهما المتنبي معاً في الاستدلال على دخول السكون أو حضرموت ، وكان يكفيه البيت الثاني في الاستدلال لما أراد . ثم ان المتنبي بغير شك لم يدخل اليمن في حياته كلها من يوم ولد إلى يوم مات. أما الذي ذكر في الابيات فهو كما قدمنا لك أسماء خطط لاهل اليمن بالكوفة التي ولد بها أبو الطيب

وأيضاً فإن هذه القصيدة التي منها هذان البيتان في مدح علي بن ابراهيم التوخي وكان مدحه سنة ٣٢٣ بعد خروجه من السجن أو بعد رجوعه عن الكوفة إلى الشام سنة ٣٢٦ على ما حققناه [١] وهذا الذي ذكره اللاذقي في حديثه كان سنة ٣٢١ قبل أن يقبض عليه . فهذه كلها أدلة بينة على وضع القصة وتلفيقها ، وانها وضعت على الارجح بعد وفاة المتنبي

ومن اكاذيب هذه الرواية أيضاً دعواهم أن المتنبي كان عارفاً بالفلوات ، ومواقع المياه ، ومحال العرب بها ، فذلك لا يتيسر إلا لمن ولد بهذه البلاد ونشأ بها ، والمتنبي دخل البلاد في السنة التي يروي فيها اللاذقي هذا الحديث وحبس في السنة نفسها ، فما كان له ان يعرف مجاهل البادية ومواقع مياهها ومحال اهلها كما زعم في قلة من الوقت . فانظر الآن ما تقول في هؤلاء الوضاعين !

أما معجزات المتنبي فلا نتكلم فيها لان بطلانها بين وفسادها مكشوف ، ولقد علمت بهذه

(١) الرأي هو هذا الاخير كما سترى بعد في موضعه ، ولا يصح عندنا غيره

الاحاديث التي رويناها لك انهم كانوا يريدون أن يتهموا الرجل بما هو منه براء ، فأولى أن تكون المعجزات التي رواها أبوا العلاء ضرباً من الكيد له وتأييداً لاتهامهم الرجل بدعوى النبوة

أما قرآنه فهو كما ترى ليس بقرآن ، وانما هو « ضربٌ من الهذيان » ، والعجب أن يبايع له اللاذقي ولا يحفظ من قرآنه شيئاً ثم يصفه فيقول « ما مرَّ بسمعي أحسن منه » ثم الاعجب أن تم بيعته كل مدينة بالشام كما قال ، ولا يبقى من قرآنه إلاّ هذه الحاقة الصغيرة التي رووها ، يزعم أبو علي بن أبي حامد أنها بقيت في حفظه

ولا ندري لماذا أصيب المتنبي بهذا العجب ! ! ففي مسألة نسبه ، كانت نسبته الى جعفي التي كان يخفيها خوفاً لا يعرفها الاّ التنوخي وابن ام شيبان ، وابو الحسن العلوي ، وقرآنه لايحفظه الا ابو علي بن ابي حامد واللاذقي ثم لا يحفظان معاً منه الاّ قطعة بعينها مع ان اللاذقي قد ذكر تعدادها مئة عبرة وأربع عشرة عبرة ، واتفقا معاً على حفظ هذه القطعة ونسيان ما بقي من هذا العدد

وبعد فان احداً لا يشك في ان الرجل (أبي الطيب) كان قد سجن لامر ما ، ولكن حرص هؤلاء الذين روينا اقوالهم على ان يجعلوا حبسه من أجل النبوة يجعلنا نرى انهم جعلوا مسألة النبوة غطاء يسترون به حقيقة ما قام من اجله ابو الطيب فقبض عليه . ويتّسق على مذهبنا في نسب المتنبي ان الرجل حبس من اجل دعوى العلوية التي ذكرها الرجل الطيب ابن ام شيبان واقحم عليها النبوة ليجعل دعواه في علويته كذباً ، فان الذي يدعي النبوة لا يتورع عن ادعاء العلوية ، ثم ان هذا الرأي من ابن ام شيبان — ان صح عنه — يزيدنا يقيناً بان الرجل كان يعرف من امر نسب المتنبي شيئاً ويريد ان يخفيه وأن لا يظهر عليه احداً من الناس

ومسألة القبض على المتنبي لها عندنا سياقٌ تاريخيٌّ آخر استنبطناه ، ولكن يحسن بك ان تهيء في نفسك مرة اخرى ما قلنا به من نسبة المتنبي الى العلوية ، وما افضنا فيه من القول في عدة مواضع ليسهل عليك ان تعيننا على تحقيق ترجمة الرجل . هذا ونحن والقارىء في هذا الموضوع سواء ، فمن تبين له وجه او توجه له رأي ، فليكتب لنا به مشكوراً

دعوتُكَ لما براني البلاء
وأوهنَ رجليّ ثِقل الحديدِ
وقد كان مشيهما في النعالِ
فقد صار مشيهما في القيودِ
وكنتُ من الناس في محفِلٍ
فها أنا في محفِلٍ من قرودِ
فلا تسمَعنّ من الكاشحين
ولا تعبأنّ (بعجل اليهودِ)
وكن فارقاً بين دَعوى (اردتَ)
ودَعوى (فعلتَ) بشأوٍ بعيدِ

قلنا ان المتنبي في اواخر سنة ٣٢٠ اعتزم الخروج من الكوفة ، وأنه عقد قلبه على احداث حدث لعله ان يصيب من ورائه ما يبتغي وما يؤمل ، ويدرك به ثأراً في قوم ، ليشفي به صدر جدته وصدره ، ثم انفذ عزمه في الرحلة عن الكوفة الى بغداد ومن ثمّ اتخذ طريقه مصعداً الى ديار ربيعة بين النهرين الى الموصل ونصيبين ورأس العين وانحدر بعد الى الشام فقبض عليه هناك

وكان مزور المتنبي برأس عين في اوائل سنة ٣٢١ على الارجح وفي تلك السنة حدث حادث كان من جرائه ان قتل ابو الاغر بن سعيد بن حمدان (ابن عم سيف الدولة) ، وذلك ان بني ثعلبة اجتمعوا الى بني اسد القاصدين الى ارض الموصل ومن معهم من طيء فصاروا يداً واحدة على بني مالك ومن معهم من تغلب (وهم قوم بني حمدان) ، وقرب بعضهم من بعض للحرب. فركب ناصر الدولة الحسن بن عبد الله بن حمدان (اخو سيف الدولة علي بن عبد الله بن حمدان) في اهله ورجاله ومعه ابو الاغر بن سعيد بن حمدان للصلح بينهم ، فتكلم ابو الاغر فطعنه رجل من حزب بني ثعلبة فقتله ، فحمل عليهم ناصر الدولة ومن معه فانهزموا ، وقتل منهم وملكت بيوتهم، وأخذوا حريمهم وأموالهم، ونجوا على ظهور خيلهم . وتبعهم ناصر الدولة الى الحديثة (بقرب الموصل) فلما وصلوا اليها لقيهم يأنس غلام مؤنس وقد ولي الموصل وهو مصعد اليها ، فانضم اليه

بنو ثعلبة وبنو اسد وعادوا الى ديار ربيعة . وانقطع عند هذا التاريخ الذي بين ايدينا في كتب التاريخ ولكن بعض رواة ديوان المتنبي او شراحه يقولون ان المتنبي مر برأس عين في سنة احدى وعشرين وثلاثمائة وقد اوقع سيف الدولة بعمرو بن حابس من بني اسد ، وبني ضبة وبني رياح من بني تميم فمدحه بقصيدته التي اولها

ذكر الصبا ومراتع الآرام جلبت حِمامي قبل يوم حِمامي

وذكر ما كان من امر سيف الدولة مع هؤلاء الذين ذكرناهم من قبائل العرب النازلين في ارض الموصل وما جاورها ، فبين « ان لقاء سيف الدولة لهؤلاء الخارجين من بني اسد وبني ضبة وبني رياح كان على أثر قتلهم ابن عمه (ابا الاغر بن سعيد بن حمدان) ، وان مدح المتنبي سيف الدولة قد احفظ عليه بني اسد وبني ضبة حتى كان من امرهم بعد معه ما كان — على ما نذهب اليه — من أنهم قتلوه بالعراق كما سيأتي بعد

ويقول رواة الديوان أن أبا الطيّب لم ينشد سيف الدولة هذه القصيدة ، ولا نظن أن ذلك يكون دليلاً على انه لم يلقَ سيف الدولة في سنته تلك ، بل الارجح عندنا انه لقيه وحدّثه ، واتصل بينهما الود قليلاً قليلاً ، وفي القصيدة ابيات تدلّ على ان سيف الدولة (وكان صغيراً في مثل سن المتنبي) افضل عليه بعض الافضال واكرمه واحبه . والعجب ان تكون هذه القصيدة وهي من اول قصائده في حياته[1] تدل على حبّ بليغ لسيف الدولة ، يقرب من حبه له بعد ، والذي تدل عليه مدائحه التي استفاضت بعد اتصاله به في سنة ٣٣٧ كقوله مثلاً

وتعذّر الاحرار صيَّر ظهرها[2] إلاّ إليك عليّ ظهر حرامِ
(أنت الغريبة) في زمانٍ أهلُه ولدت مكارمهم لغير تمامِ
أكثرتَ من بذل النوال ولم تزل علماً على الإفضال والإنعامِ
صغَّرت كلّ كبيرة ، وكبرت عن لكأنّه ، وعددتَ سنّ غلامِ
ورفلت في حلل الثناء ، وانما عدم الثناء نهاية الاعدامِ
عيب عليك ترى بسيفٍ في الوغى، ما يصنعُ الصمصامُ بالصمصامِ ؟
ان كان مثلك كان او هو كائنٌ فبرئت حينئذٍ من الاسلامِ

وهذا غلوّ عجيبٌ ... وانت اذا رجعت إلى مدائح المتنبي الى ان اتصل بسيف الدولة في سنة ٣٣٧ لم تجد دلالة الحب والتعظيم بادية في مثل هذه المعاني ، وغيرها مما لم نذكره من القصيدة . ولعل المتنبي كان قد رأى من سيف الدولة في ذلك العهد مثلاً من امثلة المروءة والفتوة التي كان

(١) كانت سن المتنبي اذ ذاك ١٨ سنه (٢) يعني ظهر ناقته

يفقدها في رجال عصره ، وانت ترى ان المتنبي في صغره كما بيّنا لك اول كلامنا ... كان يرى الرجولة والفتوّة المثال الاعلى الذي يعلّق به طرفه . وذلك لما انطوى عليه قلبه من حب المجد وطلب الثأر، ولما في نفسه من الثورة على زمنه واهله، ومن ظلموه وارادوا به شراً وذلاً ومهانة

وعجيب ايضاً ان لا يمدح المتنبي واحداً من الخلفاء وابنائهم وهم بالعراق ، ولا احداً من كبار العراقيين من الامراء ثم يعمد الى مدح بني حمدان وحدهم ، ولم تكن شوكتهم بعد قد بلغت مبلغ غيرهم من الامراء ، فذلك دليل على انه لم يمدحهم للعطاء وحده ، بل مدحهم لأمر آخر لا نكادُ نتبيَّن إلاّ أطرافاً منهُ ، ولعلّ بني حمدان كانوا يعرفون من أمر المتنبي شيئاً ، وكانوا يصلون جدّته في حال نكبتها ، فلذلك ذكر المتنبي أبويْ سيف الدولة في القصيدة وطلب لقبريهما السقيا ، وقد كان له مندوحة عن ذكرهما ، وذلك قوله

صلّى الإلهُ عليك غير مودّعٍ وسقى ثرى أبويْك صوبَ غمامِ

وفي مدحه لبني حمدان أو سيف الدولة وإخوته وأبويه على التحقيق ما يرجّح ذلك

قومٌ تفرَّست المنايا فيكمُ فرأتْ لكم في الحرب صبر كِرام

تالله ما علمَ امرؤٌ لولاكُمُ كيف السخاءُ ، وكيف ضرب الهام

وعندنا أن هذه القصيدة قد أنبتتْ في صدر سيف الدولة محبّة هذا الفتى العربيّ الطموح الثائر الذي لا يستقرُّ ، وكان توافقهما في السنّ [1] والفتوّة قد جمع بين قلبيهما ، ولولا ما كان في صدر المتنبي من الاماني التي لا تهدأُ ولا تفتر ، لبقي معه ، ولولا ما كان فيه سيف الدولة من مثل ذلك ، ومن أهبته إلى حرب بني أسد وبني ضبّة ، لعزم على صاحبه في الرُّفقة في الحِلّ والترحال ، ولكن أراد الله شيئاً فكان . . . .

وخرج المتنبي من أرض بني حمدان ، ومن جوار سيف الدولة خاصةً إلى عزيمته بالشام . وبدأت الحوادثُ تأخذُهُ أخذاً حتى رمتْ به في سجنه ، ولم يكن المتنبي لذلك العهد مغموراً مجهولاً كما يذهبُ اليه اكثر الكتاب ، بل كانت قصائدُهُ قبل مدخله إلى الشام قد أنبتت عليه عُيُون الدولة العباسية وجواسيسها ، وأطراف العلويين الذين هضموهُ وظلموهُ ، ونظرات العلويين الفاطميين أيضاً ،وكانت دعوة الفاطمية قد نفذت في بلدان العربيّة في تكتّمها واستتارها ، مع قوّتها وحصافة القائمين بالدعوة اليها ، وماكان لهم من المذاهب في التدخّل في شؤون السياسة تدخُّلاً حكيماً سِرّياً ، يترفقون لهُ ليصلوا إلى ضربِ الخلافة العباسية والقضاءِ عليها ، وإقامة الخلافة العلوية الفاطمية

وكان الذي أمسك العيون على المتنبي فيما نذهب اليه ، أنه قبل ان يلتقي سيف الدولة في المرة

(١) ولد المتنبي سنة ٣٠٣ وولد سيف الدولة في تلك السنة

الاولى سنة ٣٢١ وكان في طريقه بأرض العراق قال من الشعر ما وقع إلى هؤلاء ، فاستفهم اليه فمن ذلك ما روى من أن أبا سعيد المجيمري عذله على تركه لقاء الملوك وامتداحهم فقال له

أبا سعيدٍ جنّب العتـابا فربَّ رأي أخطأ الصوابا
فإنهم قد أكثروا الحجّابا واستوقفوا لردّنا البوّابا
وإن حدَّ الصارم القرضابا والذابلاتِ السُّمر والعرابا
ترفعُ فيما بيننا الحجابا

فمثل هذا القول لا يذهبُ باطلاً عند أصحاب الامر في الدولة ، ومن يضعون عيونهم على سياسة العصر ودسائسه ، وقد كان عصراً مملوءاً بكل عجيب من الدعوات الخفية ، والثورات السرية التي لا يخطئها مطلعٌ على تاريخ تلك الفترة من العصر العباسي . ويبيّنُ من شعر المتنبي الذي وقع في ترتيبنا لديوانه في هذه الفترة أنه حين دخل العراق لقي بعض الكيد على أثر ما عُرف عنه من الثورة القائمة في صدره ، ودليل ذلك قوله

رماني خساسُ الناس من صائب استه وآخر قطنٌ من يديه الجنادلُ
ومن جاهلٍ بي، وهو يجهلُ جهلَهُ، ويجهلُ علمي أنه بي جاهلُ
ويجهل أني — مالك الارض — معسرٌ وأني — على ظهر السماكين — راجلُ

ولم يكتف صاحبنا بذلك بل خرج الى ذكر نفسه وصفتها ، وعرَّض بما يضمر من الخروج ابتغاء لما يؤمّلُ من الثأر أولاً وما سمّاهُ (المجد والعلى) تالياً . فقال

يحقّر عندي همتي كلَّ مطلبٍ ويقصرُ في عيني المدى المتطاولُ
وما زلت طوداً لا تزول مناكبي الى أن بدت (للضيم) فيَّ زلازلُ

. . . .

يُخيّلُ لي أن البلاء مسامعي وأني فيها ما تقول العواذلُ
ومن يبغِ ما أبغي من المجد والعلى تساوَ المحايي عنده والمقاتلُ
(ألا ليست الحاجات الاّ نفوسكم وليس لنا الاّ السيوف وسائلُ)
(غثاثةُ عيشي أن تغثَّ كرامتي وليس بغثٍ أن تغثَّ المآكلُ)

ولا يلفتنَّكَ ما نحن فيه عن أن تعود الى ما ذهبنا اليه في أمر نسبه ونكبته الاولى وهو صغيرٌ ، لتعلمَ سر القول في قوله (الى أن بدت للضيم فيَّ زلازل) فهو يردُّك الى ذكر المشكلة القائمة في نفسه والتي وصفناها لك على ما وفّقنا اليه ، إذ أنه بهذا الشطر قد ضمن لك معنى ما نريد من أنه كان مغلوباً على أمره، محكوماً عليه بأمرٍ كله ظلم وضيم فلما بلغ مبلغاً ، زلزله هذا الضيم وقد حاول من صدره مخرجاً على انه كان — كما وصف نفسه — رابط الجأش ثابت النفس

ثبوت الجبل على ما يعمل تحته من العوامل البركانية التي تبتغي مخرجاً بالانفجار

دَعْ ذا — ونعود الى شعره في الفترة التي نحن فيها من تاريخه ، فكان مما قاله في العراق ايضاً قصيدته التي اولها « ضيف ألمّ برأسي غير محتشم » وننقل اليك طرفاً منها لتتدبّره على ما رسمنا يقول

ليس التعلّل بالآمال من أربي ولا القناعة بالاقلال من شيمي
ولا اظنّ بنات الدهر تتركني حتى تسدّ عليها طُرْقها هممي

. . . . . .

سيصحبُ النصلَ مني مثلُ مضربه وينجلي خبري عن صمّة الصمم
لقد تصبرتُ حتى لاتَ مصطبر (فالآن أقحم حتى لات مقتحم)
لأتركنّ وجوه الخيل ساهمةً والحرب اقوم من ساق على قدم
بكلّ منصلت ما زال منتظري (حتى أُدلت له من دولة الخدم)
تنسي البلاد بروق الجوّ بارقتي وتكتفي بالدم الجاري عن الديم
ردي حياض الرّدى يا نفس واتركي حياض خوف الرّدى للشاء والنعم
(ان لم أذرك على الارماح سائلةً فلا دعيت ابن ام المجد والكرم)
(أيملك الملك — والاسياف ظامئة والطير جائعة — لحم على وضم) (١)
من لو رآني ماءً مات من ظمأ ولو عرضت له في النوم لم ينم
ميعاد كل رقيق الشفرتين غداً (ومن عصى من ملوك العرْب والعجم)
فان اجابوا فما قصدي بها لهمُ وان تولّوا فما ارضى لها بهم

فهذا الذي اثبتنا لك من شعره في القصيدتين ، وما صرح به فيهما عن آماله وآرائه ، وعن رأيه في الدولة العباسية التي ملك زمامها العجم والديلم والترك ممن كانوا من خدم الخلفاء ، وعن رأيه في الخليفة الضعيف الذي لا يملك من أمر نفسه شيئاً ثم يُعَدُّ في نظر شعبه ملكاً ممَلَّكاً تعطى له المقادة، وتصرف اليه الطاعة بالاذعان والتسليم ، وما يتجلى في كلماته من ارادة التغلب والثورة على الدولة عربها وعجمها ، كلّ ذلك ولا شكّ جالب على صاحبنا على صغره اهتمام القائمين بأمر الدولة من الولاة والدُّعاة من العرب والعجم والترك والدَّيْلم ، وأصحابِ الدعوة العلوية والدعوة الفاطمية

---

(١) (لحم على وضم) جملة يكنى بها عن الضعيف الذي لا ناصر له كالمرأة التي لا حامي لها ، وهذه الكناية فاعل قوله (ايملك الملك) ، والبيت الثاني بدل من قوله «لحم على وضم»

فلما كان اتصاله ببني حمدان في سنة ٣٢١ ومدحه لهم — دون غيرهم من الولاة والامراء أمثالهم ، والمنافسين لهم والحاقدين عليهم ، والمريدين الإيقاع بهم لما عرفوا به من الصراحة من الحكم ، والدهاء في السياسة ، والعصبيّة للعربيّة الصريحة ، وبغضهم لحكام الاعاجم الذين كانوا هم أصحاب الامر والنهي في الدولة كلها — ازداد اهتمام هؤلاء بالفتى العربي (المتنبي) وردّوا أنظارهم اليه ، وأدركوا أن هذا الثائر الشاعر النابغ سيكون له شأنٌ أي شأنٍ لو ترك غير مراقبٍ ولا مأخوذ عليه السبيلُ التي يبغي ، والامر الذي يهدّدُ به ، فأجمعوا على الإيقاع به حتى لا يستفحل أمرهُ ، ويتسع عليهم الخرقُ من قِبَله . فلا يملك له الراقعُ مرقعة

ورحل صاحبنا من (رأس عين) حيث مدح سيف الدولة متخذاً طريقه إلى الشام مارًّا بحران ثم منبج ثم أنطاكية واللاذقية وحماة وحمص وبعلبك ، وتردّد بين هذه المدن حتى قبض عليه . وكانت هذه البلاد نفسها منازل من منازل الدُّعاة العلويين الذين كانوا أصحاب سياسةٍ ودهاءٍ في دعوتهم إلى قلب الخلافة العباسية ، وإقامة الخلافة العلوية الخالصة ، وكانت الاعاجم في الشرقِ ، والموالي الذين بلغوا غاية السلطان في خدمة الخلافة العباسية يداً مع العلويين على الدولة العباسية ، وكانت هذه البلادُ أيضاً مجالاً للدُّعاة الفاطميين أصحاب الجيوش والسلطان بالمغربِ ، وكان هؤلاء الدعاة يسعون جهد السّعي لضمّ العلويين إليهم واستمالة الولاةِ على اختلافهم إلى مناصرتهم ليتمّ لهم دخول الشام دون معارضة بعد فتح مصر — وكانوا يعدّون له العدّة — ثم يقفوا وجهاً لوجهٍ حيال الدولة العباسية بالعراق ، وكان قد تمّ لهم أمرٌ عظيمٌ في ما وراء دجلة والفرات ، وبذلك تسقط الدولة العباسية ، وتقوم على انقاضها الدولة العلوية الفاطمية

وكأني بالمتنبي في طريقه يظهر في القبائل والمدن أمر نسبه ، ويذيع بينهم أنه علويّ الاصل شريف النسب ، محتالاً لذلك بالدهاء ، مجتهداً في اتخاذ العضد قبل أن يعلن أمره إعلاناً صريحاً لئلا يواقعه العلويّون وينزلوا به كيدهم الذي يكيدون له . دار دورته في البلادِ التي ذكرناها وأمرهُ الى علو لما عرف من فصاحته وبلاغته ، وحسن سمته ، وجمال هديه ، وتوقد ذكائه ، وما يمتاز به من حسن المعاشرة ، ولطيف المنادمة مع سعة العلم ، ودقة الفهم له ، وكان في القبائل البادية أظهر امراً ، وأشد عضداً ، حتى كان آخر أمره ببني عدي وبني كلب ، ففشا ذكره بينهم ، وبايعوه على العون له ، في الدعوة الى رد الحكومة الى العرب دون الاعاجم . وكان ظهوره في بني عدي هو الذي جلب عليه السجن والشقاء

ذلك أن بني عدي [1] هم قوم بني حمدان ، فكان ظهوره هناك ، ولقاؤه قبل ذلك سيف

---

(١) هم بنو عدي بن اسامة بن مالك بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن (تغلب) ، وينتهي الى عدي هذا نسب بني حمدان

الدولة ومدحه بني حمدان عامة — سبباً في تيقظ ولاة (محمد بن طفج الاخشيد) وكان على دمشق ، ولم يكن ظهر امره بمصر بعد ، وكانت بين بني حمدان والاخشيديين الاتراك المتعصبين للدولة العباسية ، عداوة جانبها المنافسة ، وكان سيف الدولة مخصوصاً بها وحده دون بني حمدان لما ظهر من قوته على صغر سنه ، وحبه في توسيع سلطان بني حمدان حتى يضم الشام وما يتبعها الى ولايته وولاية اخوته . فلا بد اذن للاخشيديين من مراقبة هذا الذي مدح بني حمدان ، وأحدث حدثاً في القبائل التي كانت لهم موالية ، خشية ان يكون موفداً من قبل سيف الدولة للقضاء على مطامع الاخشيديين في الاستيلاء على الشام ومصر

وأيضاً ، فان دعاة الفاطميين الذين كانوا بالشام نظروا الى ذلك ، وخافوا ان يكون موفداً من قبل سيف الدولة وبني حمدان ، وكان بنو حمدان قد استعصوا على الدعوة الفاطمية مع انهم كانوا من شيعة العلويين ، وامتناع بني حمدان على الدعوة الفاطمية كان هو السبب في مناصرتهم للخليفة العباسي وتحققهم بخدمته لما يعرفون من ان دعوة الفاطميين كانت قد ضمت اليها اكثر ولاة الاعاجم الذين كانوا يحكمون بلاد الخلافة ما وراء الفرات وفي العراق نفسه . وكان هذا هو السبب ايضاً في العداوة المتقدة بين بني بويه وبني حمدان فيما بعد وخاصة سيف الدولة ، فان بني بويه كانوا علويين فاطميين

فاجتمعت على المتنبي عيون الفاطميين ، وعيون العلويين ، وعيون الدولة القائمة في الشام فلما ظهر في بني عدي ارسلوا في القبض عليه ، فطاردوه من بلد الى بلد ، وكان يستخفي منهم ، حتى وقع اخيراً في يد (ابن علي الهاشمي العلوي) في قرية يقال لها كوتكين[1] ، فقبض عليه وأمر النجار بأن يجعل في رجليه وعنقه قرمتين من خشب الصفصاف فقال له المتنبي بيتين قد ذكرناهما آنفاً وبقي المتنبي في السجن من اواخر سنة ٣٢١ او اوائل سنة ٣٢٢ الى سنة ٣٢٣ ثم اطلق

وكان المتنبي في اول امره مستخِفّاً بالسجن ، لما يأمل من بلوغ خبره الى سيف الدولة ، فان بني عدي قوم سيف الدولة — كما يتوهم — لن يتركوه في ايدي هؤلاء الا ان يحملوا خبره الى بني حمدان فيخف بنو حمدان لنيتهم في دخول الشام . ولكن نية بني حمدان تأخرت طويلاً فان سيف الدولة لم يهدد اطراف الشام بعساكره الا بعد ذلك بزمن طويل

ومما يدل على استخفافه بالسجن في اول امره ما رووا من ان ابا دلف بن كنداج — سجانه — اهدى اليه هدية وهو معتقل بحمص ، وكان قد بلغه انه ثابه عند الوالي الذي اعتقله ، فكتب اليه

أهونْ بطولِ الثواء والتلف والسجن والقيدِ يا أبا دلفِ
(غير اختيارٍ قبلتُ برك بي) والجوع يرضي الاسود بالجيفِ

---

(١) لعلها كانت قريبة من (سلمية) وهي قرية من أعمال حمص

كن ايها السجن كيف شئت فقد وطنت للموت نفس معترف
لو كان سكناي فيك منقصةً لم يكن الدر ساكن الصدف

وفي هذه الابيات تقف كبرياؤه كما هي لم يأخذ منها عذاب السجن وشقاؤه شيئاً . حتى انه ليقول للذي يبره في سجنه (غير اختيار قبلت برك) ، ولو لا ما انا فيه من العذاب لرددت عليك هديتك غير حافل بك ولا بها . ثم ينتزع المثل على عادته (والجوع يرضي الاسود بالجيف) وهي سخرية حديدة مؤلمة

فلما طال عليه الامد في السجن لجأ الى الحيلة في الخروج منه ، فكتب الى ابن طغج يستعطفه ويفند ما رمي به من ارادة الخروج على السلطان فكان مما كتب

بيدي ايها الامير الاريب لا لشيء الاّ لاني غريب
او لام لها اذا ذكرتني دم قلب بدمع عين يذوب
(ان اكن قبل ان رأيتك اخطأ ت فاني على يديك اتوب
عائب عابني لديك ومنه خلقت في ذوي العيوب العيوب)

الاّ ان سعي الفاطميين والعلويين في ابقائه في السجن ، وما اشرنا اليه من خوف والي الشام من الحدث الذي احدثه ان يكون من قبل بني حمدان — لم يصغ اليه سمع الامير فبقي في سجنه الى سنة ٣٢٣ . وقد رويت له القصيدة التي كانت السبب في اطلاقه وفيها اشارة إلى كل هذا الذي ذكرنا لك ويحسن هنا ان نلم لك ببعضها لتتبيَّن ما أرخنا لك من التاريخ

يقول المتنبي يصف الامير

ولو لم أخفْ غير اعدائه عليه لبشرتُهُ بالخلود
رمى (حلباً) بنواصي الخيول وسمر يرقن دماً في الصعيد
وبيض مسافرة ما يُقمْنَ لا في الرقاب ولا في الغمود
يقدن الفناء غداة اللقاء إلى كل جيش كثير العديد
فولى بأشياعه (الخرشنيُّ) كشاء احس بزأر الاسود
فمن كالامير بن بنت الامير او من كآبائه في الجدود

والذي تنبها له هنا انه ذكر في هذه القصيدة (حلباً) و(الخرشني) وقد عينا بالبحث عن الحادثة التاريخية التي نستطيع بها ان نعيّن السنة التي قيلت فيها ، ثم وفقنا الله الى تفسير ذلك بالاستنباط . ففي جمادي الآخرة سنة ٣٢٢ سار الدُّمستق (قرقاش) في خمسين الفاً من الروم فنازل ملطية[1] وحصرها مدة طويلة حتى هلك اكثر اهلها بالجوع ثم فتحها وهدم سورها وقصورها

(١) بلدة مذكورة مشهورة في ديار ربيعة على حدود بلاد الروم في ذلك العهد

وضرب خيمتين على احداهما صليب ، وقال : من اراد النصرانية انحاز الى خيمة الصليب ليرد عليه اهله وماله ، ومن اراد الاسلام انحاز الى الخيمة الاخرى وله الامان على نفسه ، ويبلغه مأمنه . فانحاز اكثر المسلمين الى الخيمة التي عليها الصليب طمعاً في اهليهم واموالهم ، وسير مع الباقين بطريقاً يبلغهم مأمنهم، وفتحها بالامان . ثم ملكوا (سميساط) وخربوا الاعمال واكثروا القتل وفعلوا الافاعيل الشنيعة (وصار اكثر البلاد في ايديهم) ، وسكت المؤرخون.....وظاهر أن والي الشام وهو اذ ذاك محمد بن طغج الاخشيد لم يكن ليصبر على ذلك ، فلما امتد الدمستق بجيوشه وقصد حلب، خرج اليه هو او بعض من انفذه لقتاله فردّه عن التوغُّل وانقلب الدمستق هارباً ولم يدخلها . وقد جعلنا هذه الحادثة تاريخ القصيدة لانها توافق ما اثبتنا من تاريخ المتنبي ، ثم لما ذكر من امر حلب ، ثم لذكر هذا الخرشني . والخرشني ، هو ملك الروم لانهم ينسبون ملوك الروم الى جبل ببلادهم يقال (خرشنة) ، وتكون هذه القصيدة لذلك مما كتبه ابو الطيب الى محمد ابن طغج الاخشيد التركي في اواخر سنة ٣٢٢ او اوائل سنة ٣٢٣

واما قول المتنبي في هذه القصيدة يخاطب ابن طغج

وقيل عدوتُ على العالمين بين ولادي وبين القُعُودِ
فمالكَ تقبلُ زورَ الكلامِ وقدرُ الشهادة قدر الشُّهودِ
فلا تسمعنَّ من الكاشحين ولا تعبأنَّ (بعجل اليهودِ)
وكنْ فارقاً بين دعوى (أردتَ) ودعوى (فعلتَ) بشأوٍ بعيدِ

فقد ذكر في البيت الاول أنه وهو رضيع لم تتمَّ لهُ القوّة على الاستمساك في قعدته ، كان قد اتُّهم بالخروج على السلطان ، وهذا لم يحدث ولا شكَّ ، وإنما هو إشارة لما كتبنا عنه في نسبه من النكبة التي حلّت به وبجدته من نفي النسب العلوي الشريف عنه ، ومراقبة العلويين لجدته خوف أن يبدرَ منها ما لايحبون ، فجعل صاحبنا تلك المراقبة لنفسه—إذ لم يفعلوا بها ذلك إلاّ من أجل نسبته هو إلى العلويين . والبيت الثاني استعارةٌ لابن طغج إذ كان من أعداءِ العلويين في غير علانيةٍ ، وكان من أنصار العباسية فهو يقول لهُ : مالي أراك تقبل فيّ قول أعدائك وأعداء مواليك العباسيين ، وكان أولى بك أن تزن أقوالهم بما تزنهم به (فقدر الشهادة قدر الشهودِ)، فلا تسمع لهؤلاءِ الذين يضمرون العداوة (الكاشحين) . ثم وصل كلامهُ عن العلويين بذكر العلويين الفاطميين فقال (ولا تعبأنَّ بعجل(١) اليهود) ، وعجل اليهودِ كنايةٌ عن أحدِ دعاة الفاطميين الذين كانوا هناك بالشام . وتأويل ذلك أن العباسيين وكثيراً غيرهم حتى من العلويين أنفسهم

(١) قد حار الشراح في تفسير الكلمة ، وقلبوها على وجوه كثيرة لا تصح ، وهذا هو الوجه عندنا وهو الصواب ان شاء الله

(كبني حمدان) كانوا لا يعترفون بنسبة الفاطميين ويزعمون أنَّ جدَّهم كان يهوديًّا ، وأسلم ليدخل على الاسلام فاسد العقائد نكايةً . وآسدهم على ذلك أن الدعوة الفاطمية كانت دعوةً سرّيّة لها أصولٌ خاصةٌ ودرجاتٌ مرتبةٌ ، من درجة التلمذة إلى درجة داعي الدُّعاة ، ولكل درجةٍ من الدرجات تعليمٌ خاصٌّ ، ومرتبةٌ معروفة مقيّدة . فقول المتنبي (عجل اليهودِ) إشارة إلى ذلك

ولا أنسَ هنا أن أعودَ بالقارىء إلى بيت من أبياتٍ مضت في ذكر التنوخي وهو قول المتنبي يذكر التنوخيين

« أليس عجيباً أن بين بني أبٍ لنجلِ يهوديٍّ تدبُّ العقاربُ »

وقد تبين لنا بعد البحثِ في تواريخ العلويين أنَّ بعض الدعاة الفاطميين كان قد دخل اللاذقية (وهي من منازل تنوخ) وأدخل قسماً من التنوخيين في الدعوة الفاطمية وبذلك افترق التنوخيون فرقتين ، فرقة العلويين او الشيعة وفرقة الفاطميين ، وهذه الاخيرة هي التي خرج منها الدروز وهم تنوخيون . وفريق الدروز يتهمون من قديم بعبادة (العجل) ، وقد نفى ذلك كثير من الباحثين والله اعلم بحقيقة امرهم ، ولعل هذا هو السر في قول ابي الطيب (عجل اليهود) يشير بذلك الى الفاطميين ، وفي قوله (نجل يهودي) يريد داعي الفاطميين الذي قسم التنوخيين ، وضرب الاخوة بعضهم ببعض . وأما قوله :

وكن فارقاً بين دعوى (اردت) ودعوى (فعلت) بشأوٍ بعيد

فهو عندنا من الادلة في ان الامر الذي قبض على المتنبي من اجله لم يكن النبوة ، وانما هو الخروج على السلطان ، وأنت اذا قابت الدعويين « دعوى (اردت) ، ودعوى (فعلت) » على معنى النبوة لم يتم لك تساوق المعاني على ذلك ، وتم لك في معنى الخروج على السلطان هذا التساوق ، إذ ان ارادة الخروج شيءٌ ، والفعل الذي يسمى به الرجل (خارجاً) شيءٌ آخر ...

والظاهر عندنا ان السبب في اطلاق المتنبي من السجن لم يكن هذه القصيدة وحدها ، بل السبب البالغ في هذا الرضى عنه فيما نرجح ان بعض التنوخيين العلويين (غير الفاطميين) كانوا قد سعوْا عند ابن طغج لاطلاق المتنبي ، وذلك لصلتهم ببني حمدان واتفاقهم معهم في المذهب (العلوية) ، وأظهروا لابن طغج موالاتهم فرضي منهم بهذا وأكرمهم باطلاقه [1] ، ولكن العلويين الكوفيين سعوا من ناحية اخرى لدى الوالي ان لا يطلقه فأرضاهم بأن يأخذ عليه وثيقة تثبت بطلان دعواه في النسبة الى الشجرة العلوية الشريفة المكرمة . والذي حملنا على ان

(١) ولا بأس أيضاً في ان نذكر ان (بني عدي) وهم قوم سيف الدولة النازلين بأرض الشام ، كان لهم شأن في ذلك ، وارضاهم ابن طغج لما يخشى من انتقاضهم عليه اذا لم يبذل لهم الرضى في رجل قبض عليه عامله في ارضهم وكان في جوارهم

نظن ذلك من امر التوخيين ان المتنبي بعد خروجه من السجن مدح التوخيين وأخلص لهم ونزل عندهم ثم رجع الى الكوفة وبقي بها مدة ، فلما عاد في سنة ٣٢٦ رجع اليهم وبقي عندهم ومدحهم ايضاً وأجاد في مدحه لهم اجادة بينة ظاهرة ، وقد كان هذا الفتى وفياً الوفاً كما وصف نفسه وكان يأسره الاحسان ويغلبه على امره كثيراً ، وقد ظهر هذا الخلق في روعة المثل الذي ضربه يوماً ما فيما بعد وهو قوله « ومن وجد الاحسان قيداً تقيدا ».

***

وقد اكثر الكتاب من الاستشهاد بحادث حبس المتنبي وما كان منه فيه ، وزعموا انه كان متكبراً احمق الرأي ضعيف الارادة ، فدعته كبرياؤه أولَ اولّ الى الاستخفاف بالسجن ، ثم رجع فذلّ وانقاد واستخذى في قصيدته الاخيرة ، وليس هذا لنا برأي ، فان الابيات البائية التي ذكرناها لا تدلُ على ضعف وانما كان كما روينا لك مرهف الحسّ شاعر النّفس ، فلما بلغ جدته خبر حبسه كتبتْ اليه ، وذكرته بما فعل وهو بدار غربة ، وعذلته على ما كان منه وشكت اليه ألمها ، وكشفت له عن ذي قلبها ، فرقّ وبكى وكتب الابيات الاربعة على اثر ذلك وطبع عليها قلبه وحنانه ورقته ، لا ضعفه واستخذاءهُ ، ويكفي في الدلالة على بطلان رأيهم انه جعل البيت الرابع مهاجةً لجميع من ادّعى عليه واراد حبسه، وهجاءً بليغاً لهم ، وليس هذا من الحكمة، ان كان ممن يستخذي ويضعف . وذلك حيث يقول :

« عائب عابني لديك ، ومنه خلقت في ذوي العيوب العيوب »

ثم لما كتب قصيدته الاخرى الدالية ذكر اياتاً يزعمون انها تدلُ على مذهبهم في تقلب الرجل وهي قوله

أمالكِ رقي ومن شأنه هبات اللجين وعتق العبيدِ
دعوتك عند انقطاع الرجاء والموت مني كحبل الوريدِ
دعوتك لما براني البلاء وأوهن رجليّ ثقل الحديدِ
وقد كان مشيهما في النعال فقد صار مشيهما في القيودِ

ونحن لا نرى في هذه الابيات شيئاً لانه انما اراد — كما قلنا — ان يترفق لغرضه بالحيلة ، حتى يخلص من السجن ، اذ وجد ان لا جدوى عليه من الصّبر على السجن الذي يضيع الامل في تحقيق ما يريد من الانتقام من هؤلاء الذين فعلوا به ما فعلوا . والذي يدلُّ لا يقسو في الصفات هذه القسوة التي ابرزها المتنبي في اياته بعد — إذ وصف من كانوا معه في السجن متهكماً ساخراً على عادته فقال

وكنت من الناس في محفلٍ فها انا في محفلٍ من قرود

ثم يخاطب ابن طغج مخاطبة النّد فيسأله على وجه التقريع واللوم فيقول « فمالك تقبل زور الكلام ؟ » ثم ينهاه ناصحاً ومحذراً فيقول « فلا تسمعن من الكاشحين » ثم يأمره على وجه التعليم والتنبيه بقوله « وكن فارقاً » فهذا مذهب تعليميٌّ في الامر ، ينطوي على تبصير الامير — الذي يزعمونه يذلُّ له — بوجه الصواب من الرأي في التفريق بين الدعويين ، وتذكير له بانه اخطأ خطأً كبيراً بتركه التحقق من اصل الدعوى التي اقيمت عليه وتطبيقها على ماكان منه حقيقةً ، ولو كان فعل ذلك لبطل عند الامير ما يدّعون عليه ، وهذا كما ترى فيه معنى التجهيل للامير . ولا نظنّ ابن طغج كان يخطىء إدراك هذا البيان البين في شعر المتنبيّ ، ومع ذلك فقد أعفاهُ من هفوة اللسان وأطلقه اكراماً للتنوخيين فيما ذهبنا اليه ، وماكان من مدحه له في القصيدة مدحاً لم يظفرْ بمثله من شاعرٍ مثل المتنبي الشاعر البليغ العربيّ الشريف

فهذا كما ترى سياقٌ تاريخيٌّ لا بأس به — إن رأيت ذلك — في أمر القبض على أبي الطيب ولا ذكر فيه للنبوّة ، ولا يمكنُ أن يكون قبض عليه لهذا الهُراء الذي يزعمون ، وستعلم بعد أن الخالع حدثنا عن أبي الحسين الناشىء الشاعر أنه قال : « كنت بالكوفة في سنة ٣٢٥ وأنا أُملي شعري في المسجد الجامع بها ، والناس يكتبونه عني ، وكان المتنبي إذ ذاك يحضر معهم وهو بعد لم يعرف ولم يلقّب بالمتنبي . . . . » . وهذا دليلٌ على أن القبضَ عليه في سنة ٣٢١ لم يكن للنبوة إذ لو كان ذلك كذلك ، لتعالمه الناس بالكوفة التي نشأ بها ، ولأشار إلى ذلك الناشىء ، وكلام الناشىء يدلُّ على أن ذلك لقبٌ نُبِزَ به الرجل، ولم يكن بسبب هذه النكبة التي أصيب بها في سنة ٣٢١ ، أو الحدث الذي أحدثه في تلك السنة

وهناك سياقٌ آخر للتدليل على بطلان هذا الافتراء الذي رمي به الرجل ، نستنبطه من الاسلوب الشعريّ أولاً ، ومن الحالات النفسية القائمة في شعره ثانياً ، ومن الاصول التاريخية في أمر المتنبئين في ذلك العهد أخيراً ، ورأينا أن نضمر ذلك ولا نطيل به حتى نظهره في كتابنا — إن شاء الله — عن المتنبي ، وبالله التوفيق (١)

أما هذا النبزُ الذي نبز به أبو الطيب وعرف به إلى اليوم، فليس مرجعُهُ إلى هذا الخروج الذي كان منه في بني عدي ، فقبض عليه ، وألقي في السجن من جرائه ، بل له عندنا مساقٌ آخر هو أقرب إلى الصدق وأولى بالاعتبار

---

(١) اعتزانا تركنا أيضا في هذا الحديث عن رحلته وحبسه ما قال من شعر في مدح رجال لقيهم في طريقه للبلاد التي نزغا ، اذ ليس يغر هنا اغفال ذلك حتى حين ، ولئن فعلنا لم يكن ليتسع هذا العدد من المقتطف لما نريد وما نؤمل من استيفاء ترجمة الرجل على الوجه الذي نرتضيه ، ونقر عينا به

كان أبو الطيب من أول أمره متورعاً في خلقه لا يخرج من حدود الوقار ، متزمتاً لا يابن للشهوات ولا يلقي اليها مقاده ، مترفعاً عن سفاسف الاخلاق ، متمسكاً بمعاليها ، آخذاً نفسه بالجد الذي لا يفتر ، وكان لا يقرب التهم ولا يدانيها ، « فما كذب ولا زنا ولا لاط » ولا أتى أمراً منكراً يؤخذ عليه ، أو يزن به ، واستمر على ذلك حياته كلها ، وخالف الادباء والشعراء من أهل عصره ، فما شرب الخمر ولا حمل وزرها ، ولولا اضطراره فيما نرى لما حضر مجاسها ، وكان منصرفاً إلى العلم قارئاً له ومحققاً لدقائقه ، طويل النظر والتدبر فيما يمر به من أحداث الزمان كثير الاهتمام بأمر الامة التي هو منها ، لا يفوته مغمز ينتقده او خلق يستسقطه ، وكان اهل العصر على خلاف له في ذلك وخاصة من انتسب الى الادب ، واعتزى الى الشعر ، فكان الادباء والشعراء أهل شراب ومعاقرة ولهو وهزل وباطل ، لا يفرغون الى الجد الا بمقدار ، ولا يتورعون عن دنية الا مكرهين على الورع . فلا عجب إذا عده اهل صناعته من الادباء والشعراء غريباً بينهم

وكان المتنبي في اول شعره يكثر من ذكر الانبياء ويردد اسماءهم ويشبه نفسه بهم ، ويقيس اخلاق ممدوحيه الى اخلاقهم فمن ذلك قوله في نفسه

ما مقامي بأرض نخلة الا (كمقام المسيح بين اليهودِ)

وقوله في القصيدة نفسها

ان أكن معجباً فعجب عجيبٍ (لم يجد فوق نفسه من مزيدِ)
أنا ترب الندى ورب القوافي وسمام العدى وغيظ الحسودِ
أنا في أمة — تداركها اللــــه (غريب كصالح في ثمودِ)(١)

وقوله

« أنا الذي بين الاله به الـ أقدار والمرء حيثما جعله »

فشبه نفسه بالانبياء والرسل الذي ارسلهم الله ليكونوا شهداء على الناس

وقوله في رثاء التنوخي (محمد بن اسحق)

وكأنما (عيسى بن مريم) ذكره وكأن (عازر) شخصه المقبورُ

وكان ايضاً كثير الانذار للملوك والامراء بعذاب بئيس سيأتيهم من قبله كقوله

ميعاد كل رفيق الشفرتين غداً ومن عصى من ملوك العرب والعجمِ
فان اجابوا فما قصدي بها لهم وان تولوا فما ارضى لها بهمِ

(١) يروي ابن جني أن المتنبي قال : لقبت بالمتنبي بهذا البيت

فهذه امثلة مما تأثر في شعره من هذه المعاني ، وأنت إذا نفضت ديوانه وجدت في معانيه المعاني التي تنبئ بالغيب كقوله في بدر بن عمار

لو كان علمك بالاله مقسماً في الناس ما بعث الإله رسولا
لو كان لفظك فيهم ما انزل الـــفرقان والتوراة والانجيلا

ولا نطيل بذكر الشواهد في ذلك فهذا امر متعالم مشهور

وعندنا ان ابا الطيب لما عاد من الكوفة سنة ٣٢٦ واتصل سببه ببدر بن عمار ولزمه ، وعلا عنده ، واصاب كرامة لم يصب مثلها من قبل ، تناوشه الشعراء إذ خافوه على ارزاقهم ، وطفقوا يتنقصون الرجل ويطلبون له العيوب ، واغراهم بذلك ما وجدوا من ترفعه عن مجالس لهوهم ، وانصرافه عن الهزل الذي يكونون فيه ، وظنوا به الكبر ، فاخذوا يذكرون شعره ويتنادرون به ، فلما وقعوا على كثرة دوران اسماء الانبياء في هذا الشعر ، وتشبيهه نفسه بهم ، وما هو فيه من التعفف والتورع : أرادوا له لقباً ينبزونه به ، فلقبوه (المتنبي) يريدون المتشبه بالانبياء ، واخذوا يذكرونه بهذا الاسم . ويتداولونه بينهم . ثم استفاضت شهرته به لما اتصل بأبي العشائر سنة ٣٣٦ وصار لا يذكر الا به

وقد رأيت قبل ان القبض عليه كان سنة ٣٢٢ وان الناشئ قال ان ابا الطيب كان يحضر مجلسه سنة ٣٢٥ بالكوفة « وهو بعد لم يعرف ، ولم يلقب بالمتنبي » فتلقيبه بالمتني كان بعد سنة ٣٢٥ ولا شك كما رأيت ، وبذلك ينتفي ان يكون قد حبس من أجل دعوى النبوة . فلما علا امر المتنبي وظهر ، وخشي من خشي من العلويين ومن اليهم احدثوا من هذا النبز (المتنبي) — الذي قصد به التشبه بالانبياء في الخلق ، والوعيد والانذار ، وتشبيه نفسه بهم في شعره — قصة مخترعة عن نبوة زعموا ان الرجل ادعاها ، واعانهم على صوغها ما كان من امر حبسه حين اراد اظهار نسبته الى الشجرة العلوية المكرمة . فكانت هذه القصص التي نقضناها واظهرنا بطلانها

أَبَنِي أبينا ، نحنُ أهلُ منازلٍ
أبداً غُرابُ البينِ فيها ينعقُ
نبكي على الدنيا وما من معشرٍ
جمعتهم الدُّنيا فلم يتفرقوا
والمرءُ يأمل ، والحياةُ شهية ،
والشيبُ أوقرُ ، والشبيبة أنزقُ
ولقد بكيتُ على الشباب ، ولِمَّتي
مسودَّةٌ ، ولماء وجهيَ رونقُ

خرج ابو الطيب رحمه الله من سجنه وشقائه وعذابه مستمر النفس ، مكتهل القلب . فقد جرب احداث الزمان ، وما ابتلي به من النكبات التي عرقته في سجنه ، وما كيد به من اعدائه ، فانطوى على ما به غير جازع ولا شاكٍ ولا مستسلم ، وابتسم للدنيا وهو يضمر الغيظ عليها « ولكنه غيظ الاسير القد [1] » ، وكان يعمل في نفسه بما قال بعد

هوّن على بصرٍ ما شقَّ منظره ... فانما يَقظاتُ العين كالحلمِ
ولا تَشَكَّ الى خلق فتشمتَه ... شكوى الجريح الى الغربان والرخمِ
وكن على حذر للناس تستره ... ولا يغرُّك منه ثغر مبتسمِ

وإن صحَّ ما رأيناه في ترتيب شعره ، وما قلنا به من ان التنوخيين كانوا قد سعوا لدى ابن طغج في اطلاقه من سجنه ، فقد خرج صاحبنا من السجن ولحق بالتنوخيين باللاذقية وأقام عندهم وفي جوارهم ، وكانت صلته وثيقة بأبناء اسحق التنوخي (محمد والحسين) فلما مات محمد رثاه ، وقد قدمنا طرفاً من ذكر ما ورد في رثائه لهذا الرجل . ويبن في شعره الذي رثاه به ما كان يضمر له من الحب ، وما يفي له به من حسن صنيعه عنده . وأخلص بعد موت (محمد) الوفاءَ والمودةَ لاخيه (الحسين بن اسحق) ، ولكن صاحبنا لم يسلم هناك من الاعداء — اعدائه من العلويين والفاطميين والعباسيين فقد قصَّد بعض شعرائهم قصيدة في هجاء الحسين بن اسحق ونحلها ابا الطيب ، فكتب الحسين الى أبي الطيب يعاتبه ، فرد عليه جواب كتابه بأبيات يقول فيها، يعاتبه على تصديقه ما بلغه

(١) هو للمتنبي وأوله « وغيظ على الايام كالنار في الحشا » . والقد : القيد من الجلد

تطيع الحاسدين وأنتِ مرءٌ جعلت فداءه — وهمُ فدائي
وهاجي نفسه من لا يميّزْ كلامي من كلامهم الهراء
وإن من العجائب أن تراني فتعدلِ بي اقل من الهباء
وتنكر موتهم وأنا سهيلٌ طلعت بموت اولاد الزناء

ونحن نرى ان المتنبي اقام قليلاً في جوار الحسين ثم وافاه كتابٌ من جدته ، وقد كان بلغها خبر انطلاقه من السجن ، تبثه شوقها ، وتشكو له بثّها وحزنها وتعزم عليه في الرحلة اليها ، وتذكر له ما كان من امرها مع العلويين بالكوفة ، وانها ارضتهم ، واخذت على نفسها العهد ان يقلع ولدها عما تهوّر فيه من اراده اظهار نسبه ، وبينت له مغبّة ما ينوي من ذلك ، ووعظته بما اصابه من قبل في سجنه ، واحرجته في الحضور اليها ، فلم يجد قلب أبي الطيب بدًّا من الطاعة ، وكتم عزمه عن الحسين بن اسحق التنوخي ، ولكن عزمه لم يخف على صاحبه ، فأراده على المكث ، فأبدى ابو الطيب رأيه بالموافقة وأضمر الخلاف والرحلة عن اللاذقية الى الكوفة . . . وقد اشار الى ذلك في مدحه اذ يقول معرضاً بعزيمة البقاء ليصرف التنوخي عن ان يعوقه

لك الخير، غيري رام من غيرك الغنى ، وغيري بغير (اللاذقية) لاحقُ
هي الغرض الاقصى ، ورؤيتك المنى، ومنزلك الدنيا ، وأنت الخلائقُ

واتخذ صاحبنا الليل جملاً — كما قالوا — وانحدر الى الكوفة، وقد امتلأت نفسه بأحقاده وآلامه وآماله . وسار من بادية الى مدينة ، ومن مدينة الى بادية ، ينظر الى الفتن التي مزقت امته وأبلت جدتها ، وما داخلها من الانحلال والتفكك ، وما اصاب اخلاقها من السقوط والتسفل ، وما فعلت الدعوات السرية في نقض مجدها ، وتفريق كلمتها حتى فشلوا وذهبت ريحهم

وكانت هذه الفترة من حياة الرجل ، فترة نظر وبصر وتجربة ، وأوانَ تردُّد لا يدري ما هو فاعل ولا ما الله فاعل به. فقد رمى بنفسه الى الكوفة على غرر مرضاةً لجدته لا رغبةً منها في دخولها ، واخذته الوساوس فيما يراد به هناك بعد الذي كان منه بالشام من ارادته اظهار نسبته العلوية . وكان الثأر يغالبه على ترك النية والعودة إلى الشام، لولا ما يخاف على جدته من سوء فعله. فدخل الكوفة بهمه واحقاده وآلامه سنة ٣٢٣ أو في اواخرها على الارجح ، فلما استقرَّ بها رأى ورأت جدته إن ثورته ليست مما يجدي عليه شيئاً ثمَّ ، فانصرف الى مجالس الكوفة ومساجدها يشغل بطلب العلم نفسه عما يساورها ويهزُّ منها ، وكان لانصرافه هذا وإقباله على شيوخ الادب والدين والفلسفة وغيرها من علوم العصر اثراً كبيراً في تهذيب نهجه الشعريّ ، واستجمَّ بهدأة العلم قوة اخرى على الثورة والتقلقل بدتْ في شعره بعد مخرجه من الكوفة

رائعة مدوّية كأنما انفجرت في لسانه انفجار البركان في زلازل الارض

وكان المتنبي لسنته تلك (سنة ٣٢٣) عزباً لا يأوي الى سكن من النساء ، ولعلّ جدّته رأت ان تهدىء منه قليلاً بالزواج فزوّجته على غير رغبةٍ منه قريباً من سنة ٣٢٥ قبل خروجه من الكوفة ، وذلك لان المتنبي بعد مرجعه إلى الشام سنة ٣٢٦ ذكر لاول مرّة في شعره (الابوّة) . فما عرفناه من خلق أبي الطيب أنه كان إذا نزل بهِ أمرٌ أو جدّ في حياته جديد فسرعان ما يتلجلج ذلك في صدره ولا يستقرُّ حتى يشير اليه من شعره ، لكثرة ما تلد الحوادث في شاعرية هذا الرجل من المعاني والآراء ... قال أبو الطيب في قصيدة يمدح بها أبا أيوب أحمد ابن عمران قريباً من سنة ٣٣٢ يذكر المرأة

وترى — المروّةَ والفتوةَ والابوّ — ةَ فيَّ — كلُّ مليحةٍ ضرّاتها
هنّ الثلاث المانعاتي لذّتي في خلوتي لا الخوف من تبعاتها

ولعلّ ولدهُ هذا الذي ذكره في قوله (الابوة) هو (محسّدٌ) الذي ورد ذكره في خبرٍ مرويٍّ وهو بواسط سنة ٣٥٤ وفيه أنه أجاز شعراً أُنشد ، وورد ذكره أيضاً في مقتل المتنبي وأنه قتل معه . فلو فرضنا أنه قتل وهو في الثلاثين من عمره أو أقل لكان هذا التاريخ الذي حدّدناه لزواج المتنبي هو أقرب إلى الصواب إن شاء الله

وقد كان قرب المتنبي من جدّته الحازمة في الكوفة ، وتزوّدهِ من العلم هناك ، مما ملأه حكمة جديدة بدأت تستعلن في شعره الذي قاله بعد . هذا على انه — مقامَه بالكوفة — لم يمدح أحداً ولم يتعرض بشعره لمعروف ولا لمنكر، على كثرة الاحداث التي كانت في تلك السنوات ، وعلى شدة ما لقي من العنت وهو بين أظهر أعدائه أو أصحاب ثأره ، ولكنه كان متململاً من مقامه ، مضطرباً في عيشه . وكان أثر هذا التململ والاضطراب في نفسه المستحصدة القادرة على الكتمان والاتزان في بعض الاحايين — أن طفق يولّد هذا الشاعر معاني نفسهِ ويختار لها ألفاظها وينتقي عباراتها ، مدقّقاً ممحصاً مفتّشاً عن الكلام الموجز الذي يستطيع أن يضمر فيه ما يجيش في صدره ، ويعتلج في نفسه ، حتى استوى على طريقةٍ ممتدة من الاصول الشعرية التي بيناها في أول كلامنا إلى الغاية التي كان يرمي اليها ، ولذلك اختلف نهجه في الشعر الذي قاله بعد مخرجه من الكوفة عن نهجه الاول اختلافاً بيّناً، ولكنه لم ينقطع من الاستمداد من الاصل الاول الذي هو الطبيعة القائمة في النفس، والتي لا تتغير في أصلها وإن تغيرت في الصورة والصّيغ ومذهب البلاغة والافصاح

هذا وما من شكٍّ في أن الرواية عن هذه الفترة من حياة الرجل لم تأتنا بحديث يعلم به من امر ابي الطيب كثير ولا قليل . الا ما حدثناك به من انه كان يحضر مجلس الناشيء بالمسجد الجامع

بالكوفة سنة ٣٢٥ ليسمع منه شعره ويكتبه مع الكاتبين وكان لم يعرف بعد ولم يلقب بالمتنبي . الا ان صاحبنا في رثاء جدته سنة ٣٣٥ قد افصح عن السبب في فراقه الكوفة في هذه المرة بعض الافصاح ، وعرّض باشياء كانت وقعت له هناك . يقول[١]

ولو لم تكوني بنت اكرم والدٍ ... لكان أباكِ الضخمَ كونُكِ لي امّا

لئن لذّ يوم الشامتين بيومها ... لقد ولدتْ مني لانفهمُ رغما

(تغرّبَ لا مستعظماً غير نفسه ... ولا قابلاً الاّ لخالقه حكما)

(ولا سالكاً الاّ فؤاد عجاجةٍ ... ولا واجداً الاّ لمكرمةٍ طعما)

(يقولون لي: ما أنت في كل بلدة!! ... وما تبتغي ؟ ما أبتغي جلّ أن يُسمّى)

كأن بنيهم عالمون بأنني[٢] ... جلوبٌ اليهم من معادنه اليتما

وما الجمع بين الماء والنار في يدي ... بأصعب من أن أجمع الجدّ والفهما

(ولكنني مستنصرٌ بذُبابه ... ومرتكبٌ في كل حالٍ به الغشما)

(وجاعله يوم اللقاء تحيتي ... وإلاّ فلست السيد البطل القَرْما)

إذا فلّ عزمي عن مدًى خوف بعده ... فأبعد شيءٍ ممكنٌ لم يجد عزما

(وإني لمن قوم كأن نفوسهم ... بها أنفٌ أن تسكن اللحم والعظما)

(كذا أنا يادنيا إذا شئتِ فاذهبي ، ... ويانفس زيدي في كرائهها قُدْما)

(فلا عبرت بي ساعةٌ لا تُعزّني ... ولا صحبتني مهجةٌ تقبل الظلما)

قد بينا لك أولاً أن أبا الطيب بقوله لجدته في القصيدة « هبيني أخذت الثأر فيك من العدى » وقوله : « لئن لذّ يوم الشامتين بيومها » — إنما أراد (بالعدى) و (الشامتين) العلويين الذين أخفوا عنه نسبه — فيما ذهبنا اليه — ومنعوه الانتماءَ للدوحة العلوية المباركة ، فإذا تقرر عندك هذا وارتضيته ، وجدت أن قوله بعد ذلك

(تغرّب لا مستعظماً غير نفسه ... ولا قابلاً الاّ لخالقه حكما)

يدلُّ على ان هؤلاء العدى والشامتين بجدّته ، والذين منعوه من دخول الكوفة حين قصدها قبل وفاة جدته سنة ٣٣٥ — كانوا في تلك السنة التي فارق فيها الكوفة (٣٢٥) أو أوائل سنة ٣٢٦ قد أرادوه على خطّة خسف فأبى ابو الطيب ان يركبها ، وشمخ بنفسه ان يذلّ لاحد

---

(١) قد آثرنا ان ننقل لك الابيات جميعها في نظمها لتقرأها متدبراً فن نفس الشاعر وشعره ، الذي استنبطنا منه ما اوردناه هنا ، وفي نسبه هناك ، مما يتخذ دليلا على صحة ما نقول به

(٢) قوله (كأن بنيهم) دليل على أنه أراد قوماً باعيانهم ، ولولا ذلك لقال (كأن بنيها) يرجع الضمير الى الدنيا يعني الناس جميعاً كما قال بعد (كذا أنا يا دنيا) وهذا أسلوب من اساليب ابي الطيب في الاشارة الى اغراضه التي في نفسه والتي لا يريد التصريح بها ، وانما يجعلها اشارة لمن يريد افهامهم غرضه

من الناس ، او ان يقبل له حكماً يريد ان يجريه عليه وفيه المذلة والهوان وإهدار الكرامة ، واسقاط الفتوة والمروءة ، وآثر ان يخرج عن الكوفة مراغماً لهم ، مفضلاً آلام الغربة على الهوان في الوطن

ويبين من الشعر انهم كانوا يستضعفونه ، ويسفهون رأيه في ركوب الفلوات ، وتنقله بين البلدان بقولهم «ما انت في كل بلدة؟ » وقولهم « ما تبتغي؟ » بما تريد من فراق الكوفة ، تذرع الارض من بلد الى بلد . فكان جوابه ان ما يبتغيه اجل من ان يسميه لهم ، ثم استدرك على ذلك فزعم انهم انما يسألونه ويلحون عليه في استخراج ذات نفسه ومضمرها لخوفهم منه ، وانهم يعلمون أنه سيأتيهم بالذبح الذي يترك صغارهم ايتاماً ونساءهم ثكالى . وقد ابلغ في انذاره لهم بعد كما ترى في الابيات ، ورهبهم بما يكون منه ، وذكرهم بقومه ومحتدهم وحريتهم وقلة مبالاتهم بالمهالك طبيعة قائمة فيهم حتى ان نفوسهم لتكاد تكره البقاء في ابدانهم لما فيهم من الحرية والشرف

ثم افصح المتنبي عن الذي ارادوه به في قوله

فلا عبرتْ بي ساعةٌ لا تُعزني ولا صحبتي مهجةٌ تقبل الظُلْمَا

فكأن الذي كان منهم كان وضعاً من عزة نفسه ومهانة لها ، وانهم كانوا يريدون ان ينزلوا به ظلماً بيِّناً لا يقرُّ عليه حرٌّ ، وعندنا انهم ارادوا ان يرضوه برضيخة من المال تكون عليهم كالجزية له يأخذها منهم كلما حال الحول ، على ان يبقى بالكوفة ، ويرضى بما يريدون منه غير مخالف لهم ولا مظهر لهم عداوة ، وان شاء ان يمدحهم بشعره فعل ، وله عليهم ان يعطوه في مديحه لهم مثل الذي يحبى به من غيرهم اذا مدحه ، وكبر على أبي الطيب ان يرشى بالمال حتى يسكت عنهم ، ويقرَّ على ظلمهم له وضيمهم اياه ، وفي الارض سعة ومراد لمن شاء ان يكون عزيزاً مكرّماً

وخرج صاحبنا من الكوفة قاصداً الشام مرة اخرى ، ونزل على عليّ بن ابراهيم التنوخي

واحتمال الأذى — ورؤية جاني
ـه — غذاءٌ تَضْوَى به الاجسامُ
ذلَّ من يغبط الذليل بعيشٍ
رُبَّ عيش أخفُّ منه الحِمامَ
من يَهُنْ يسهلِ الهوان عليه
ما لجُرْحٍ بميِّت إيلامُ
أقراراً ألذُّ فوق شرارٍ ؟ !
ومَراماً أبغي وظلمي يُرامُ ؟ !

كان شعر ابي الطيب في اول امره كما حدَّثناك قد اختلط بألفاظ لا تستقر في الشعر، وقعت اليه من ألفاظ المتكلمين والمتفلسفة وأصحاب المنطق وأهل الجدل في الملل والنحل وغير ذلك، وكان اسلوبه يجري على طريقة هؤلاء في التوجيه والتقسيم، ثم في توليد المعاني الشعرية على طريقة اهل العصر في توليد معاني الجدل واللجاج لارادة الفلج في الخصومة لا تقرير الحق في القضاء والحكومة، وأتاه ذلك من قوة حافظته وكثرة دوران هذه العلوم في فكره، واشتغاله بالنظر فيها نظر المحقق المفكر، الا ان تفكيره لم يكن محضاً لهذه العلوم، بل كان في عقله الذي يفكر به، فكر الشاعر الذي يتسع بالعلوم ويمد بينها وبين طبيعته الشعرية اسباباً من الخيال. ولما عاد الى الكوفة سنة ٣٢٣ وهي مقر كثير من أئمة العلم والادب والشعر، ولزم مجالسهم سنتين او أشفَّ قليلاً، عملت هذه المجالس في تهذيب علمه الذي وقع عليه في الصغر، وعملتْ طبيعته الشعرية في هذه العلوم عملها، وكان له من الفراغ ما يكفيه للتفكير والاتساع في النظر والترجيح والتعديل بين علمه وبين طبيعته، ثم كان له من توقد ذهنه، واشتعال قوى نفسه الملتهبة بأحقادها وآلامها، ما يحمله على استخراج روائع المعاني التي توافق همه وألمه، وتوليد الآيات البيانية التي تتصل بما في قلبه وفكره، واجتباء العبارة التي تكون في ايجازها بمنزلة الرمز لما يدور في نفسه في المعاني المطولة

والآن وقد رجع صاحبنا الى الشام في جوار علي بن ابراهيم التنوخي سنة ٣٢٦ كان اول ما قال هذا الشعر الذي اوجزنا لك في صفته، دالا على مذهبه الجديد، وعلى تدرُّج حالته النفسية تدرجاً متوالياً متفاسحاً . . . يقول

أفكر في معاقرة المنايا … وقود الخيل مشرفة الهوادي
(زعيم للقنا الخطي عزمي … بسفك دم الحواضر والبوادي)
(الى كم ذا التخلف والتواني ! … وكم هذا التمادي في التمادي ! !
وشغل النفس عن طلب المعالي … ببيع الشعر في سوق الكساد ! !
وما ماضي الشباب بمسترد … ولا يوم يمر بمستعاد
متى لحظت بياض الشيب عيني … فقد وجدته منها في السواد
متى ما ازددت من بعد التناهي … فقد وقع انتقاصي في ازديادي

ثم يقول . . . بعد

(وما الغضب الطريف وإن تقوّى … بمنتصف من الكرم التلاد)
(فلا تغررك ألسنة موالٍ … تقلبهن أفئدة أعادي)
(وكن كالموت لا يرثي لباكٍ … بكى منه ، ويروى وهو صادي)
فإن الجرح ينغر[1] بعد حين … إذا كان البناء على فساد
وإن الماء يجري من جماد … وإن النار تخرج من زناد

. . . .

(أثرت أبا الحسين بمدح قوم … نزلت بهم فسرت بغير زاد)
وظنوني مدحتهم قديماً … وأنت بما مدحتهم مرادي
(وإني عنك بعد غدٍ لغادٍ … وقلبي عن فنائك غير غاد)
محبك حيثما اتجهت ركابي … وضيفك حيث كنت من البلاد

كان شعر صاحبنا في هذا الباب من القول — الى ما قبل هذه القصيدة شعراً قريباً لم تستخرجه فكرة عايمة مستوعبة لاحداث الزمن ، ولا نظرة مجرّبة نافذة في ضمير أخلاق الناس، ولم يكن يزيد على الدلالة على ما في نفس الفتى من السموّ ، وما في قلبه من كرم العنصر ، وما تبدي طبيعته الفتية من أصول الرجولة المستحكمة في طبعه وغريزته ، وما علا صدره من أسباب الحقد وطلب الثأر ، وما يكشف عن نيّته في إحداث حدث عظيم يجلب فيه على أعدائه بخيله وسيوفه حتى يديل لها من (دولة الخدم) الذين ملكوا على الناس أمرهم، وصرّفوهم في أهوائهم ، فذلك قوله في صباه . . . .[2]

(١) نغر الجرح بالغين (كفتح) اذا انفجر وسال منه الدم يقال جرح نغار على المبالغة . وفي رواية (ينفر) بالفاء يراد بها يتورم . والذي اثبتناه أجود معنى

(٢) قصدنا بجمع هذا الشعر هنا ان تنظر فيه بما يغنينا عن الاطالة في تفصيل الفروق بينه وبين شعره الذي قاله بعد خروجه من الكوفة سنة ٣٢٦

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم ... بين طعن القنا وخفق البنودِ
(فرؤوس الرماح أذهب للغيـــظ ، وأشفى لغلّ صدر الحقودِ
فاطلب العزّ في لظًى ، ودع الذل ولو كان في جنان الخلودِ
يقتل العاجز الجبان وقد يعجـــز عن قطع بخنق المولودِ
ويوقّى الفتى المِخَشّ وقد خوّ ... ض في ماء لبّةِ الصنديدِ

وقوله

ومن يبغ ما أبغي من المجد والعلى ... تساوَ المحابي عنده والمقاتلُ
ألا ليست الحاجات الاّ نفوسكم ... وليس لنا الاّ السيوف وسائلُ
فما وردت روح امرىءٍ روحه له ... ولا صدرت عن باخل وهو باخلُ
غثاثة عيشي ان تغثّ كرامتي ... وليس بغث ان تغثّ المآكلُ

وقوله

ليس التعلل بالآمال من أربي ... ولا القناعة بالاقلال من شيمي
ولا اظن بنات الدهر تتركني ... حتى تسدّ عليها طرقها هممي
لمِ الليالي التي أخنت على جِدَتي ... برقة الحال ، واعذرني ولا تلمِ
أرى أناساً ، ومحصولي على غنم ، ... وذكر جود ، ومحصولي على الكلمِ
وربّ مالٍ فقيراً من مروءته ... لم يثر منها كما أثرى من العدمِ

الى آخر القصيدة . وقد مضت منها ابيات

فتدبر النهجين في الشعر فضل تدبر تجد ما رسمنا لك واضحاً بيّناً ، وتر أثر هذه الرحلة الى الكوفة على ما بينا لك آنفاً مستعاناً غير خاف . فقد بدأ صاحبنا يفكر بما اكتسب من تجربة وما أفاد من علم ، ويدسُّ ما ألمَّ به من الاحداث في شعره منتزعاً للمثل ، وضارباً ببلاغته في مفصل الحكمة ، ونافذاً بألفاظه في مضمر اخلاق الناس حتى يكشف لك عنها الغطاء . فانظر ابن قوله اولاً « أرى اناساً ومحصولي على غنم .. » من قوله بعد

فلا تغررك ألسنة موالٍ ... تقلبهن أفئدة أعادي

فان الموضع الذي اخذ منه المعنيين واحد ، ولكنه كان في الاول غسيلاً محصوراً غير شامل ، وكان في الآخر منهما حكياً شاملاً متراميا نافذاً الى اصل طبيعة الكذب في هؤلاء الناس ممتدة من ضمائرهم الى ألسنتهم ، والسرُّ كل السر في نسبة تحريك اللسان الذي يظهر المودة والولاء

الى الفؤاد الذي يضمر البغي والعدوان والكذب والنفاق [(١)]

هذا، وقد بدأ ايضاً يصف في شعره ما وصلت اليه الامة العربية، اذ ملكتها الموالي من الترك والديلم وغيرهم ممن كانوا اول امرهم بمنزلة العبيد، وذلك مما استفاده في رحلته الى الكوفة، وما رآه في بلاد العربية. ولم يخل هذا مما يدور في نفسه، وما وقع له من المصائب والمكايد والحسد... يقول وهو يمدح علي بن ابراهيم التنوخي ايضاً حين نزل به سنة ٣٢٦ او كان ذلك في اول سنة ٣٢٧

(وانما الناس بالملوك وما تُفلح عُربٌ ملوكها عجم)
(بكل أرض وطئتها أمم تُرعى بعبد كأنها غنم)
يستخشن الخزّ حين يلمسه وكان يُبرى بظفره القلم
اني وإن لمت حاسديّ فما انكر أني عقوبة لهم
وكيف لا يحسد امرؤ علمٌ له على كل هامة قدم
يهابه أبسأ الرجال به وتتقي حد سيفه البهم
(كفانيَ الذمَّ انني رجل اكرم مال ملكته الكرم)
يجني الغني للئام — لو عقلوا — ما ليس يجني عليهم العدم
(هم لأموالهم ولسن لهم والعار يبقى، والجرح يلتئم)

ثم قوله في سنة ٣٢٧ في مدح المغيث بن علي بن بشر العجلي

أذاقني زمني بلوى شرقت بها لو ذاقها لبكى ما عاش وانتحبا

الابيات . . . . وقوله له ايضاً

فؤاد ما تسليه المدامُ (وعمرٌ مثل ما تهب اللئامُ)
(ودهر ناسه ناس صغار وإن كانت لهم جثث ضخام)
وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
(أرانب، غير انهم ملوك، مفتحة عيونهم، نيام)
(بأجسام يحرُّ القتل فيها وما أقرانها الا الطعام)

وأبياتاً اخرى . . . .

وكانت حكمة المتنبي وبلاغته في هذه الفترة آتية من قبل نظره في امر نفسه ودخيلتها وخاصتها، وما يحيط بها وما يؤثر فيها، ويثير من كوامنها وعواطفها، وثبتت فكرته على ذلك. وطفق يقلب الامور والاحداث في الدنيا كلها على امتداد نفسه واتساع قلبه وهمته، فانفجر بين جنبيه ينبوع الكلام المتدفق، وفيه من قوته ورجولته، ومن بيانه وفصاحته، ومن ثأره وعداوته، ومن تهكمه

(١) سيكون تفسير هذه الاسرار البيانية واستخلاص حالته النفسية منها في كتابنا عن المتنبي ان شاء الله ووفق

وسخريته . وخرج مديحه ايضاً عن نهجه الاول ، فصار أدق وأبلغ في أداء المعاني ، وتصوير الفكرة باللفظ المقارب ، وانقلب من مديح معروف مقلد ضعيف الى مديح لا يراد به الممدوح خاصةً ، وانما يريد به أفكاره هو فيمن يحق له أن يمدحهم ، فوقع في كلامه المبالغة . والمبالغة في شعر أبي الطيب ليست كالمبالغة في شعر غيره من الشعراء ، فهو اذا ذكر الممدوح وبالغ في صفته إنما يعطي الشعر حق نفسه من أفكاره في عظمة الرجال الذين عدِمهم في زمنه ، وكان يود أن يمدحهم بهذا الشعر ويحفظ لهم فيه صورةً حيّةً باللفظ الناطق البابغ

فأنت ترى أن نبوغ المتنبي إنما بدأ يتجلى ويتكشف حين أرغمته هماهم نفسه على استيعاب ما يحس به من العواطف المتباعدة والمتقاربة ، فكانت دراسة قلبه — ومعرفة دقائق ما يجزئُ فيه من الآلام ، ثم المعاني التي تتولد من هذه الآلام — أصلاً من الاصول العظيمة في نبوغه ، ثم في طبع شعره بطابع لا يخفى على ناظرٍ او متأمل ، ثم في هديه الى أن الشعر لا يكون شعراً الا حين يروى من معاني القلب ويستقي منها . ولهذا كانت إجادة المتنبي بالغةً أقصى غاياتها في شعره الذي قاله في تصوير رجال الحرب ، أو في رسم صور الحرب ، أو فيما كشف به عن ضميره الذي كان كحومة الوغى بغبارها ودمائها وقتلاها ، وقعقعة سلاحها ، وتداوي أصواتها ، والتماع أسنتها وحرابها . واستمر نبوغه أو أكثره على هذا الباب حتى كان اتصاله بسيف الدولة ، فبدأت هناك في قلبه معانٍ أُخرى (١) تفاسحت بها نفسه ورحبت فامتدت بلاغته وانبسط نبوغه على الحياة كلها فأخذ منها ثم أعطى حكمةً باقية وبياناً خالداً ، . . على أن هذه الحكمة وهذا البيان لم ينقطع استمدادها من نفسه ، وما رزىء به في حياته ، وما اصابه من أحداثٍ وأهوالٍ . ولو تدبرت لوجدت لكل حكمةٍ في شعره اصلاً تاريخيًّا في قلب هذا الشاعر الذي لم يكن قلبه ينسى شيئاً أو يفلته . وكأني به — وهو يقول البيت السائر والمثل الشرود — كانت تتراءى تحت عينيه ، ويدوّي في مسمعيه كل ما مر به مما أثر فيه ، فيقول البيتَ وفي كل لفظة منه سببٌ ممدود إلى ذكرى يذكرها أو فكرة يتخيلها . . . . . ولنضرب لك مثلاً قريباً نوجزه وعليك بسطه ، في الابيات التي وضعناها على رأس هذه الكلمة يقول . . .

« واحتمال الاذى — ورؤيةُ جانيــــهِ — غذاءٌ تضوى به الأَجسامُ »

فأين تجد الاصل التاريخي في هذا البيت؟ اصل المعنى الذي اراده الشاعر هو في قوله « واحتمال الاذى غذاء تضوى به الاجسام » ، ولو كان غير المتنبي لوقف عند هذا فهو تمام وكفاية ، ولكن المتنبي الذي (لم يكن قلبه ينسى شيئاً او يفلته)، والذي (كانت تتراءى تحت عينيه، ويدوّي في مسمعه كل ما مرّ به مما اثر فيه)، والذي كان قد احتمل اذى كثيراً من أهل وطنه بالكوفة كما

(١) هي معاني المرأة التي احبها ! !

مرٌّ بك ، والذي كان رجع الى الكوفة ، وحمل نفسه على معاشرة من آذوه وهضموه حقه ، وأقام بينهم مرغماً يراهم في كل خطرة بعينه وبخياله — زاد في المعنى وتممه ، واثبت فيه قلبه وعواطفه بقوله «ورؤية جانبه» فهذه الجملة المعطوفة المعترضة هي توقيع المتنبي على البيت . وهناك سرٌّ آخر في تسميته (احتمال الاذى) غذاء ليس هذا موضع تفصيله[1] ، وعلى هذا فقس بقية شعره وحكمته

وبعد . فقد شغلنا هذا عن تحرير القول في رحلته ومدخله الشام ... وقد روينا لك في اول هذا الباب ان المتنبي نزل الشام على علي بن ابراهيم التنوخي ، وأنشدناك ابياتاً من قصيدته التي مدحه بها وفيها يقول

(أَشرت أَبا الحسين بمدح قومٍ نزلتُ بهم فسرتُ بغير زاد)

وقد اختلفوا في قوله (أَشرت) أهي من الاشارة عليه بمدحهم فتكون (أَشَرْتَ) . او من الأَشَرَ وهو الفرح والطرب فتكون (أَشِرتُ) بإسناد الفرح الى نفسه . والرواية الاولى عندنا أرجح . والظاهر ان المتنبي لما قَدِم على عليّ هذا باللاذقية أشار عليه بأن ينحدر الى (طبرية) ليمدح رجلاً — لعله من العلويين او اشياعهم — فمدحه مُرْغَماً ولم يظفر منه بطائل ، فعاد الى عليٍّ من فوره وأنشدهُ هذه القصيدة ، ثم قصيدة اخرى وصرح فيها بذكر بحيرة طبرية ، وما لقي هناك من الادعياء (وهم الذين يدعون النسب الى علي رضوان الله عليه) ... فيقول لعليّ ... (والبحيرة التي يذكرها هي بحيرة طبرية المشهورة)

لولاك لم اتركِ البُحيرةَ ، والـــغورُ دفيءٌ ، وماؤها شَبِمُ
والموجُ مثل الفحول مزبدةً . . . .

. . . .
فهي كماويَّةٍ مطوَّقــةٍ جُرِّدَ عنها غشاؤها الأَدمُ
يشينها جريها على بلدٍ تشينه (الادعياء) و(القزَمُ)
أبا الحسين استمع فمدحكم بالفعل — قبل الكلام — منتظم

ووصف البحيرة وصفاً رائعاً لم يدع لها عيباً الا عيبها انها تجري على ارضٍ تطؤها اقدام هؤلاء الادعياء من العلويين واللئام ممن ذكرهم في قوله (القزَم) . ولو رجعت قليلاً الى ما كنا حدثناك من إرصاد العلويين له بكفر عاقب (وهي بقرب طبرية) في سنة ٣٣٦ بعد ذلك ، وجدت ان الذين قصدهم بقوله « اشرت أبا الحسين بمدح قومٍ » هم من العلويين ايضاً ، ولعلهم هم الذين

---

(١) اذا قرأت المتنبي على هذا الاصل ، لم تجد الشاعر الذي يذكره الناس ملء الافواه ، بل تجد شاعراً فذّاً لم يرزق الشعر ولا الحكمة مثله ذا لسان وبيان . وسنفرد في كتابنا باباً كبيراً لبيان هذا الاصل في شعر المتنبي ، وتفسير اكثر شعره على هذا المذهب

انتهوا الفرصة حين نزل عندهم ليقتلوه ففاتهم برحلته الى الرملة في جوار ابي محمد بن طغج

وهذا الكيد الذي لقيه ببحيرة طبرية في سنة ٣٢٦، وما قاساه من مدح الذين اشار عليه بمدحهم عليّ بن ابراهيم، زلزل نفس الشاعر وهزه هزة رابية قذفت بحممه الشعرية البركانية التي رويناها لك اولاً، ونجد فيه اثر ذلك بيناً كقوله

اني وان لمت حاسدي فما انكر اني عقوبة لهمُ
وكيف لايحسَد امرؤٌ علم (له على كل هامة قدمُ)

وبينٌ ان علي بن ابراهيم لم يكن ليقبل من شاعر ان يمدحه ويقول في مدحه له يصف نفسه بأن له «على كل هامة قدم» الاّ ان يعلم ما دفع الشاعر الى اخراج هذا القول. وقد تحمل هذا عليّ لابي الطيب إذ كان هو الذي اشار عليه بمدح عدو من اعدائه، وزيّن له الرحلة اليه. وهو يعلم ما في نفس ابي الطيب لقوم هذا الممدوح او هؤلاء الممدوحين. وبقي ابو الطيب قليلاً في جوار علي التوخي ومدحه ثم قال له في مدحه يودعه ويذكر نيته في الفراق

واني عنك (بعد غد لغاد) وقلبي عن فنائك غير غادي
محبك حيثما اتجهت ركابي وضيفك حيث كنت (من البلاد)

وخرج من اللاذقية قاصداً حلب ولكنه لم يبق بها طويلاً بل قصد قَصْدَ انطاكية حين نزلها المغيث بن علي بن بشر العجليّ فمدحه وذلك حيث يقول له

لما أقمت (بأنطاكية) اختلفت اليَّ بالخبر الرُّكبان في حلَبا
فسرت نحوك لا ألوى على أحد أحثُّ راحلتيَّ الفقر والادبَا
أذاقني زمني بلوى شرقت بها . . . .

وكان ما لقيه ابو الطيب بطبرية لا يزال يهد منه، ويعتلج في قلبه وصدره، فكان شعره في هذه الفترة شعر الثائر المفكر المتأمل، وقد كشف عن ذلك في قوله مثلاً

فالموت أعذر لي، والصبر أجمل بي، والبر أوسع، والدنيا لمن غلبَا

وفي قوله (والبرُّ أوسع) سرُّ تقلقله بين بلاد كثيرة في فترة وجيزة، فانه كان يريد أن ينال نيلاً عظيماً بكثرة التجوال، حتى اذا ما جمع ما يريد استطاع ان يفعل ما قال وما أنذر بقوله «والدنيا لمن غلبا»...وكانت قصيدته الثانية في مدح المغيث بن بشر أروع من الاولى، وأكثر إفصاحاً عن نفسية الشاعر في تلك الفترة، فانه كان قد هدأ واستجمَّ من وعثاء السفر، ووجد الوقت كافياً، والقول ذا سعة، فقال كاشفاً عن ضميره، ومصرِّحاً بآرائه في الابيات التي ذكرناها وأولها

فؤادٌ ما تسلّيه المدامُ (وعمرٌ مثل ما تهبُ اللئامُ)

وفي هذه القصيدة (غير الابيات التي مرت آنفاً) إشاراتٌ عجيبةٌ الى مافي نفسه كقوله في المغيث

تلذُّ له المروءة وهي تؤذي ومن يعشق يلذُّ له الغرامُ

فقوله (وهي تؤذي) هو توقيع المتنبي على البيت كما ذكرنا ، إذ كان الرجل لا يرى في عصره مروءة الاّ وقد احتوشتها اللئام بالسوء من القول والفعل ، ويخص نفسه بذلك إذ كان هو صاحب المروءة التي لقي بها و بفعالها أذًى كثيراً من أعدائه والحاسديه والناظرين اليه وكقوله أيضاً

وقبض نواله شـرفٌ وعزٌّ (وقبض نوال بعض القوم ذامُ)

فهو يغرق بهذا الشطر الاخير من أرادوا أن ينيلوه نيلاً فعفّ وأبى ، وآثر الفقر على أن يقبل من نوالهم شيئاً كما مرّ بك فيما فرضناه في مسألة دخوله الكوفة في الباب السابق

ثم رحل المغيث عن أنطاكية لتوّه فانه لم يكن من اهلها — كما قال —

وليست من مواطنه ولكن يمر بـها كما مرّ الغمامُ

فالتفت أبو الطيب فلم يجد من يمدحه الاّ القاضي ابا الفرج احمد بن الحسين المالكي ثم عليّ ابن منصور الحاجب وعمر بن سليمان الشرابيّ — وهو يومئذٍ يتولى الفداء بين الروم والعرب — وليس في مدحه لهم شيء يذكر مما يدل على أن الرجل كان قد ملّ فهو يقول ليكتسب ما يقوته ويقوت أهله ثم ضاق بهم ذرعاً ، وضاق ذرعاً بما يكاد به ، فعزم الرحلة إلى حمص ولبنان فمر في طريقه بالفراديس من أرض قنسرين وهي التي فيها (حمص) فسمع زئير الاسد فقال

أجارك يا أسدَ الفراديسِ مكرمُ ؟ فتسكن نفسي ، أم مُهانٌ فمسلَمُ)
(ورائي وقدامي عداةٌ كثيرةٌ أحاذر من لصٍّ، ومنك ، ومنهمُ
(فهل لك في حلفي على ما أريده فاني بأسباب المعيشة أعلمُ)
إذاً لأتاكِ الرزق من كلّ وجهةٍ وأثريتِ مما تغنمينَ وأغنمُ

وفي خطاب ابي الطيب للاسد في هذه الابيات يتجلى كل ضميره ، وما فيه من آثار العداوة، وما فيه من المطالب والامانيّ ، وهي تدل دلالة بينة على ان الرجل كان قد ملّ من مدحهم، وأراد ان يجد منفذاً ينفذ منه الى تحقيق آماله وآرابه في إدراك ثأره من عداته ، واصلاح ما أفسد الحكم القائم في البلاد العربية ، وكان يودُّ ان يلقى الرجل الذي يعينه ويستعين به على أغراضه ويكشف له عن ضمير نفسه . فكان مدحه هو المقدمة للاتصال والاختبار ان يجد عند احدٍ ما يؤمل، فمدح في طريقه الانطاكي عبد الرحمن بن المبارك ، ولكنه لم يجد لديه شيئاً، فقصد الى لبنان في جوار الكاتب ابي علي هرون بن عبد العزيز الاوراجي وبقي عنده ومدحه مدحاً عظيماً ولكن الرجل لم يكن عند ظن ابي الطيب ، فأقام عنده يستجمُّ من مشقة السفر في ربى لبنان ، يصطاد ويطرد ويغترف من ينبوع الجمال الذي أنبطه الله في تلك البلاد

ومهمهٍ جُبْتُه على قدمي
تَعجِز عنه العرامس الذلُل
بصارمي مرتدٍ ، بمَخْبرتي
مجتزئٌ ، بالظلام مشتمل
إذا صديقٌ نَكِرتُ جانبه
لم تُعيني في فراقه الحيلُ
في سَعَة الخافقين مضطربٌ
وفي بلادٍ من أُختها بدَلُ

كان لهذا الاضطراب والملل الذي استشعره أبو الطيب في رحلاته في البلاد التي أوجزنا لك رسمها، اثر كبير في قلبه الموجع المتأمل . وكانت ايام الهدوء والراحة التي اهتبلها من غفلة الزمن قد جددت معاني قلبه ، ورمت في فؤاده بالحطب الذي يوقد به ناره ، فلما ملَّ الاوراجي ولم يجد منه شيئاً ولا عزماً ، وكان ابو الحسين بدر بن عمار بن اسماعيل الاسدي قد صعد الى طبرية من قبل ابي بكر محمد بن رائق ليتولى حربها اي قيادة جيشها وحمايتها في سنة ٣٢٨ —وكان ابو الحسين فيما نظن عربيًّا ماضياً كالسيف ، حلو الشمائل سمحاً ، قريب المذهب من ابي الطيب في بغضاء العجم ، لما انزلوه بالدولة من التفرقة والتمزيق—قصده ابو الطيب فرحاً كأنما وجد فيه ما اراد من الفكرة والسطوة والسلطان والقوة ، والرجولة الفذة التي ابدع ابو الطيب في صفها بعدُ حين اعجب بها وفتن . وكانت اول قصيدة مدح بها تدل على ما ادرك ابا الطيب من الفرح والنشوة ، وانتظار الفرج على يديه

أحلماً نرى ، أم زماناً جديدا　　أمِ الخلق في شخص حيٍّ أُعيدا ؟ !
تجلى لنا فأضأنا به　　كأنا نجومٌ لقين سعودا

فقد جمع ابو الطيب في هذين البيتين كل عاطفة ينبض بها قلبه ، وما استثارها من الفرح بهذا العربي الذي

تعرف في عينه حقائقه　　كأنه بالذكاء مكتحلُ
(أُشفق عند اتقاد فكرته　　—عليه منها — أخاف يشتعل)

وبقي المتنبي في جوار بدر وفي مجالسه (وفي عربيته) من أواخر سنة ٣٢٨ الى اوائل سنة ٣٣٣ على وجه التقريب لا على التحقيق، وكأنه كان قد أحب الرجل حبّا عظيماً لما رى من مروءته وفتوته ورجولته. والظاهر ان بدراً قد وجد في نفسه لابي الطيب مثل ما وجد له، فأعان ذلك الشاعرَ على ان يتفتح ويجيد ويبدع، فان مدائحه لبدر تكاد تكون في الطبقة الثانية من جيد شعره، وفيها ابيات في الطبقة الاولى من الشعر العربي كله. وقد بدأ نهجه ايضاً يتغير ويتميز بألوان وآيات. ولا عجب، فقد مارس الرجل الحياة بشاعريته، وتلقّف من الدنيا عبرها وحكمها، وسمع منها وحفظ عنها، وأعمل فيها ذهنه المتوقد، وأرساها إلى قلبه ليفتنها بناره، ويصوغها في بيانه الذي وصفناه أولاً، ثم زين بها كلامه. ولم يكن طوال هذه السنين يدع استيعاب الكتب والآراء ونقدها، والتبصر في أعقابها واطرافها. وأيضاً فانه كان قد بدأ يستحكم بفعل طبيعة الحياة البشرية فقد شارف الثلاثين، وامتلأ شبابه بقوته وفتوته ورجولته، وعبّ قلبه بآلامه وأحقاده وآماله التي كان يجاهد فيها ويسعى لها ليحققها. وأيضاً فإن الأمل في إدراك الطلب، وبلوغ الامنية والظفر بها، وقرب تحقق الفلج على الخصوم، مما يشعل القلب ويزيد النفس مضاءً ونفاذاً. وقد كان له ذلك كله في جوار صاحبه وحبيبه بدر بن عمار الاسدي العربي الذكي الفؤاد، فاتخذ أبو الطيب سبيله في الشعر عجبا، واستقام على طريقته، ومضى على غلوائه، ورمى الدنيا بعينَي نسرٍ كاسرٍ يتلو فريسته أن تفرّ منه، وزاده علوًّا ما وجد من حماية بدر له في طبرية موطن أعدائه كما حدثناك، وأورى زناده مالقي من عداوة بعض الشعراء له، وما سعى به الوشاة المفسدون لدى بدر بن عمار ليقلبوا عليه قلبه. ومثل أبي الطيب اذا أريد به الشرّ انتفض انتفاضة الاسد اذا رامه عدوّ، وفي انتفاضته تقذّف قوته كلها على لسانه البليغ المبين، وذلك لقوة أعصابه، وشدة توترها، وسرعة تأثرها مع ذلك

وفي جوار بدر بن عمار الاسديّ بدأت عصبية أبي الطيب للعرب والعربية تسفر عن وجهٍ، وتجلو عن نفس الشاعر ظلمات قد ضربت عليها حجابها، وهيّأت شاعريته لما يستقبله لدى سيف الدولة العدوي العربيّ هازمِ الروم، وقامع الدسائس الفاطمية بالشام وبعض العراق. وبذلك كله كانت هذه الفترة من ترتيب الزمن في تكوين الشاعر الاكبر تطريقاً وتمهيداً للنبوغ الفذ الذي استودعه الله في قلب هذا الشاعر وفكره وأدبه وقوته وحقده وثأره والعصر الذي عاش بين اهله مبتلًى بمعاشرتهم . . . او كما قال في آخر عمره يعني نفسه

وقتٌ يضيع، وعمرٌ ... ليت مدته في غير أمته من سالف الأممِ ! !
أتى الزمانَ بنوه في شبيبته فسرّهم ... وأتيناه على الهرَمِ ! !

وقوله يعني أهل عصره

وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرَّغامُ
ودهرٌ ناسه ناسٌ صغارٌ وان كانت لهم جثث ضخامُ

أحب ابو الطيب بدرَ بن عمار، واحبه بدرٌ واكرمه ورفعه اليه وعزّره، ونصره على اعدائه من العلويين او اشياعهم بطبرية وما جاورها، ووجد كلاهما في صاحبه ملجأً يأوي اليه، فقد كان ابو الطيب مهضوماً مطارداً. وكان قلبه ممتلئاً من آثار الظلم التي اوقعها جبابرة العصر بالعرب، وكان فكره متتبعاً لدهاء دهاة السياسة الذي كانوا يعملون على قلب الدولة او تمزيق شملها بالشعوبية العجمية البغيضة المبغّضة اليه، وكان يرمي ببصره فلا يجد العربيّ الذي يأوي اليه، فان وجده فبينه وبينه أهوالٌ. فلما وجد بدراً، ووجد في قلبه وفكره مثل الذي في قلبه وفكره، توقّد الرجل الشاعر توقّد النار المستعرة قد وجدت طعامها من الحطب

وبدأ يصف بدراً العربيّ الشجاع المحارب، ويصف الحرب، ويصف كل قوة او مثلاً من قوة، ويبدع في ذلك كله مستمدًّا من قلبه الجريء، وخياله المتسامي الى أشراف السلطان والغلبة، حتى خرجت مدائحه في بدرٍ آيةً في دقّة التصوير، وسموّ المعنى، وشرف الغاية... يقول في صفة بدر

(هان على قلبه الزمان، فما يَبين فيه غمٌّ ولا جذلُ)
يكاد من طاعة الحِمام له، يقتل من ما دنا له الأجلُ
يكاد من صحة العزيمة، ما يفعل قبل الفعال ينفعلُ
(تعرف في عينيه حقائقه كأنه بالذكاء مكتحلُ)
(أشفق ــ عند اتقاد فكرته ــ عليه منها، أخاف يشتعلُ)
(أغرُّ ــ أعداؤه اذا سلموا بالهرب ــ استكبروا الذي فعلوا)
يقبِّلهُمْ وجهَ كلِّ سابحةٍ أربعها ــ قبل طرفها ــ تصلُ

. . . . . .

والطعن شزرٌ، والارض واجفةٌ كأنما في فؤادها وَهَلُ
قد صبغت خدّها الدماءُ كما يصبغ خدَّ الخريدة الخجلُ

. . . . . .

(يا بدرُ، يا بحرُ، يا غمامةُ، يا ليثَ الشرى، يا حِمامُ، يا رجلُ
ان البنان الذي تقلّبه عندك، في كل موضع مثلُ
(انك من معشر اذا وهبوا ما دون أعمارهم فقد بخلوا)
(قلوبهم، في مضاء ما امتشقوا، قاماتهم، في تمام ما اعتقلوا)

(مثلك يا بدر لا يكون ، ولا تصلح ـ الا لمثلك ـ الدول)

ومن تدبر هذا النهج في المديح ، ورجع الى مدائحه الاولى ، ولم يخل فكره مما ذكرناه في اول هذا الباب ، وجد في هذا الشعر عاطفة الشاعر الذي عطفته على بدر ، وعرف ان هذا الشعر ليس مديحاً كالذي تلوكه الالسنة ، وينقده نقاد عصرنا هذا ، بل هو تصوير الرجولة وابرازها في ألفاظها الحية ، وتفصيل مميزاتها عند الشاعر ، ووجد ايضاً صدقاً في ذلك كله ليس لشعر، ولا لشعر ابي الطيب نفسه فيما سبق من مدائحه ، وهذا موضع للتدبُّر والتأمُّل ، فتدبّره وتأمله[1] ... وتأمل قوله « يا بدر، يا بحر. . . » فقد ناداه باسمه، ثم بصفة صفة من بعض صفاته، فلما امتد في الصفات الى كل غاية ، ووجد انها مما لا يفرغ منه، ضمن كل المعاني التي في نفسه من صفة بدر في لفظ واحد هو قوله « يا رجل » فقد كانت كل صفات صاحبه هي الرجولة ، تحتها كل كريمة من معاني النفس من مروءة وهمة وشجاعة وسماحة وسناء

وكان المتنبي — في عشرته لابن عمار — قد بدأ يفسح في شعره مجالاً لاحساسه القويّ بالجمال القويّ المشبوب ، معبّراً عنه بالعبارة المرسلة من قلبه القوي المشبوب، فكانت قصيدته في وصف الاسد والمقابلة بينه وبين بدر وأسديّته وقوته رائعةً قليلة المثل ، مفردة من بين الشعر العالي ، اجتمعت له فيها الحكمة السهلة ، والبيان المشرق النديّ ، والخيال الجامع المقدَّر المبدع، والاختيار الصافي للصفات المميزة التي تجعلك تقرأ صفة ما يصف وكأنك تراه ماثلاً بين عينيك . ولا بأس من ان نورد لك بعض ذلك على سبيل المثل هنا ، اذ كانت هذه الطريقة الشعرية قد بدأت عند الرجل ثم استحكمت فيه حتى بلغت اقصى غاياتها من شعره الذي قاله في سيف الدولة بعدُ

قالوا . . . خرج بدر بن عمار الى اسد فهرب الاسد منه ، وكان قد خرج قبله الى اسد آخر — كان يقطع طريق السابلة ، ويلحق بهم اذى كثيراً — فهاجه عن بقرة افترسها بعد ان شبع وثقل، فوثب الى كفل فرسه فأعجله عن استلال سيفه ، فبادره بالسوط يضربه حتى مرّغه في التراب ... فقال

أمعفّرَ الليث الهزَبْرِ بسوطهِ ! لمن ادّخرتَ الصارمَ المصقولاَ ؟
وقعتْ على الأردنّ منه بليّة ، نُضِدتْ بها هام الرفاق تلولاَ
وردٌ ، اذا ورد البحيرة شارباً ، ورد الفرات زئيرُه والنيلاَ
(متخضّب بدم الفوارس لابس في غيله من لبدتيه غيلاً)

---

(١) ليس فيما بقي لدينا من (المقتطف) سعة حتى نشرح هذا ، فنسأل القارىء ان يعيننا بذكائه وفطنته وأدبه ، فان غمض عليه شيء ، فليراسلنا بعنواننا ، ليتسنى لنا أن نوفي أبا الطيب حقه في كتابنا ان شاء الله ونرضي القارىء بما يريد وبالله التوفيق

(ما قوبلت عيناه الاّ ظُنَّتا ـ تحت الدجى ـ نار الفريق حلولاَ)
(في وحدة الرهبان، الاّ انه لا يعرف التحريم والتحليلا)
(يطأ الثرى مترفقاً، من تيهه، فكأنه آسٍ يجسُّ عليلاَ)
(ويردُّ عُفرته الى يافوخه حتى تصير لرأسه إكليلاَ)
(وتظنه مما يزمجر، نفسُه عنها — لشدة غيظه — مشغولاَ)
(قصرت مخافته الخطى، فكأنما ركب الكميُّ جواده مشكولاَ)
(ألقى فريسته، وبربر دونها، وقربت قرباً خاله تطفيلاَ)
فتشابه الخلقان — في اقدامه — وتخالفا في بذلك المأكولاَ
(أسد يرى عضويه فيك كليهما : متْناً أزلَّ، وساعداً مفتولاَ)

. . . .

(ما زال يجمع نفسه في زَوْره حتى حسبت العرض منه الطولاَ)
(ويدقُّ بالصدر الحجارَ، كأنه يبغي الى ما في الحضيض سبيلاَ)
وكأنه غرّته عينٌ، فادّنى، لا يبصر الخطب الجليل جليلاَ
(أنفُ الكريم ـ من الدنيّة ـ تاركٌ في عينه العدد الكثير قليلاَ)
(والعار مضاضٌ، وليس بخائف من حتفه، من خاف مما قيلاَ)
(سبق التقاءَكهُ بوثبة هاجم لو لم تصادمه لجازك ميلاَ)
خذلته قوته، وقد كافحته فاستنصر التسليم والتجديلاَ
قبضت منيته يديه وعنقه فكأنما صادفته مغلولاَ
سمع ابن عمته به، وبحاله، فنجا يهرول أمس منك مهولاَ
(وأمرُّ مما فر منه فراره وكقتله ان لا يموت قتيلاَ)
(تلَفُ الذي اتخذ الجراءة خُلَّةً وعظ الذي اتخذ الفرار خليلاَ)

فهذا شعر لو ذهبت أبينه وأفصله وأجلوه لما أعانتني (الوريقات) ولا وسعتني، وفيما رسمته في طريق كلامي عن شاعرية الرجل كفايةٌ لو تدبرت. وقد أثبتنا لك كثيراً من القصيدة اللامية السالفة، ثم هذه في وصف الاسد، لان هاتين القصيدتين هما (نقطة الانقلاب) — كما يقولون — في شاعرية ابي الطيب من النهج الاول الى النهج الثاني الذي لزمه وسار في دربه، وتميز به. ففي هاتين تجد ابا الطيب فتىً وكهلاً وشيخاً. ولو قستهما الى ما يأتي بعد من شعره لوجدت أن الرجل قد بدأ يستمر مريره بدءاً من هذه السنوات التي أقامها عند بدر بن عمار من سنة ٣٢٨، وفيهما أيضاً الاصول النفسية والشعرية والبيانية التي مددنا لك اطرافاً منها في ثنيات القول

ولا بدّ هنا من الاشارة الى موضعٍ يكثر مورده في شعر ابي الطيب ، ذلك ان الرجل لاستحكام أصل الرجولة والمروءة والفتوة في نفسه غير مدّعٍ ولا متمثل — كان اذا رأى ما يخالف الرجولة ويحطّ منها ، اهتزّت نفسه واشمأزّ ، وأبدى ازدراءه واحتقاره ، فهو يحب من عدوه أن يستمسك بعروة الرجولة في اللقاء والهزيمة والنصر كما يحب ذلك من نفسه . . . فحين فرّ الاسد الثاني الذي ذكره من بدر بن عمار بعد هزيمة (ابن عمته)، استدعى ذلك احتقار ابي الطيب له ، فثارت رجولته كلها لهذا الفرار القبيح من اسدٍ هو الاسد ، فضمن شعره هذا المعنى من الازدراء والسخرية به حيث يقول

« سمع (ابن عمته) به وبحاله فنجا يهرْول أمس منك مهولا »

« وأمرُّ مما فرَّ منه فراره وكقتله أن لا يموت قتيلا »

فمن ألوان السخرية والتهكم والازدراء لهذا الاسد الجبان ، انه حين وصف فراره جعله (هرولة)، والهرولة حالةٌ بين المشي والعدو، فهو من خوفه واضطرابه ترك المشي وأراد العدو، ولكن منعه الهلعُ ان يعدو فاضْطكَّ فصار عدوه للفرار بنفسه لا هو من العدو ولا هو من المشي . ثم أبدى في البيت الثاني كل احتقاره له بقوله « وكقتله أن لا يموت قتيلا » فما يحسن بأسدٍ أن يفرّ وانما هما خُطّتان : إما صبرٌ وظفرٌ وإما إقدامٌ وحتفٌ ، فبذلك يثبت الاسد أنه أسدٌ لا خروفاً ولا نعامةً

ولنضرب لك مثلاً آخر في ذلك . ففي سنه ٣٤٢ أوقع سيف الدولة بالروم في موقعة (بطن هنريط) وكان الدمستق وولده يحاربان ، فجرح الدمستق ، وأصيب ولده في مقتلٍ أشفى به على الموت ، وفرّ الدُّمستق تاركاً ولده في يد الموت، فلم يفت أبا الطيب حين ذكر هذه الموقعة أن يشير إلى هذه الحادثة ، وأن يدلّ على ازدرائه واحتقاره لهذا الدمستق الذليل الجبان الذي خلّف مهجته وولده للموت، فكان مما قال

. لعلكَ يوماً يا دمستق عائدٌ فكم هاربٍ مما إليه يؤولُ

(نجوتَ باحدى مهجتك جريحةً وخلّفت احدى مهجتيك تسيلُ)

(أتُسلم للخطيّة ابنك هارباً ؟! ويسكن في الدنيا اليك خليلُ) !!

(بوجهك ما أنساكهُ من مُرِشّةٍ نصيرك منها رنّةٌ وعويلُ)

وهذه الابيات غاية في الدلالة على استحكام الرجولة في طبع ابي الطيب ، وانه كان يؤذيه ويثيره ان لا يجد في الرجال صفة الرجولة— من اقدام وصبر ومروءة وشهامة وما الى ذلك من كريم الصفات، ولو كان اولئك الرجال من اعدائه . وأعد قراءة البيت الثالث فكأنك بأبي الطيب ينشده متعجباً مزدرياً ثم يبصق على صورة هذا الجبان الدمستق

ثم رجعنا الى ما كنا فيه : وجد ابو الطيب في بدر بن عمار (الرَّجلَ)، فاستقرَّ وهدأ حيناً وملأ نفسه من خلال القوة والفتوة والمروءة التي تحقق بها بدر. ولكن وقع في هدوئه واستقراره واقع هزهُ ونفضه ، وذلك انه وهو بطبرية — التي كان بها العلويون من اعدائه ، والذين ذكرهم فيما قدمناه لك في قوله في صفة البحيرة — بحيرة طبرية

« يشينها جريُها على بلدٍ تشينه (الادعياء) و(القزَمُ) »

لم يفتأ يجد من عداوتهم له كيداً كثيراً ، حتى سعوا به لدى بدر بن عمار ، واغروا به الشعراء ليغيظوه بألسنتهم ، وكان هنالك رجل ممتّعٌ باحدى عينيه (أعور) يدعى ابن كرَّوس ، وكان قد اتصل ببدر ، وكان من أشد أعدائه عليه ، ولذلك قصده بالذكر من بينهم . ونحن وان لم نكن نعرف شيئاً عن هذا (الممتع) ابن كروَس الاَّ انه يخيل لنا انه كان من صنائع العلويين او الفاطميين ، صحب بدراً كالعين عليه ، ثم ليجعله ينحاز اليهم ان استطاع الى ذلك سبيلاً — على عادتهم مع الامراء وغيرهم تمهيداً لقلب الخلافة من العباسية الى العلوية او الفاطمية

فلما كان ذلك ، دخل على فرح ابي الطيب ما ردّه الى قلقه واضطرابه وغمومه وهمومه ، فعاد يذكر أحزانه ، ويقلب الرأي في الفراق اذ لم يجد عند بدر عضداً ينصرهُ نصرة المحب لحبيبه ، فيقول

كأن الحزن مشغوفٌ بقلبي فساعة هجرها يجد الوصالاَ
كذا الدنيا — على من كان قبلي — صروفٌ لم يُدِمن عليه حالاَ
(أشدُّ الغمّ عندي في سرورٍ تيقّن عنه صاحبه انتقالاَ)
(ألفتُ ترحّلي ، وجعات أرضي قتودي والغريريّ الجلالاَ)
(فما حاولت في أرض مقاماً ولا أزمعت عن أرض زوالاَ)
(على قلق كأن الريح تحتي أُوجّهها جنوباً او شمالاَ)

ثم يقول بعد أبياتٍ يذكر مالقي من أعدائه من الشعراء

فيا ابن الطاعنين بكلّ لدْنٍ . . . .
ويا ابن الضاربين — بكلّ عضبٍ من العرب — الاسافلَ والقِلالاَ
أرى المتشاعرين غَروا بذمي ، ومن ذا يحمد الداءَ العضالاَ ؟!
ومن يكُ ذا فمٍ مرٍّ مريضٍ يجد مـرًّا به الماءَ الزلالاَ
وقالوا : هل يبلّغك الثريّا ؟ فقلت : نعم ، اذا شئتُ استفالاَ

فهو بهذه الابيات يعرض عليه ما يلاقي من الـكيد ، ويستعديه بالبيت الاخير على نصرته على أعدائه . ولا ندري ما الذي كان يكادُ به ابو الطيب ، ولكن نظنّ انهم كانوا يتغامزون به وبشعره وما فيه من الغلوّ والطموح وما يرد في أثنائه من الوعيد للطغاة والملوك والاعداء ، والانذار لهم أن يصيبهم من قبله كلُّ مكروه . والحقيقة ، ان هـذه المعاني في شعر ابي الطيب مما يستجلب التنبه لها ، والوقوف عندها ، فليس في العربية كلها شاعرٌ قد كثر ذلك في شعره كما كثر في شعر ابي الطيب ، بل أنت تقلّب دواوين الشعراء جميعاً فلا تكاد تجد فيها هذه المعاني في الانذار والوعيد والتربص ، وخاصة في المديح الذي يراد به عطف القلوب لاستخراج مكنونها ، وإلانة الايدي لقبض نوالها . وهذه المعاني مما يعكس على الشعراء مرادهم إن راموه وتعاطوه في اشعارهم. أما ابو الطيب فقد جعلها عمود شعره غير مبالٍ ولا حافلٍ . فمن هذه الظاهرة في شعره — نعني اعتماده في كثير منه على الانذار والوعيد — بدأ اعداؤه في جوار بدر يسمونه (المتنبي) ويغيظونه بذلك ، ويعنون أنه يتشبه بالانبياء اذ كان عمود نبوَّتهم هو الانذار والوعيد أيضاً وهو قد جعل بنيان شعره على هذين ، ولعلّ هذا هو المراد بقوله « أرى المتشاعرين غروا (بذمي) » فهذا ذمه عندهم كما ترى

واشتدّ هذا الـكيد على ابي الطيب حتى حمله على فراقِ بدرٍ إذ (نكر جانبه) حين لم يجد عنده كل ما أراد ، ووجده يسمع للوشاة ويصغيهم أُذنه . وكان آخر ما لقي ابو الطيب من ذلك حين سار بدرٌ الى الساحل (ساحل طبرية) حين أضيف عمله إلى عمله بطبرية ، وكان ابو الطيب قد تخلّف عن المسير معه ، فانتهز ذلك الاعور ابن كروّس فكتب إلى بدرٍ يقول له « إن أبا الطيب إنما تخلّف عنك رغبةً بنفسه عن المسير معك » . وبلغ ذلك أبا الطيب فثارت نفسه وعزم الرحيل والفراق ، ولكنه أجل ذلك حتى يعود بدرٌ ليعرف ما عنده ، والظاهر أن بدراً كان قد حمل في نفسه شيئاً من آثار هذه السعايات . فلما عاد الى طبرية ولقيه أبو الطيب فطن لما يدور في نفس بدر ، وخاف ان يخذله فاعتمد الرحلة وطي الارض ، ولذلك كانت آخر قصيدة مقصَّدةٍ مدح بها بدراً بينة الدلالة على اضطراب نفسه وقلقه وعزمه هذا فهو يقول فيها

« أنكرت طارقة الحوادث مرة ثم اعترفت لها فصارت ديدنا)

وقطعتُ في الدنيا الفلا ، وركائبي فيها ، ووقتيَّ الضحى والموهنا

وظهر فيها ايضاً خوفه ان يسلمه بدر الى اعدائه ، فيرصدوا له ويفتكوا به على غرة ، فصرح لبدر بذلك حيث يقول يذكر امر تخلفه عنه ، ثم مخاوفه ، ثم ينذره

فطن الفؤاد لما أتيتُ الى النوى ولما تركتُ مخافة ان تفطنا

اضحى فراقك لي عليه عقوبة ليس الذي قاسيت منه هينا
فاغفر - فدى لك - واحبني من بعدها لتخصني بعطية منها (أنا)
(وانه المشير عليك فيَّ بضلة فالحر ممتحن بأولاد الزنا)
(وإذا الفتى طرح الكلام معرضاً في مجلس أخذ الكلامَ اللذْ عنى)
(ومكايد السفهاء واقعة بهم وعداوة الشعراء بئس المقتنى)
لُعنتْ مقارنة اللئيم ، فانها ضيف يجر من الملامة ضيفنا
(غضبُ الحسود - إذا لقيتك راضياً - رزءٌ أخف عليَّ من أن يوزنا)

ثم بقي مع بدر وهو يضمر في نفسه فراقه ، فكان يتتبع مرضاته في كثير مما لا يرضى به حتى شرب الخمر في منادمته ، ليصرف بدراً عما كان في نفسه قليلاً حتى تعرض له الساعة المواتية للفراق . فلما اتت الساعة بادر واحتمل اهله ونفسه وخرج الى دمشق وقصد عملاً من اعمالها يقال له (حمى جَرَش) كان به أبو الحسين علي بن احمد المري الخراساني ، وكانت بينهما مودة وهما بطبرية ، فلجأ اليه ، واحتمى بحماه ، وذلك في سنة ٣٣٣ على وجه التقريب لا التحقيق

لا أفتري بلداً الاّ على غَرَرٍ
ولا أمرُّ بخلق غير مُضطَغِنِ
ولا أعاشرُ من أملاكهم ملكاً
إلاّ أحق بضرْب الرأس من وثنِ
مدحتُ قوماً ... وان عشنا نظمت لهم
قصائداً من إناث الخيل والحُصُنِ
فلا أحاربُ مدفوعاً إلى جُدُرٍ ،
ولا أصالح مغروراً على دَخَنِ

انتصر (ابن كروّس) الاعور على أبي الطيب ، وأفسد عليه بدر بن عمار . ويتّين انّ دهاء أبي الطيب وحيلته أعانتهُ على اجتناب الخطر الذي كان له رصداً في طبرية ، والذي كاد يدركه مرة اخرى بعد في سنة ٣٣٦ حين أرصد له العلويون ليقتلوه ففاتهم الى الرملة ، وهذا مما يرجّح عندنا أن (ابن كروّس) كان من شيعة العلويين او من انفسهم او من دعاة الفاطمية

وكان ابو الطيب — كما قدمنا لك — وهو عند بدر قد بدأ يطمئنّ ثم هاجه هذا الاعور ابن كروّس فانطلق الى غايته في نفسه من الحقد والثورة والاقتحام ولكنه كتم ذلك . فلما نزل بعلي بن احمد المرّي كانت قصيدته اعلاناً للحرب مرّةً اخرى ، وزلزلة وقعت في قلبه فأخرجت قديمه من الاحقاد والتِرات والآمال والآراء ، واستمر ينتفض ويقذفُ بركانه بحِمَمه إلى ان كان اتصاله بأبي العشائر في اواخر سنة ٣٣٦ . وكان شعره — في هذه الاغراض ثم في هذه الفترة — نظرات متطايرة كالشرر تحت ظلام الليل ، وهي مع ذلك حكيمة تقع في المفصل ولا تخطيء ، إذ كان الرجل قد تحنّك واستحكم واستمرَّ في الشعر على طريقته ، مما وجد من الهدأة في جوار بدر ثم ما وجدمن الكيد بعد . ولم يتصل بعد بدر بأمير ينادمه بل كان ينتقل من مكان إلى مكان ثائراً مغضباً موعداً منذراً مرعداً ، يريد ويبغي ، ويؤمل وينتظر ، ويملُ ويسأم ، ويحنق ثم ينفجر

فانظر الآن الى هذا الشعر الذي قاله لعلي بن احمد المري بعد ان تردّ النظر مرةً اخرى إلى ما كتبناه في الفصل الثامن . . . . يقول ،

(لا افتخارٌ الاّ لمن لا يضامُ   مُدرِكٌ أو محاربٌ لا ينامُ)
(ليس عزماً ما مرّض المرء فيه   ليس همّاً ما عاق عند الظلامُ)

واحتمال الاذى — ورؤية جانيـــهِ — غذاءٌ تَضوَى به الاجسامُ
ذلَّ من يغبطُ الذليلَ بعيشٍ رُبَّ عيشٍ أخفُّ منه الحِمامُ
كلُّ حلمٍ أتى بغير اقتدارٍ حجةٌ لاجئٌ اليها اللئامُ
من يَهُنْ يسهلِ الهوان عليهِ ما لجـرحٍ بميّتٍ إيلامُ
(ضاقَ ذرعاً بأن أضيق به ذر عاً زماني ، واستكرمتني الكرامُ
(واقفاً تحت أخمصيْ قدر نفسي واقفاً تحت أخمصيَّ الانامُ)
(أقراراً ألذُّ فوق شرارٍ ! ! ومراماً أبغي وظلمي يُرامُ !!)
(دون أن يشرق الحجاز ونجدٌ والعراقان — بالقنا — والشامُ !)

فهذه أبياتٌ قد اجتمعت فيها نفس المتنبي كلها بحكمتها وتجربتها وعلومها وقوتها ورجولتها وثورتها وانتقاضها وزلازلها ، وآمالها وأحقادها ووعيدها وإنذارها، وصدقها وعواطفها المتسعّرة التي يأكل بعضها بعضاً ، وفيها (توقيع المتنبي) على كلّ بيتٍ . فلا تحسبنَّ شاعراً يستطيع أن يأتي بمثلها أو يسرق معانيها الاّ أن يستطيع ان يسرق نفس أبي الطيب وقلبهُ جملةً من بين جنبيه ، أو الاّ ان يكون قد مُهِّد له في نفسه وفي صدقه وفي آلامه وآماله وغير ذلك ما تيسّر لابي الطيب

وألقى أبو الطيب هذه (القنابل) الحكيمة في حمى جرشٍ ثم أدركته مكايد الاعور ابن كروّس أو العلويين فعجّل بالرحيل غير مختارٍ له، فقال يودّع صاحبه المرّي ويعتذر له ، وقد أبان في الابيات كل الإبانة

(لا تنكرنَّ رحيلي عنك في عجلٍ فإنني لرحيلي غيرُ مختـارِ)
(وربما فارق الانسان مهجته يوم الوغى ـ غير قالٍ ـ خشية العارِ)
(وقد مُنيتُ بحسّادٍ أحاربهم ، فاجعل نداك ـ عليهم بعض أنصاري)

ثم انطلق من حمى جرشٍ يتقحّم البوادي عجلاً يفور فوران القدر على نارها المتضرّمة ، وتسعّرت الدنيا في عينيه ، وتلذّعت الافكار الناريّة بين جنبيه ، فخرج شعره كمعمعة الحريق ونقيضه وزفيره وفرقعته ، كما سترى . ومن شدة ما لقي أبو الطيب من كيد هذا الاعور ابن كروّس كان — على عادته — يتخيّله كلما تلفّت في مسيره واقتحامه ظلمات البادية . وقد حفظ لنا أبو الطيب في شعره — على عادته ايضاً — صورة ناطقةً من إحساسهِ وعواطفه وهو يطوي البادية طيّاً عجلاً فقال :[1]

(١) لقد اكثرنا من نقل شعر ابي الطيب اذ كان السياق الآن يقتضي ذلك ، ولئلا نقطع القارىء بالرجوع الى الديوان ، ثم لنختصر القول من ناحية اخرى ، فعلى القارىء — كما كتبنا على انفسنا — ان يستنبط ويستخرج المعاني على الاصول التي درجنا عليها في كتابنا . هذا والتدبر والتأمل أصل الاصول في العلم والاستنباط . . . .

ركبت مشمّراً قدمي اليها وكلّ عُذافرٍ قلق الضّفورِ
(أواناً في بيوت البدو رحلي وآونةً على قتد البعيرِ)
(أعرّض للرّماح الصمّ نحري وأنصب حرّ وجهي للهجيرِ
(وأسرى في ظلام الليل وحدي كأني منه في قمرٍ منيرِ)

وهذان البيتان فيهما من رجولة أبي الطيب وتقحّمه ومضائه وتدفّعه واستهانته بالشقاءِ في سبيل آرابه وآماله ما فيهما ، ففسّرهما لنفسك ، واعلم ان هذا الرجل شاعرٌ مبينٌ ، قلبُه في لسانه ، وعواطفه في بيانه

(فقل في حاجةٍ لم أقض منها — على شغفي بها — شروى نقيرِ
(ونفس لا تجيب الى خسيس ، وعينٍ لا تُدار على نظيرِ)
(وكف لا تنازع — من أتاني ينازعني — سوى شرفي وخيري)
(وقلة ناصر — !! جوزيت عني — بشر منك — يا شر الدهورِ!)
(عدوّي كلٍ شيء فيك حتى لخلت الاكْمَ موغرة الصدورِ)
(فلو أني حسدتُ على نفيس لجدت به لذي الجد العثورِ)
(ولكني حُسدتُ على حياتي ، وما خير الحياة بلا سرورِ؟)
فيا ابن كروّس ، يا نصف أعمى ، وإن تفخر ، فيا نصف البصيرِ
(تعادينا لأنّا غير لُكن ، وتبغضنا لأنا غير عورِ)
فلو كنت امرءاً يهجي هجونا ولكن . . . ضاق فتر عن مسيرِ

وإمّا تدبرت الابيات، فستجدنّ ان نفسه الكريمة الابيّة الانوفة المستكفة قد أُريد بها الشر والاذى فاهتزت ، وتدافعت هزاتها في أعصابه كلها ، فأبنتها على لسانه المبين في هذه الالفاظ المتقصفة بأصواتها ومعانيها وألوانها البيانية في التدفع والالتفات والانتقال، ثم في البغض للدنيا وازدرائها ، ثم في السخرية والتهكم والاحتقار لهذا الاعور الذي هاجه عن عشه في جوار ابن عمار

وأراد الله خيراً بشاعرية هذا اللسان القوّال العربي المبين ، إذ رماه بابن كروّس بعد هدأة واستجام . فلما طوى البادية على ما وصفنا يقصد قصد انطاكية ، فدخلها في سنة ٣٣٤ وكان بها أبو عبد الله ، محمد بن عبد الله بن محمد الخصيبي ، وكان ينوب عن ابيه في مجلس القضاء بأنطاكية وكان داهية من دهاة عصره فيما نرى ، فقصده أبو الطيب بمدحه ، وجعل أولُ القصيدة يدلُّ على ما وصفنا لك من تسعّر الدنيا في عينيه وبين جنبيه ، وكانت معاني مدحه من هذا الباب ايضاً. وقد تضمنت الابيات التي سننقلها لك آراءه في الجيل الذي كان يتقلب بين رجاله ، وازدراءه للرجال الذين قصدهم فلم يلف عندهم خيراً يعينه على حاجته التي قال فيها فيما مضى من الابيات

(فقل في حاجة لم أقض منها . . . .) ، ثم وصف رحلته بين اهل البادية ، وما كان يحذره في ارضهم خوف الطّلَب أن يهتديَ اليه فيدركه فيفتك به ، ثم يثور ويتمزع في أعنة نفسه فينذر ويوعد . . . وبذلك تعرف ان نفسه كانت على غايتها متوترة مستوفزة ثائرة . ثم يأتيه كتاب جدته فيقصد العراق ، فيمنعه اعداؤه من العلويين الذين ارادوا به السوء من دخول الكوفة التي بها جدته ، فيجلب ذلك عليه الهم والالم ، فتموت جدته فيهيج ويتلذع ويئن ويبكي ، ثم تدركه رجولته فترد عليه قوة مضاعفة فيدع وينفرد بقصيدة من اجزل الشعر وأرصنه ، ومن اكثر شعره خاصة دلالة على ما في نفسه ، وما اصابه في حياته من مولده الى يومه هذا سنة ٣٣٥

يقول أبو الطيب

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن (يخلو من الهم أخلاهم من الفطنِ)
(وانما نحن في جيل سواسية شرٍ على الحر من سُقمٍ على بدنِ)
(حولي بكل مكان منهم (خِلَقٌ) تخطي اذا جئتَ في استفهامها، بمن؟)

وهذا بيتٌ يهجوَ بألفاظه قبل ان يهجو بمعانيه ، ويدل على ما في نفس الرجل من الآلام ، وما لقي من اهل عصره من الكيد والمكر ، وما كانوا عليه من الخسة واللؤم ، والشطر الثاني من البيت التالي صفة صادقة لعصره كما تجدها في التاريخ ، وقد اشرنا الى صفة هذا العصر فيما مرّ بك

(لا أقتري بلداً الاّ على غرر ولا أمرُّ بخلق غير مضطغنِ)
(ولا أعاشر من أملاكهم ملكاً الاّ أحق بضرب الرأس من وثنِ)
اني لاعذرهم ممـا أعنفهم حتى أعنف نفسي فيهم ، وأني
(فقرِ الجهول بلا عقلٍ، الى أدبٍ فقر الحمار بلا رأس ، الى رسنِ)
(ومدّقعين بسبروتٍ صحبتهم عارين من حلل ، كاسين من درنِ)
خرّاب بادية ، غرثى بطونهم ، مَكْن الضّباب لهم زادٌ بلا ثمنِ
(يستخبرون فلا أعطيهم خبري وما يطيش لهم سهم من الظننِ)
وخلة في جليس ألتقيـه بها كيما يرى أننا مثلان في الوهنِ

وهذا البيت مما يدل على دهاء ابي الطيب وسعة حيلته ، ودقته في الحذر اذا أحيط به ، وخاف أن يظفر به عدوه

وكلمة في طريق خفت أعربها فيهتدَى لي ، فلم أقدر على اللحنِ

---

(١) قد استشهدنا بأبيات كثيرة من قصيدته في رثاء جدته فيما مضى في نسبه وغيره ، وذلك لما ترى من انها كانت تحمل نفس أبي الطيب كلها صريحها ورغوتها

(قد هوّن الصبرُ عندي كل نازلة وليّن العزمُ حدّ المركب الخشنِ)
(كم مخاص وعلىً في خوض مهلكة وقتلة قرنت بالذم في الجبن)
(لا يُعجبنّ مَضيماً حسن بزته وهل تروق دفيناً جودة الكفن)
(لله حال أرجيها ، وتخلفني وأقتضي كونها دهري ويمطلني)

ولا يفوتنك هنا ان ابا الطيب في هذه الفترة قد اشار الى مطلب له بهذا البيت في هذه القصيدة ومن قبل ما أشار اليه في القصيدة التي قبلها بقوله « فقل في حاجة لم أقض منها . . . . » ونحن نقف عند هذا البيت لتجعله منك على ذُكر حتى يأتي تأويله فيما يستقبل

(مدحتُ قوماً، وإن عشنا نظمتُ لهم قصائداً من إناث الخيل والحصن)
تحت العجاج ـ قوافيها مضمَّرة ـ إذا تنوشدن لم يدخلن في أذن
(فلا أحاربُ مدفوعاً إلى جدرٍ ولا أصالح مغروراً على دخن)
(مخيِّم الجمع بالبيداء يصهره حرُّ الهواجر في صُمّ من الفتن)

ويبين من نفس أبي الطيب في الشعر أنه قد تطلق واستنّ في عدوه إلى غايته ماضياً لا يلوي على شيء ، وأن لسانه قد انذلق بمعاني قلبه ، فهو مبينٌ في شعره وإشارته ، غير حافل بما سوف يلقاه من الكيد فيما بعد ولولا أن الرجل كان بركانيّ الطبع — يخمد ثم يفور ، ويقرّ ثم يتقلع — لما كان من اثر كيد ابن كروّس له ، ماترى في كلامه من التدفق والتدافع الذي تراه فيما روينا لك من الشعر . ويحسن بك وأنت تقرأ هذا أن تتبع ما رسمنا لك في التيقظ لإشارة الرجل ، وأن يكون منك على ذكر أن الرجل كان حين يفور ويقول ، تتراءى لعينيه ويدوّي في مسمعيه كل ما سمعه أومرّ به ، فهو يوجز لك ما في نفسه ضميراً في أبياته وكلماته

وقد استمرّ أبو الطيب على حالته التي نصفُ ، حتى اتصل بأبي العشائر فكلُ شعره في هذه الفترة آراء ونظرات كلها مستنبطٌ من ينابيع نفسه ، وذلك لما قلنا به من أن الاصل في نبوغ المتنبي هو (استيعابه ما يحسّ به من العواطف ، ودراسة قلبه ومعرفة ما يحز فيه من الآلام ، والمعاني التي تتولد من هذه الآلام ، ثم اهتداؤه إلى أن الشعر لا يكون شعراً الا حين يروى من معاني القلب ويستقي منها) . . . وبينا الرجل كذلك ، إذ جاءه كتاب جدّته تسأله المسير اليها وتشكو شوقها اليه ، وطول غيبته عنها ، فلما قصد الكوفة التي هي بها وشارفها حيل بينه وبين دخولها ، ورؤية جدته المسكينة — على ما مضى في تأويل هذه الواقعة — فلما ماتت رحمها الله ثارت نفسه ، وقذف بكل مكنونها من الآلام التي لقيها ، والحوادث التي فعلت فيه فعلها ، وكاد يصرح بما لقي من كيد العلويين له في مسألة نسبه على ما فسرناه ، وما قصد به من الحسد والوشاية . ويكفي ان نشير هنا إلى بيت واحد من قصيدته في رثاء جدته لتعلم أين بلغ الالم من

قلب أبي الطيب حتى مزّقه ، والبيت لايحتاج إلى شرحٍ أو تفصيل ، وفي تدبره او تأمّل لفظه غنًى ، إذ كان حسرةً محبوسةً في ألفاظ ، وكمداً مكفوفاً وراءَ كلماتٍ . يقول

(عرفت الليالي قبل ما صنعتْ بنا ، فلما دهتني لم تَزدني بها علما)
منافعها : ما ضرَّ في نفع غيرها ، تَغذّى وتَروَى : ان تجوع وان تظما

واجتمع على ابي الطيب ما في قلبه من الالم ، وما فجأه من موت جدته فتنزّت نفسه بقوتها حيناً ، واستسلمتْ بحكمها وفلسفتها احياناً — وهو فيهما حكيم بليغ — فهو بعد ان ثار ما ثار بمثل قوله في رثاء جدته

كذا أنا يا دنيا اذا شئتِ فاذهبي ويا نفس زيدي في كرائهها قُدْمَا
فلا عبرت بي ساعةٌ لا تعزُّني ولا صحبتني مهجةٌ تقبل الظلما

وانطلق من بغداد — حيث كان حين ماتت جدته — قاصداً أنطاكية بالشام ، يقول في القاضي أبي الفضل احمد بن عبدالله بن الحسن الانطاكي

انْعَمْ ولَذّ — فللأمور أواخرٌ أبداً ، إذا كانت لهن اوائلُ —
ما دمتَ من أرب الحسان ، فانما رَوْق الشباب عليك ظلٌّ زائلُ
للهْو آونةٌ تمرّ كأنها قُبلٌ يزوّدها حبيبٌ راحلُ
جمح الزمان ، فلا لذيذٌ خالصٌ مما يشوب ، ولا سرور كاملُ

ومثل هذا الرأي قليل عند ابي الطيب ، بل هو ليس من عادته ، ولا مما يواتيه طبعه على معاطاته والعمل به . وأنما أتاه من انه كان قد اشتدَّ في فورته الى الغاية حتى بلغ اقصى ماتحتمله نفسه من العنت والمشقة ، ثم اصابته فترة تعقب ذلك لا بد منها ، فاستخرجت حكمته هذا المعنى وهو يحمل من اليأس والتعب والنصب ما ترى في مثل قوله « روق الشباب عليك ظلٌّ زائلُ » وقوله : « جمح الزمان . . . . » فهذا كلام اليائس المستسلم ، اذا قاله من كان مثل أبي الطيب في تدفُّعه وتقحمه وثورته ، وهو أشبه بالاستجمام من التعب والشقوة والنصب. هذا على ان الحالة التي كانت متلبسة به ، لم تفارقه كل المفارقة بل كان فيه اعقاب منها ، فلما قصد المعاني التي يقصدها على طبعه وغريزته ، والتي تكون بالفاظها كالقنبلة في حديدها ، خرجت منه ألطف تعبيراً واقل تفجراً منها في غيرها .. فيقول لهذا القاضي

لا تجسر الفصحاء تنشد ههنا بيتاً ، ولكني الهزَبْر الباسلُ
ما نال أهل الجاهلية كلهم شعري ولا سمعت بسحري بابلُ
(واذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كاملُ)
من لي بفهم أهيْل عصر يدعي — أن يحسُب الهنديَّ — فيهم باقلُ

وكذلك ، ولكنه اقوى قايلاً ، ما اتى به بعد في قصيدته لاخي هذا القاضي (ابي سهل سعيد بن عبد الله بن الحسن الانطاكي) إذ يقول في صفة نفسه

إذا قدمتُ على الاهوال شيعني قلبٌ ، اذا شئت ان اسلاكم خانَـا
(أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني فلا أعاتبه صفحاً وإهوانَـا)
(وهكذا كنت في أهلي وفي وطني ان النفيس غريبٌ حيثما كانَـا)
(محسَّد الفضل مكذوب على أثري ألقى الكميَّ ، ويلقاني اذا حانَـا)
لا أشرئب الى ما لم يفت طمعاً ولا أبيت على ما فات حسرانَـا
ولا أسرُّ بما غيري الحميد به ولو حملتَ اليَّ الدهر ملآنَـا

وفي هذه الابيات يلتفت — على عادته — الى الايام التي مضت له بالكوفة ، وما لقي هناك في خبر موت جدته ، فيذكرها فيثبتها في شعره . والالتفات في شعر المتنبي من معنى الى معنى ، هو الذي تستطيع ان تستخرج به اسرار الرجل كلها، أذ كان على ما وصفنا لك يستوعب ما يدور بقلبه من الخواطر والاحساس والآلام ويستخرج منها معاني شعره . فالتفاته هنا بعد رجوعه من الكوفة — دليل على ما كان قد لقي هناك من الكيد ، وهذه الصفات التي وصف بها نفسه هي ايضاً من اثر ما لقي هناك

ولم يلبث صاحبنا ان ثابت اليه قوته ، فنفضت عن نفسه أسباب اليأس والخشوع ، وألجأته الى طريقته الشعرية التي تميز بها وانفرد ، وهي طريقة طبيعته الثائرة المستوفزة المتأهبة للقتال والنضال . ولكنه حين بدأ يعود الى المذهب الذي جرى عليه — كما رأيت فيما مضى — كان لا يزال متثائباً كالمستيقظ من سبات عميق قد فتره . . . فذلك قوله بعد ذلك وهو بأنطاكية ايضاً حين مدح ابا ايوب احمد بن عمران

ومطالب فيها الهلاك أتيتها ثبتَ الجنان كأنني لم آتها
ومقانب بمقانب غادرتها أقوات وحش كنّ من أقواتها
أقبلتها غرر الجياد ، كأنما أيدي بني عمران في جبهاتها

فذكره الماضي وما كان فيه من المغامرة والتقحم والقتال والكفاح ، أشبه بقصة من يقص عليك حُلماً كان رآه في نومه . فهو لا ينظر الى المستقبل كعادته ، ولا ينذر ولا يوعد ، ولا يصف ما سيكون منه بعدُ ، كما رأيت في شعره الذي سبق هذه الفترة التي اصابته . ويؤيد هذا ان حكمته كانت تجري هذا المجرى من كلام الاحلام — وكذلك كان مدحه — فهو يقول في حكمته في هذه القصيدة

في الناس أمثلةٌ تدور ، حياتها كمماتها ومماتها كحياتها

فالمتنبي لو كان في غير حالته تلك لاخذ هذا المعنى ورماه اليك متفجراً مدوّياً ، ولوجدت كلّ كلمةٍ منه ملأى بما نفسه من الازدراء للناس، والاستهانة بهم ، ولاً بدعَ في السخرية والتهكم على عادته حين يتناول أمثال هذه المعاني ، كقوله فيما مرّ بك

حولي بكل مكانٍ منهم (خلقٌ) تخطي إذا جئتَ في استفهامها،بمن ؟

وكانت أيامه تلك هي آخرة الفتور الذي حدّ من طماحه وجماحه، ثم انبرى كأشد ماكان ، وقد اجتمعت نفسه وتضامّ شتاتها ، وعادت اليه افكاره كلها فهو ينقل منها في شعره نقلاً بيّناً ، ولا يضمر الاّ ماكان لا بدّ له من اضماره وهو منطلقٌ في الحديث عن نفسه ومايجول في صدره ، فلما قدم على عليّ بن احمد بن عامر الانطاكي يمدحه قذف في وجهه بهذه الابيات

أطاعن خيلاً من فوارسها الدّهر وحيداً ،وما قولي كذا ومعي الصبر ؟

فهذه صورة مما كانت عليه نفسه قبل ما ذكرناه ثم انتقاله بعد الى طبيعته القوية كما سترى . فهو حين ذكر انه يقاتل الدهر ، ذكر انه يقاتله وحيداً لا ناصر له ولاعضد فلما جرى ذلك في ضميره ، أبت عليه كبرياؤه أن يضعف في القتال لتوحُّده وانفراده وقلة ناصره ، فاستدرك على هذا المعنى الذي خطر له فلام نفسه ان يخطر لها هذا الخاطر — وهو نذير الضعف والاستسلام والخضوع — فقال : « وما قولي هذا القول المستضعف الذليل ، ومعي أقوى ناصر ، وأشدُّ عضد وهو هذا الصبر الذي أقاتل به ، وهو عندي بمثابة الانصار والاشياع » ثم تفجر بعد ذلك

وأشجع مني كل يومٍ سلامتي وما ثبتت الاّ وفي نفسها أمرُ

تمرّستُ بالآفات حتى تركتها تقول : أمات الموت،أم ذعر الذعرُ ؟

وأقدمت إقدام الأتيّ ، كأن لي سوى مهجتي، أوكان لي عندها وترُ

ذر النفسَ تأخذ وسعها قبل بينها ، فمفترقٌ جاران دارهما العمرُ

وهذا كله تعليقٌ على الشطر الاول من البيت الاول ، وجدالٌ قائمٌ بين الفترة التي كانت قد أصابته وما علق به من آثارها ، وما أبطنت في نفسه من المعاني والآراء — وبين الطبيعة التي تقوم عليها شخصيته وتتميز بها نفسه ، وهي طبيعةُ القوة والتقحُّم ، وما تفجر هذه الطبيعة في نفسه من معاني الاقدام ، وما تولد له من الآراء والاحكام . فلذلك كانت الابيات التي تليها هي انتصار طبيعته القوية المشبوبة الفتية ، وكانت الآراء التي تضمنتها هي الا راء التي كثر ورودها في شعره ، اجتمعت فيها آراؤه في المجد الذي يصبو اليه ، وما يجب ان يأخذ نفسه به لادراكه، واحكامه على أهل عصره، واستسقاطه لهم، وخاصة ملوكهم وأمرائهم الذين قاربهم فلم يجد فيهم خيراً بل وجدهم خذلاناً لمن استنصرهم ، وخبًّا وخداعاً لمن استنصحهم ، فقال في ذلك في أعقاب الابيات التي رويناها

ولا تحسبنَّ المجد زقًا وقينةً ... فما المجد الاَّ السيفُ والفتكةُ البكرُ
(وتضريب أعناق الملوك وأن ترى ... لك الهبوات السود والعسكر المجرُ)
(وتركك في الدنيا دويًّا، كأنما ... تداول سمعَ المرء أنمله العشرُ)
اذا الفضل لم يرفعك عن شكر ناقص ... على هبة، فالفضل فيمن له الشكرُ
(ومن ينفق الساعات في جمع ماله ... مخافة فقر، فالذي فعل — الفقرُ)
(عليَّ لاهل الجور كلُّ طِمرَّةٍ ... عليها غلامٌ ملءُ حَيْزُومه غِمْرُ)
يدير بأطراف الرماح عليهم ... كؤوس المنايا حيث لا تشتهي الخمرُ
وكم من جبال جبت تشهد أنني الـ ... ـجبال، وبحرٍ شاهدٍ أنني البحرُ

. . . .

(وجنَّبني قربَ السلاطين مقتُها ... وما يقتضيني من جماجمها النسرُ)
(واني رأيت الضرَّ أحسنَ منظراً ... وأهون من مرأى صغير به كِبرُ)(١)

واخذ المتنبي بعد ذلك يشتدُّ في نفسه ويقوى على اثر ما اصابه من الفتور، واخذ يستعرض حياته كلها ويستخرج ما فيها، وآراءه ويختار منها، ويصوغها في شعره، وكل ذلك مما يبنيه على ما مر به من احداث الزمن، فانه حين رحل عن انطاكية قاصداً دمشق نزل في طريقه على علي بن محمد بن سيار بن مُكرَم التميمي فكان مما ورد في شعره له قوله

وما سكني سوى قتل الاعادي ... فهل من زورة تشفي القلوبَا!!
تظلُّ الطير منها في حديثٍ ... تردُّ به الصراصر والنعيبَا

ثم يستذكر ما لقي من الحساد كابن كروَّس وغيره ممن آذوه وهو بطبرية وانطاكية وغيرها فيقول حين ذكر الليل

أقلّب فيه أجفاني كأني ... أعُدُّ به على الدهر الذنوبَا
(وما ليل بأطول من نهارٍ ... يظلُّ بلحظ حسّادي مَشوبَا)
(وما موت بأبغض من حياةٍ ... أرى لهمُ معي فيها نصيبَا)
(عرفت نوائب الحدَثان حتى ... لو انتسبت لكنت لها نقيبَا)

ثم يزيد على ذلك إذ يذكر آرابه في الحياة وما كان منه في مسعاهُ للمجد وطلبه، وما كان خرج في إدراكه من الثأر والمطالبة (بحقه) المهضوم في انتسابه للعلوية كما مرَّ بك، ثم ما مرَّ به

(١) نظن ان القارىء ليس في حاجة بعد الى الوقوف به عند كل مفصل للقول، ففي ما قدمناه من النهج كفاية له، وحسبه ان يطمئن عند كل بيت اطمئنان المستغرق في التدبر، فتنفجر في نفسه المعاني، وبذلك يرى حقيقة الرجل ممثلة مجسمة في الفاظه وابياته. ولن تعرف المتنبي الا ان تفعل ما نريلكم من الرأي

من الاحداث، ومن لقي من الناس الذين استدعوا احتقاره لهم وازدراءه إياهم، وهو مع ذلك مضطرٌ لمعاناة عشرتهم ومصادقتهم، ثم يذكر موت جدته بالكوفة، وأثر ذلك في نفسه وهي التي يحبها حبَّ الوفاء والاخلاص والبنوّة وذلك إذ يقول

أقلَّ فعالي بلهَ أكثرهُ مجد وذا الجِدُّ فيه نلت أو لم أنل جدُّ
(سأطلب حقّي بالقنا ومشايخٍ كأنهم من طول ما التثموا مُرْدُ)

. . . .

(أذمُّ إلى هذا الزمان أُهيلهُ فأعلمهم فدمٌ، وأحزمهم وغدُ)
(وأكرمهم كلبٌ، وأبصرُهم عمٍ وأسهدهم فهدٌ، وأشجعهم قردُ)
ومن نكد الدنيا على الحر، أن يرى عدواً له، ما من صداقته بدُّ
بقلبي، وإن لم أروَ منها، ملالةٌ وبي عن غوانيها، وإن وصلت، صدُّ

فهذه كما ترى كلمات كلها منتزعٌ مما كان في حياته لذلك العهد، وما اصابه من الرزايا، وما أدركه من الاخفاق في المطلب، وما أورثه ذلك من الحسرة والمرارة وألم الحرمان. ولما كان ذلك كله مما أصابه إنما أصابه — على ماذهبنا اليه أولاً — في طريقه وهو يسعى لادراك ثأره عند العلويين الذين ظلموه وظلموا جدّته وأنزلوها بشرِّ منزلة، وكانت جدّته قد ماتت قبيل ذلك الوقت بقليلٍ، وكان أثر موتها لا يزال يحزُّ في نفسه، التفت قلبه إلى تلك الحبيبة التي فارقته، وانتقل من هذه المعاني التي تراها في الابيات السابقة الى ذكرى جدّته فقال

خليليَّ دون الناس حزنٌ وعبرةٌ على فقد من أحببت ما لهما فقدُ
تلجُّ دموعي بالجفون كأنما جفوني — لعيني كلِّ باكيةٍ — خدُّ

ثم تلبّث صاحبنا بعد هذين البيتين وهو يكتبهما، وتأمل أحزانه وآلامه، ورأى أن البكاء والنحيب مما لا يجمل به، وكيف يبكي ويُعْوِل وهو من هو في الصبر والجلَد وتحمل النكبات غير جازعٍ ولا متململ، وقد لقي بصبره — في سبيل جدته وفي سبيل نفسه — كل نائبة، وطوى الارض موكلاً بذرعها غير حافلٍ، وقاسى من الحسد ما قاسى، وأصابه من عداوة الناس له ما اصابه، فاغتابوه وآذوه. فاستدرك صاحبنا على بكائه على جدته بقوله بعدُ يصف نفسه وما كان منه وما كان من اعدائه

واني لتغنيني من الماء نُغبةٌ وأصبر عنه مثلما تصبر الرُّبْدُ
وأمضي كما يمضي السنان لطيّتي وأطوى كما تطوى المجلحة العقدُ
وأكبر نفسي عن جزاءٍ بغيبة وكل اغتياب جهد من لا له جهدُ
وأرحم أقواماً من العيّ والغبى وأعذر في بغضي لانهم ضدُّ

وعلى ما وصفنا لك من حالته ، وما يلج في صدره ويعتلج في نفسه ، انحدر الى دمشق ولم يقم بها الاّ قليلاً ، وقصد طبرية وذلك في سنة ٣٣٦ ، ولعلّ ابن كروّس كان قد غادرها إذ ذاك والظاهر ان ابا الطيب انما دخلها في جوار بعض اصحابه ، ومن كانوا يكرمونه من اهل الفضل والنبل ، واطمأن قليلاً بها ثم هاجت العلوية عليه مرة اخرى ، وأثبتوا عليه عداوتهم ، وأرادوا ان يكيدوا له كيداً ليخلصوا منه ومن افعاله ، ونحسب ان ابا الطيب كانت له في البلاد التي دخلها شيعة تشاركه الرأي وتتعصب لمذهبه في السياسة ، وتزيد في تعصبها لشعره وأدبه ، فكان ذلك سبباً في اثارة الفتن في كثير من البلاد التي دخلها . . .

وأنت ، فلا تظنن ان مثل ابي الطيب كان اذا دخل بلداً دخله صامتاً مخيط الشفتين ، لا يفتحهما الاّ حين ينشد قصيدته في (المديح) في مجلس من يمدحه ، ثم ينصرف الى داره منزوياً في ركن من اركانه ، حتى يأذن له شيطان شعره بقصيدة اخرى وهكذا وهلم جرًّا . كلاّ ، فإنا لا نشك في ان أبا الطيب ـ ذلك الظريف المجلس ، الحاضر البديهة ، الحلو النادرة ، الاديب النفس ، صاحب الرأي في السياسة ، وطالب الحكمة أنى كانت ، والثائر على حكام عصره ، والمزدري لاهل زمانه ، والذي تتبين في شعره مواضع التجربة الطويلة ، والخبرة النافذة ، والتمرس بالاخلاق عاليها وسفسافها ، والذي كان شعره قطعة من احساسه وطبيعته ، وما يمسها مما يدور حولها او يدانيهما من احساس الناس وطبائعهم ، والذي كان شعره ينم على تلك الطبيعة البركانية المتفجرة ، والتي لا تهدأ الاّ ريثما ترتد اليها قوتها القاصفة العاصفة الناسفة ، والذي لم تكن هذه الظاهرة في شعره دعوى او باطلاً او ظاهراً لا باطن له — اذ لو كان ذلك كذلك لوقع فيها التخالف على تطاول السنين ، ولنقصت وضعفت بضعف الاسباب الجالبة لها — والذي كان ذا لسان وبيان ، وكان جدلاً طلق اللسان أبيّ النفس ، لايهاب ان يصارح وان يكشف عن ضميره على شدة ما لقي من الكيد والمكر والتربص والرصد ، ثم كان (الرجلَ) الشاعرَ الفردَ من أهل عصره الذي كشف عن سيئات العصر ، وصوّر رذائله كلها في كثير من شعره ، والذي كان قريباً من الامراء ، أثيراً عند كثير ممن لقيهم — نقول : إنا لا نشك — ولا تشكَّنّ انت — في ان ابا الطيب ، قد أثار كثيراً من الجدل في الادب والسياسة ، وتمرّس بالناس وتمرسوا به وأخذ وأعطى ، وناقش وجادل ، وذهب مذهباً في تناول الآراء والافعال والاحداث التي وقعت في الدولة العربية ، وبيّن رأيه فيها في مجالس أصحابه ، وتناقلت الالسنة ما كان يقول ، ووجد حسّاده من تكشّفه وصراحته مطمناً ومقتلاً يطعنونه فيه ، وظفر الوشاة بغذاء قلوبهم ، وزاد ألسنتهم مما كان الرجل يكاشف به من الرأي ، وما يبديه من النظرات والافكار ، فسعوا به الى اعدائه ، والذين كانوا يضمرون له السوء من

اصحاب السلطان ، او من كانوا يعادون أبا الطيب لاسباب خفيت عن السعاة والوشاة ، وان لم يخف عنهم ان هؤلاء كانوا ممن لا يميلون الى بقائه بينهم ، أو يتربصون ان يظفروا به قبل ان يفوتهم بحذره ودهائه

فيبيّن ان ابا الطيب دخل طبرية — على حالته تلك التي نصف — مراغماً للعلويين ، ثم لمن كانوا يكيدون له قبلُ على عهد بدر بن عمار ، والذي كان يتولّى كبر ما يأتون به الاعور ابن كروس كما مرّ بك . وكان في هذه الايام التي بقيها بطبرية حذراً متوجساً يترقب ، وكان بالرملة إذ ذاك (سنة ٣٣٦) الامير ابو محمد(الحسن بن عبيد الله بن طغج) فلما أتاه الخبر بأن ابا الطيب نازل بطبرية طمع في مديح أبي الطيب ، وودّ لو نزل عليه ،واقام عنده مكرّماً ، فلم يزل يراسله ان يتحمل اليه وينزل عنده ، فاضمر ابو الطيب الرحلة اليه ، وكان الخبر قد بلغ العلويين أن (أبا محمد بن طغج) راسله وعزم عليه في الرحلة اليه ، فألفوها نهزةً معترضة أن يفتكوا به ، وتوهموا الطريق التي سيركبها ابو الطيب—ولا بدّ —في رحلته ، فأصدروا له جماعة من عبيدهم السودان بقرية بالقرب من طبرية يقال لها (كفر عاقب) ، وامروهم ان لا يفلتوا الرجل الا جثة دامية. والظاهر ان أبا الطيب كان قد جرى في خاطره انهم فاعلو مثل ذلك ، فخالف الطريق التي درج السابلة على ركوبها ما بين طبرية والرّملة ، فلما فات الرصد ، بلغه ما كانوا قد عزموا عليه ، وما كانوا قد أرصدوا له ، فربتْ نفسه ، وزفر زفرته من هذا الكيد الملاحقه بكل طريق ، وثارت في صدره الزّوبعة التي كانت تثور فيه كلما ابتلي ببلاء من المداوة ، او أصيب بمصيبة من الكيدِ والمكر السيء . فلما دخل الرملة ليمدح الامير أبا محمد ابن طغج كان يفور ويغلي ويتقلقل ويتفجّرُ ، فلم يأخذ نفسه بآداب المديح والزيارةِ المبتدأةِ ، ورمى في وجه ممدوحه بقنابلهِ قبل أن يلج الى مديحه فقال

فمالي وللدنيا ، طِلابي نجومُها ، ومسعايَ منها في شدوق الأراقمِ
من الحلم أن تستعمل الجهلِ دونه ، إذا اتّسعتْ في الحلم طرْقُ المظالمِ
وأن تَردَ الماءَ الذي شطرهُ دمٌ فتسْقَى، إذا لم يسْقَ من لم يزاحمِ
ومن عرف الأيام — معرفتي بها وبالناس — روّى رمحه غير راحمِ
فليس بمرحومٍ إذا ظفروا به ، ولا في الرّدى الجاري عليهم بآثمِ

ثم التفت الى نفسه (يمدحها) فقال

(إذا صلْتُ لم أترك مَصالاً لفاتكٍ وإن قلت لم أترك مقالاً لعالمِ

وقد قدمنا لك في أثناءِ القولِ ان أبا الطيب كان إذا نزل به نازلٌ مما يكربه من الغمّ والهمّ اشتدّ به ذلك وأخذ عليه نفسه، فينصرف فكره كلّه الى التدبر فيما مضى عليه من الرزايا، وما

أجلب عليه من العداة وعداواتهم . ولا يزال يحدّق ببصره في هذه الحالة ، مستوعباً كل إحساس في نفسه وكل ما مرَّ به وأصاب منه ، حتى تتفجّر في قلبه ونفسه ينابيع البيان فينتزع الحكمة من قلبه ولها أصولٌ تاريخية ضاربةٌ فيه . فإذا تدبرت الابيات السالفة وجدْت فيها تاريخ قلبه وتاريخ مصائبه كلها على ما سقناه في حديثنا . ثم ان أبا الطيب لما كربه أمر العلويين الذين أرصدوا له بكفر عاقبٍ ، ارتد الى الحالة التي وصفنا ، فلم يزل يدور ذلك في فكره بين قلبه ولسانه فلم يقدر أن يمتنع عن ذكره في شعره الذي قاله لابي محمد خاصة ، ثم في شعره الذي قاله بعد لطاهر العلوي كما سترى . فما قال لابي محمد يذكر هذا الكيد الذي كيد به في طبرية

كريمٌ لفظتُ الناس لما بلغته كأنهم ما جفّ من زاد قادمِ
وكاد سروري لا يفي بندامتي على تركه في عمريَ المتقادمِ
(وفارقت شرّ الارض أهلاً وتربةً بها علويٌّ جدُّه غير هاشمِ)

والظاهر أنه كانت ، بين الامير ابن طغج وهذا العلويّ الذي كاد هو وشيعته لابي الطيب في مخرجه من طبرية ، عداوة قائمة . وأن هذا الكيد كان لسببين : الاول ، ما كان بين العلويين وبين أبي الطيب كما قدمنا ، والآخر ، هذه العداوة بين رأس العلويين بطبرية وهذا الامير الذي خرج أبو الطيب من طبرية قاصداً له مادحاً إياه ، فلذلك قال أبو الطيب فيما يلي ما انشدناك

بلا الله حساد الامير بحلمه ، وأجلسه منهم مكان العمائمِ
فإن لهم في سرعة الموت راحة ، وإن لهم في العيش حزّ الغلاصمِ

هذا وقد بقي أبو الطيب في جوار الامير ابي محمد بالرملة مكرماً ، يصحبه الامير في رحلاته ويحضره مجالسه ، ويرافقه في زياراته ، ويفضل عليه كل الافضال ، حتى أرضى ذلك القلب الذي كان بغض الاعاجم فيه طبيعة ثانية قائمة لا تفتر . وكان من اصحاب هذا الامير رجل من شيوخ العلويين بالرملة ، وأبناء شيوخهم ، وكانت له ولاهله اياد كثيرة عند بني طغج ، فلم يفت الامير ابا محمد ما في مدح ابي الطيب له ، وهو لم يمدح رجلاً جليلاً كصاحبه هذا (ابي القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي) ، فرغب الى ابي الطيب ان يمدحه وكان من ابي الطيب ما كان في امتناعه على ما مر بك ، فلما اجاب الامير الى مدحه مرغماً ، حاملا على نفسه — إذ كان قلبه لا يرضى ابداً عن هؤلاء العلويين الذين آذوه ، والذين لقي من كيدهم بالامس القريب ما لقي ، من إرصادهم لقتله — قال قصيدته يمدحه ولكنه قدم قبل مدحه هذه الابيات وفيها ما فيها من لمز قوم من العلويين ، لعلهم ان تكون بينهم وبين طاهر قرابة دانية ؟

يخوفني دون الذي أمرتْ به ولم تدر ان العارَ شرُّ العواقبِ
(ولا بد من يوم أغرّ محجّل يطول استماعي بعده للنوادبِ)

يهون على مثلي اذا رام حاجة وقوعُ العوالي دونها والقواضبِ
كثير حياة المرء — مثل قليلها يزول — وباقي عيشه مثل ذاهبِ
إليكِ ، فاني لست ممن اذا اتقى عِضاض الافاعي نام فوق العقاربِ
(أتاني وعيد الادعياء وأنهم أعدُّوا ليَ السودان في كفر عاقبِ)
ولو صدقوا في جدّهم لحذرتهم فهل فيَّ وحدي قولهم غير كاذبِ

ثم التفت الى نفسه (يمدحها) كما مر بك في قصيدة الامير ابن طغج فقال فيما يلي ذلك

إليَّ — لعمري — قصد كل عجيبة كأني عجيب في عيون العجائبِ
بأي بلاد لم أجرّ ذؤابتي ؟ ! وأي مكان لم تطأه ركائبي ؟ !

وقد مضى ذكر هذه القصيدة وأبيات اخرى منها اكتفينا بما مضى منها عن الاعادة . على أن هناك أشياء أخرى ، كان اولى بنا التوسع في تقصيها ولكنا أجلناها الى موضعها من كتابنا وبالله التوفيق

ثم عزم ابو الطيب الرحلة من الرملة الى جوار ابي العشائر الحسن بن علي بن الحسن بن الحسين بن حمدان العدوي ، فخرج من الرملة في سنة ٣٣٦ يريد أنطاكية ، ولم يحدث له حادث الا ما كان من امر اسحق بن كيغلغ في طلبه منه ان يمدحه فهجاه بقصيدته المشهورة التي اولها

لهوى النفوس سريرة لا تعلمُ عرضاً نظرت وخلت أنّيَ أسلمُ

فلما بلغت ابن كيغلغ اراد قتل أبي الطيب وكان إذ ذاك بطرابلس — فخرج منها فأتبعه ابن كيغلغ خيلاً ورجلاً فأعجزهم صاحبنا بالهرب الى بعلبك ثم الى دمشق ثم خرج من هناك الى انطاكية وأتى أبا العشائر وكان مما قال لهذا الاعور ابن كيغلغ

أرسلت تسألني المديح سفاهةً صفراء أضيق منك ، ماذا أزعمُ ؟
وأرغت ما (لابي العشائر) خالصاً ان الثناء لمن يزار فينعمُ
ولمن أقمت على الهوان ببابه تدنو فيوجأ أخدعاك وتنهمُ

ثم طفق يمدح أبا العشائر الى ان قال

والوجه أزهر ، والفؤاد مشيّعٌ ، والرمح أسمر ، والحسام مصمّمُ
(أفعال من تلد الكرام كريمةٌ وفعال من تلد الاعاجم أعجَمُ)

فكأنَّ أبا الطيب كان قد ملّ الاعاجم واستنقصهم ، وفيهم الامير ابو محمد بن طغج الذي كان قد نزل عنده بالرملة ومدحه ، ونال من فواضله

أأصبرُ عنك ، لم تبخل بشيء ؟
ولم تقبلْ عليّ كلامَ واش ؟
وما وُجِد اشتياقٌ كاشتياقي
ولا عُرِف انكماشٌ كانكماشي
فسرتُ اليك في طلب المعالي ،
وسار سوايَ في طلب المعاشِ

أردنا في الباب السالف ان ندلك على نفس أبي الطيب ، وما تميزت به عن شعراء العربية جميعاً ، وما انطوت عليه من القوة والرجولة ، وما كان يزلزلها من الثورة التي لا تزال تهزُّه من قرارة قلبه ، فتنطلق زلازلها من قلبه إلى لسانه ، فيثبت لسانه في شعره عدد هزّات الزلزلة وقوتها ، فلذلك نقلنا اليك طائفةً من شعره على التوالي في ترتيبها الزمني حتى هذا العهد الذي بدأ حين اتصل بأبي العشائر ، فدخل مدخلاً غير الاول ، وذهب في الشعر مذهباً عجباً وتحولت معاني نفسه من غرضٍ بعينه الى غرض آخر غيرِ مفارقٍ للاول ، بل منه استمدَّ ، وعليه بنى

خرج أبو الطيب من الرملة بقلبه وبنفسه وبآرائه قاصداً أنطاكية التي كانت في يد بني حمدان العرب التغلبيّين ، وكان على امرها — من قبل سيف الدولة — أبو العشائر الحمدانيّ الشاعر المبدع ، والمحارب الباسل ، والعربي الخالص الحب للعرب والعربية ، الشديد العداوة للروم والترك والديلم الذين توالت غاراتهم على الدولة العربية بالجيوش تارةً ، وبالدسائس والمكايد والتمزيق تارة أخرى . وكان المتنبي قد عرف بني حمدان من قبل ، وعرف منهم خاصة سيف الدولة [1] الذي كان الآن سنة ٣٣٦ صاحب الشام ، والمستولي على أمرها ، والمنتزعها من يد بني طغج الاخشيديين الاتراك

دخل أبو الطيب أنطاكية ليلقى العربَ والعربية في مجلس بني حمدانٍ ، وقد رمى دَبْرَ أذنه وتحت قدمه ، الاعاجمَ وما مدحهم به . وأراد ان ينقل شعره من تكلّف المدح الى التطلّق والاسترسال في مدح من هم من رأيه ، ومن يجد فيهم مرضاة نفسه وآماله ، ولئن كان قبل قد مدح القوم العلوج ليستخرج منهم بعض أموالهم التي غلبوا الأُمة العربية عليها ، وليكون على

---

(١) قد مضى ذلك في سنة ٣٢١ ، وقد تكلمنا هناك بما فيه الكفاية ان شاء الله — انظر من ص ٥٣ الى ٥٥

مقربة من مكرمهم ودسهم ، وعلى علم بما يضمرون لأمته من الشرّ الغالب على قلوبهم وعقولهم، فهو الآن قد وجد قوته وأهله وعشيرته ، فليأتهم بكل غريبة من القول ، وليمجّد ذكرهم في شعره ، وليهدأ قليلاً مما كان فيه من الثورة ، ليستطيع أن يحزم رأيه وتدبيره مع هؤلاء القوم — على أن يعيدوا مجد العربية ، (ويديلوا من دولة الخدم) الذين غابوا على سياسة الأمة ، ورموا بها في موارد الهلاك والفشل ، فهذا سرّ قوله لابي العشائر في قصيدة مدحه بها ، والتي نقلنا أبياتاً منها في رأس هذا الباب

فسرت اليك في (طلب المعالي) وسار سواي في (طلب المعاش)

فهو إنما قدم على بني حمدان لما ذكرنا لك لا للتكسّب بالشعر ، وأكل الخبز من قوافيه ومعانيه

رأيت قبل أن المتنبي كان إذا مدح بدأ بنفسه فذكرها ومجّدها وعظّمها، ثم يبدي آراءه في الدنيا ، ويكشف عن الثورة القائمة في ضميره وقلبه ، ثم ينذر ويوعد ويهدّد . فلما بدأ اتصاله ببني حمدان ، ترك هذا المنهج ، وادّخر قوته كلها لامر غير هذا الامر ، وأسبغ على بني حمدان ماكان يسبغ من قبل على نفسه من ثياب المجد ، فهو يصفهم كما كان يصف نفسه ، ويعلو بهم الى غاية السموّ في القوّة والسلطان والسماحة والمروءة وعظم المطلب . ولم يك يذكر نفسه الاّ حين يخرجه الوشاة والساعون بالشرّ بينه وبينهم

فلما اتصل ابو الطيب بأبي العشائر ، ونال منه مكانه ، وأدرك عنده طلباته ، بدأت وشاية الوشاة بانطاكية تفعل أفاعيلها مرّةً اخرى ، ومدت الفتن أعناقها من قبل شيعة العلويين والفاطميين والاخشيديين والعباسيين — على ما نذهب اليه — ، وشعر ابو الطيب بما هنالك فدلّ أبا العشائر عليه بلطيف القول غير مصرّح فقال

فيا بحر البحور ولا أورّي ويا ملك الملوك ، ولا أحاشي
كأنك ناظرٌ في كل قلبٍ فما يخفى عليك محلُّ غاشِ ؟
أأصبرُ عنك لم تبخل بشيءٍ ؟ ولم تقبل عليّ كلامَ واشِ ؟

. . . .

فما خاشيك للتكذيب راجٍ ولا راجيكَ للتخييب خاشِ
أرى الناس الظلام ،وأنت نور وإني منهم لَالَيك عاشِ
(بُليت بهم بلاءَ الوَرد يلقى أنوفاً ، هنَّ أولى بالخِشاشِ)

والظاهر ان ابا العشائر كان قد أصمّ اذنيه عن سعاية السعاة والوشاة والحسّاد ، وما كانوا يريدون من تقليب قلبه عليه كما فعلوا بقلب بدر بن عمار ، فلما لم يأذن لهم ابو العشائر اوّلَ اوّلَ ، زادوا في التشهير بالرجل ، واجتلاب الاكاذيب في ذمه ونقيصته ، والتعريض به وبأدبه ،

ويذكرون ما كان في شعره من الثورة والانذار والوعيد وذم الناس ، وفخره على من مدحه ، وسوء أدبه في مديحه إذ يقدّم مدح نفسه ، ثم يزيد فيمدحها بما لم يمدح ممدوحه بمثله أو ما يقاربه. ووقع اليهم ما كان ينبز به لدى بدر بن عمار من تسميته بالمتنبي [١] ، فزادوا عليه ووضعوا من عند أنفسهم القصص في تطويل الحكاية ، وتعظيم امرها. وبدأ العلويون ايضاً يعرضون بمسألة نسبه ليحرجوه ان يصرح بنسبته العلوية ، فلا يجدون عند ذلك حرجاً من ان يأخذوه كما اخذوه اول مرة ، ثم يلقوا به في غيابة السجن بضع سنين . فلما بلغوا هذا المبلغ وضاق بهم ابو الطيب لم يجد بدًّا من العودة إلى طريقته الاولى حين يحرج ، فكان مما قال في ذلك كله قبل ان يلج الى مديح ابي العشائر

(أنا ابن من بعضه يفوق أبا الباحث، والنجل بعض من نجَلَهْ)
(وإنما يذكر الجدود لهم من نفّروه، وأنفدوا حيَلَهْ)
فخراً لعضْبٍ أروح مشتمله وسمهريٍّ أروح معتقله
وليفخر الفخر اذ غدوت به مرتدياً خيره ومنتعله
أنا الذي بيّن الإلهُ به الْـ أقدارَ ، والمرء حيثما جعلَهْ
جوهرة ، تفرح الشراف بها ، وغصة ، لا تسيغها السفلَهْ
(إن الكذاب الذي أكاد به أهون عندي من الذي نقلَهْ)
فلا مبالٍ ، ولا مداجٍ ، ولا وا نٍ ، ولا عاجز ، ولا تُكَلَهْ
ودارعٍ سفته فخرّ لقىً في الملتقى والعجاج والعجلَهْ
وسامعٍ رعته بقافيةٍ يحار فيها المنقح القولَهْ
(وربما أشهد الطعام معي من لا يساوى الخبز الذي أكلَهْ)
(ويظهر الجهل بي وأعرفه ، والدرّ درٌّ برغم من جهلَهْ)

ومن صدق الرجل في محبته لابي العشائر خاصة وبني حمدان كافة ، فعل ما لم يفعله من قبل ، فاستدرك على ما ذكر به نفسه من التعظيم والتبجيل فقال

مستحياً من أبي العشائر أن أسحب في غير أرضه حللَهْ

(١) قد مضى رأينا في هذه التسمية ، وانها كانت لما كثر في شعره من الانذار والوعيد

وقد اشار ابو الطيب في هذه القصيدة الى انهم زادوا على ما ذكرنا من الكيد انهم كانوا قد أكثروا القول لدى أبي العشائر ، وزعموا انه انما كان يمدحه للتكسُّب والنيل من فواضل ماله ، وتكذّبوا عليه بكل نقيصة تفسد عليه قلب أبي العشائر ... فقال

ما لِيَ لا أمدح الحسين ، ولا أبذل مثل الودّ الذي بذلَهْ ؟
أأخْفتِ العين عنده أثراً ! أم بلغ الكَيْذُ بَانُ ما أمَلَهْ ؟

ولكن أبا العشائر كان قد عرف فيما نظنُّ سرّ الكيد الذي يكاد به ابو الطيب ، ولعلّ سيف الدولة ايضاً كان قد بلغه مقدمُ أبي الطيب على أبي العشائر فكتب اليه ان يحرص على الرجل ، ولا يسمع فيه لمنتقص ولا ذامّ ولا متكذب ، لما يعلم من سرّ الرجل الذي انطوى عليه في أمر نسبته العلوية كما قدّمنا . فلذلك لم يجد الوشاة أذناً صاغيةً ولا سميعة ، فانصرفوا برغمهم ونال أبو الطيب الكرامة والعزة في جوار أبي العشائر ، وهدأ واستقر قراره ، واطمأن قلبه ، منتظراً مقدم سيف الدولة الى انطاكية في مسيره في نواحي البلاد التي استولى عليها بالشام . وفي هذه الفترة من الطمأنينة والسكينة والكرامة لدى أبي العشائر استجمَّ الرجل لقوته ، وادّخر لسيف الدولة ذخائر قلبه وكرائم فؤاده

وعندي لك الشُّرُدُ السائرا
ت ، لا يختصصن من الارض دارَا
قواف — إذا سرن عن مِقوَلي —
وثبن الجبال ، وخضن البحارَا
ولي فيك ما لم يقل قائلٌ ،
وما لم يسر قمر حيث سارَا
سما بك همّي فوق الهموم ،
فلست أُعُدُّ يساراً يسارَا
ومن كنت بحراً له ، يا عليُّ ،
لم يقبل الدُّرَّ الاّ كِبارَا

في سنة ٣٣٧ كان سيف الدولة (أبو الحسن علي بن أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان العدوي التغلبيّ) قد استولى على أكثر الشام ، ووقف للرُّوم يردُّ غاراتهم على أطراف بلاده ، ويوقع بهم إيقاعاً شديداً ؛ وغلبت مقدرته الحربية كلّ من كان في عصره من القوّاد ورؤوس الفتن التي عملت في انتكاس الدوله العربية وهلاكها ؛ وكان يؤمل له ان يتسع ملكه اتساعاً عظيماً لولا ماكان من الاحداث العظيمة. ثم ماكان في الدولة من دسائس الاعاجم التي فرقت القلوب ، فلم تدع أمةً من الناس الاّ دخلت بينهم ففرقتهم شرّ ممزّق ؛ وجعلت بعضهم على بعض حرباً وفساداً. وأيضاً ما كان من دعوة العلويين لقلب الخلافة التي بالعراق من عباسية سنية الى علوية شيعية ؛ وأيضاً ما كان من الدعوة السرية الجارفة التي كان يقوم بها دعاة الفاطميين . وكانت هذه اشدّ البلايا التي ابتلي بها العالم العربي كله ، إذ أدخلت فيه ما ليس من طبيعته ؛ وقذفت به في ظلماء نهارها من ليلها ، وكان دعاتها قد تفرقوا في كل مكانٍ من سلطان الدولة العباسية ؛ ليوقعوا بين الامراء، وليحوزوا الى دعوتهم فئة غالبة تعينهم على ما يريدون وما يؤملون من إقامة الخلافة الفاطمية ممتدّة من المغرب الاقصى الى ما وراء خراسان

وكان بنو حمدان من شيعة العلويين ، ومن المتحققين بخدمة الدعوة العلوية الاّ انهم كانوا عرباً يدعون الى العلوية للعربية ، لما وجدوا من غلبة الاعاجم على الدولة العباسية ، ولكنهم حين

رأوا ما دخل بين العلويين من فساد الاعاجم ومن الدعوة الفاطمية الجارفة ، وكانوا لا يقرُّون هذه الدعوة ولا يسلمون لاصحابها بالنسبة الفاطمية المكرَّمة — رجعوا فانحازوا الى الدولة العباسية ينصرونها وينصرون الخليفة (النّائم) على كرسيّ الخلافة . هذا ، مع اكرامهم للعلويين وتعظيمهم لهم . وقد أبدى بنو حمدان من الدهاء ، وسعة الحيلة ، وحسن السياسة والتدبير في التوفيق بين عقائدهم العلوية وسياستهم العباسية ، ما لا قبل لاحدٍ من أهل ذلك العصر في الإتيانِ بمثله أو القيام على أقلّ منه . وقد أثبت بنو حمدان بسياستهم تلك أنهم كانوا يريدون إنقاذ العرب والاسلام من الفتن الباغية التي فعلت أفاعيلها لعهدهم في تضييع السلطان العربي ، وانتقالِ الشوكة والعزة الى الحكم العجمي الشعوبي الفاسدِ الطوية، الباغي بكيده الإيقاع بالعرب ودينهم ولسانهم

وكان سيف الدولة خاصة من بين بني حمدان اكثرهم دهاءً واوسعهم حيلة ، وأشدُّهم حبًّا للعرب ودينهم ، واكثرهم سعياً في ردّ الحكومة والسلطان الى العرب ، واعظمهم همة في مساعي المجد لنفسه ولقومه ، واكرمهم خلقاً آسراً ، وكان من بينهم محبًّا للادب ، قائماً على خدمته وكان بطبيعته شاعراً حلو اللسان خفيف الروح يانيَّ الفكر . وكان مبغضاً للاعاجم ولسانهم الذي ارادوا ان يغلبوا به على فارس وغيرها كما فعل بنو بويه

والظاهر ان سيف الدولة كان قد عزم في نفسه ان ينال بهمته غاية الغايات في ضم اشتات البلاد العربية تحت سلطانه وفي ظل حكومته ، وكان اول ما اتخذ من ذلك ان زاحم بمناكبه الاخشيديين في الشام حتى ازاحهم عن اكثرها وردهم الى الرملة ، واستأثر دونهم باكثر البلاد الشاميــة ، حتى هلع منه الاخشيد ، فتزلّف اليه بان زوجه ابنــة اخيه ، ولم يجد ذلك كثيراً ولا قليلاً في اطفاء نار العداوة المستعرة بين الدم العربي والدم الاعجمي الغريب . واستمرّ سيف الدولة في طلب التوسع والغلبة ، ولولا ما لقي من حروب الروم ، وما اجلبوا عليه بخيلهم ورجلهم لكان تمّ له ما اراد ، فان حروب الروم ، قد استهلكت كل قوته ، فلم يجد متسعاً لنيته في توطيد حكمه في الشام ، حتى اذا استجمع أداته واستوفز بقوته ، مال على العراق فرد امر الحكم الى نصابه في يدٍ واحدة لا تضطرب ولا ترجف . وذلك لما كان يرى من تقسم الامر في بلاد الخلافة وضياع السلطان بين الموالي ، وما جرّ ذلك من المذابح المتوالية في كل مدينة من المدن العظيمة ، ومن الفتن المتتابعة في كل ناحية من النواحي . ونحن نظن ان السبب في كثرة غزوات الروم — في عهد سيف الدولة — لبلاد الشام واطرافها ، ان الذين كانوا يفتنون الناس ببغداد من الاعاجم والروم والترك والديلم لينالوا ما يريدون — علموا بأمر سيف الدولة وما اعتزم من الميل عليهم ميلة راية ، فأوعزوا الى ملك الروم ان يقاتله ، واوقعوا في قلبه ان سيف الدولة انما يريد ان يزيل الملك من بين يديه ويغلبه على بلاده ، فتم لهم بذلك ما ارادوا من صرف سيف

الدولة عن غزوهم وتمزيقهم ، واحتلال ارضهم ، وانتزاع السلطان من ايديهم. وكان سيف الدولة على علم بما يبيتون له من المكر ، فكان ينازل الروم ويواقعهم ، ويعدُّ انتصاره وهزيمة الروم انتصاراً لدعوته العربية وهزيمة للاعاجم اصحاب هذا المكر ومن وقع في حبائلهم من العرب الذين لهم سلطان في سلطان هؤلاء . ولذلك كان وقع انتصاره في العراق وما وراء دجلة كوقع الصاعقة على رؤوس رؤوس الفتنة ، والذين تولوا كبر هذا المكر السيء والكيد الخفي . وأجدَّت هذه الوقائع — التي انتصر فيها سيف الدولة على جيوش الروم — عداوة أصحاب السلطان من الاعاجم لدولة بني حمدان فطفقوا يعملون على تفريق شمل من اجتمع الى سيف الدولة وآزره ونصره ممن كان بالموصل والشام وغيرها ، وبذلوا في مسعاتهم أموالاً وذخائر . ولولا ما كان عليه سيف الدولة من الكرم والسخاء وبسط اليد للعافين والمريدين طبيعةً مركبةً في اصل خلقه ، لأعيوه ، ولأخرجوا من سلطانه أكثر من دان له ورضى به وبحكمه ولأعانهم على ذلك ما يرون من المظالم التي ارتكبها سيف الدولة مدة حكمه وسلطانه

هذا . . . . . . وقد كان أبو الطيب — حين دخل أنطاكية قاصداً أبا العشائر في سنة ٣٣٦ عليماً بأمر سيف الدولة ، مدركاً للمكايد السياسية التي أحاطت بالرجل ، خبيراً بحقيقة ما اضطلع سيف الدولة بأعبائه من إيقاظ الهمم العربية ، مستيقناً من أن غرض سيف الدولة فيما فعل إنما هو ضربُ الضّربة القاضية على الفتن التي أوهتْ قوة الدولة العربية وفتّت في عضدها ، وأن الرجل كان قد اتخذ لامره أحكم سياسة وأبرعها وأحسنها وأدقّها وأبلغها في الوصول الى الغرض المطلوب. وكان أبو الطيب نفسه ، يرمي بكل نفسه الى هذا الغرض الذي يسدّد اليه سيف الدولة ، فكان اتفاقهما في الغرض سبباً لاتصالهما وتوافقهما وتفاهمهما ، وما كان بينهما من المودة والحبّ والكرامة. وأخرى أن أبا الطيب — كما وصفناه لك أولاً — كان يرمي ببصره الى (الرجل) ، الرجل الذي تجتمع في رجولته صفات الخير كلها ، وصفات الكمال بأسرها ، كما كان يراها قلبه ويحلم بها فؤاده وأوهامه. والرجل في أحلام أبي الطيب هو صورة مثّلها له ضميره ، من أحقاده وآلامه وثورته. فهو الرجل الضرب الشجاع المستبسل الذي لا يهاب ولا يفتر ، بل يتقحّم ولا يزداد على البلاء الا مضاءً وعزيمة ، وهو الرجل النافذ ببصره وبصيرته إلى اعقاب الامور لا يغبى ولا يغفل ولا ينام ، وهو الرجل المحارب الذي لا ينام ، ولا يصبر على ضيم ولا يقرُّ على ظلم ، وهو الرجل الفتى العربي الذي داخل سياسة عصره فعرف أسرارها ، واتخذ لنفسه مدخلاً ومخرجاً فيها ، وأعمل فكره في إنقاذ أمته ، وجاهد في سبيل ذلك بقلبه وفكره ولسانه ويده . وكانت هذه الصّورة في دم أبي الطيب تدور فيه دوران الدم ، فاذا وجد (الرجل) حنَّ اليه كأشدّ ما تجد من حنين الدم إلى الدم ، وأخلص له ، وبذل له ذات نفسه وضمير قلبه ، فتراه لا يمجّد نفسه في شعره الذي يمدح به (الرجل) ،

بل يبذل كل كريمة من الصفات لهذا الممدوح مضرباً عن ذكر ثورته، تاركاً وعيده وانذاره وتهديده الا ان يحرج كما حدثناك قبل . وقد رأيت فيما مضى ان هذا قد وقع من ابي الطيب حين لقي بدر بن عمار الاسدي، وهو الفتى العربي (الرجل) . وهذه الظاهرة الغريبة في شعر ابي الطيب تدل على انه ما كان يبغي بقوله اكتساب المال وادخاره للعيش ومرافق الحياة، بل كان يريد ان يحقق آماله التي يسعى اليها في رد السلطان لقومه العرب الامجاد . ولهذا تجد الرجل لم يقر سنوات في جوار احد الا في جوار هذين العربيين (بدر بن عمار، وسيف الدولة)، وذلك لما كان يرى منهما من الجهاد في سبيل الغرض الذي انطوت عليه جوانحه . وكان سريع الفراق لمن مدح غيرهما، إما لانه لم يجد عندهم عزماً إذا كانوا من العرب، وإما لانه انما مدح بشعره للإجازة والمال الذي هو ملاك كل عمل إذا كانوا من غير العرب . فهذا موضع قوله في شعره لابي العشائر الحمداني

فسرت اليك في (طلب المعالي) وسار سواي في (طلب المعاش)

قالوا .... « كان أبو العشائر والي انطاكية من قبل سيف الدولة، فلما قدم سيف الدولة الى انطاكية، قدم المتنبي اليه، وأثنى عنده عليه، وعرفه منزلته من الشعر والادب، وذلك في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة، فاشترط المتنبي على سيف الدولة — اول اتصاله به — أنه — إذا انشده مديحه — لا ينشده الا وهو قاعد، وأنه لا يكلف تقبيل الارض بين يديه، فنسب الى الجنون . ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط، وتطاع الى ما يرد منه، فلما انشده قصيدته الاولى التي اولها « وفاؤكما كالربع اشجاهُ طاسمه »، حسن موقعه عنده فقربه، وأجازه الجوائز السنية، ومالت نفسه اليه وأحبه، فسلمه الى الروّاض فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة »

ونحن لا نسلم بكل ما ورد في هذا النص ولا نثق به إذ كان مرويًّا عن غير ثقة مأمون معروف، وانما هو مما يتداوله الادباء على علاته دون نقد او تجريح، ويحسن بنا ان نحدثك عن نقده قليلاً، فان في النقد بركة وخيراً ليست لشيء من الكلام

فأول ذلك، ان هذا اللقاء في سنة ٣٣٧ بين سيف الدولة وأبي الطيب لم يكن اول لقاء، ولم يكن اول تعارف بينهما، فقد حدثناك قبل انه لقي سيف الدولة وأحبه، وأحبه سيف الدولة في سنة ٣٢١ حين مدحه المتنبي بعد مخرجه من الكوفة متوجهاً الى الشام، وكان لقاؤهما برأس عين من ارض الموصل الذي كان يدين لبني حمدان بالطاعة إذ ذاك . ولا شك ان سيف الدولة، وكان إذ ذاك صغيراً لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره، قد فرح بمدح ابي الطيب له، وأبقى ذلك أثراً في نفسه يجعله يتتبع شعر هذا الفتى العربي ومصيره . فهو كما ترى كان على معرفة به وبأدبه وشعره ومنزلته من الشعر والادب، هذا فضلاً عما استنبطناه هناك من العلاقة بين بني حمدان وأبي الطيب

وجدته ، وانهم كانوا يفضلون عليها ويكرمونها ، وأنهم كانوا على علم بما اصابها من نكبتها في ابنتها وحفيدها

وأخرى ، . . ان النص يقول إن أبا العشائر قدَّم المتنبي الى سيف الدولة « وعرفه منزلته من الشعر والادب » وهذا عجيب من امر سيف الدولة الاديب الشاعر السياسي المطلع على كل ما كان في البلاد العربية ، المتتبع لكل حدث في السياسة والادب ، عجيبٌ أن لا يكون قد وصل اليه طرف من شعر ابي الطيب يعرف منه منزلته في الشعر والادب ، فيأتي ابو العشائر فيعرفه تلك المنزلة ! !

وثالثة : أن النص يقول ان سيف الدولة قد دخل تحت شروط المتنبي حين اشترط عليه انه لا ينشده الاّ وهو قاعد ، وأنه لا يكلف تقبيل الارض بين يديه . ونحن لا ندري لماذا يدخل سيف الدولة تحت هذه الشروط ، ولا نعرف لماذا اشترط أبو الطيب هذه الشروط .... إذا كان قد جاءه على غير معرفةٍ متصلة بينهما ، وكان قد جاءه مستميحاً طالباً رفده وماله وفواضله . وهلاَّ أجل ذلك الى اجله ، فيمدحه وينشده حتى اذا حسن موقعه عنده ، اشترط عليه ما يريد ، فيتقي بذلك سوء الرد ، وينال بالاذن له بما يشترط رفعة تكبت حساده ، وتغيظ عداته ، ويكون فعله هذا ادل على حسن سياسته ، وسعة حيلته ، ويكون اشبه بتدبير أبي الطيب كما مر بك في مواضع من كلامنا ! !

والرابعة : ان في النص كلمة يراد بها النض من ابي الطيب وتحقيره ونسبته الى الجفاء والغلظة والجلافة ، إذ زعم واضعها ان سيف الدولة سلم أبا الطيب « الى الروّاض فعلموه الفروسية والطراد والمثاقفة » . فقد كان أبو الطيب قبل اتصاله بسيف الدولة فارساً محارباً ولا شك ، وكان قد اتصل بكثير من اصحاب السلطان وأصحاب الفروسية والطراد والمثاقفة ، وقد مرَّ بك انه كان قد دخل لبنان وشارك في الطراد والصيد ، وكذلك حين كان في جوار بدر ابن عمار وغيره ممن مدح ، ولا نظن ان أبا الطيب كان قد طوى هذه السنين كلها بالشام ، مع ما كان فيه من العجب بقوته وفروسيته وذكر ذلك في شعره ، ثم لم يأخذ نفسه بتعلم ذلك او المشاركة فيه — مع أنها كانت من الانتشار والذيوع بمكان لا يجهل

فهذه الرواية — كما ترى لا تصلح ان تكون سياقاً للقاء ابي الطيب سيف الدولة . واعلم ان اكثر ما يروى في ترجمة هذا الرجل وغيره من الرجال ، انما كان من الاحاديث التي تتناقلها مجالس الادباء ، ولا يراد بها التحقيق ولا ينظر فيها الى صدق الرواية وسياق التاريخ وما الى ذلك ، بل ان كثيراً مما يروى في تراجم رجالنا كان مما يراد به مضغ الكلام في مجالس الامراء او في سامر الادباء . — هذا على انها ربما حملت فيما تحمل اشياء لولا ورودها في هذه

النصوص لافتقدنا من حلقات التاريخ حلقات لا ينتظم امره الاَّ بها ولا يستمر الاّ عليها . فلمثل هذا كان لا بد لنا من النظر في النصوص وتمييزها ، ورد بعضها والاخذ ببعض ، حتى لا تتقطع بنا السبل في الترجمة لهؤلاء الاعلام . فلا يفوتنك هذا اذا قرأت ما نكتب ، او اردت انت ان تقرأ او تكتب

والسياق التاريخيّ عندنا للقاء أبي الطيب سيف الدولة هو ما ترى :

نزل ابو الطيب ضيفاً على أبي العشائر ، يمدحه ويخبره ويروز ما عنده من الهمة ، وما في هذه الهمة من المطالب ، وما في مطالبه من الموافقة لما في ضميره من الآراء والاحكام . وكان يريد بذلك ان يكون على كثب ومقربة من بني حمدان (الذين منهم أبو العشائر) ، ليحقق في نفسه ماعرف عنهم من خبر ، وليرى رأيه في البقاء معهم أو مفارقتهم ضارباً في الارض على ما كان عليه من قبل حتى يأذن الله له ، ويأتيه بالمواتي الموافق الذي يستطيع ان يهب له قلبه وحبه ، ورأيه وحكمته وتجربته وخبرته ، وآراءه في السياسة الدولية التي كان جاهداً في معرفة خفياتها ومضمراتها طول حياته . وكان يخصُّ بارادته هذه سيف الدولة وهو عَلَمُ بني حمدان اذ ذاك ، والمستولي على الأمد من رجال عصره، والذي عهد فيه ابو الطيب حين رآه في سنة ٣٢١ رجولة متحفزة للوثبة، وسمع من اخباره ما يكاد يحقق نبوءته في ظفره وفلجه على خصومه وخصوم أبي الطيب نفسه

وبقي أبو الطيب سنة في ظل أبي العشائر ، وكان فتىً من فتيان بني حمدان ، قد جمع أداة الفتوة ولم يستكملها ، وكان اديباً مقتدراً مولعاً بالادب ، مبجلاً للادباء عاطفاً عليهم معيناً لهم ، وكان شاعراً تقع له الدرة الجميلة في شعره ، والنادرة البديعة، غير متعمد ولا جاهد . وأحب ابو الطيب صاحبه أبا العشائر ، واحبه ابو العشائر واكرمه واضفى عليه من كرمه ولينه وحنانه ، وقد حفظ له ابو الطيب هذه اليد التي له عنده ، حتى انه لما غضب عليه بعد — لامر سيأتي ذكره فيما يستقبل من كلامنا —وارسل الى ابي الطيب بعض غلمانه ليوقعوا به وهو بظاهر حلب ورماه احدهم بسهم اخطأه ، وقال له وهو يرميه : خذه ، وانا غلام ابي العشائر -- لم يحفظ ذلك أبا الطيب على أبي العشائر ، ولم يستدع هذا العزم على قتله هجاءه أبا العشائر ، بل قال ...

ومنتسب عندي الى من احبُّه ‍ ‍ ‍ ‍ وللنَّبل حولي من يديه حفيفُ
(فهيَّج من شوقي—وما من مذلّةٍ ‍ ‍ ‍ ‍ حننت — ولكن الكريمَ أَلوفُ)
وكل وداد لا يدوم على الاذى ‍ ‍ ‍ ‍ —دوام ودادي للحسين—ضعيفُ
(فان يكن الفعل الذي ساء واحداً ‍ ‍ ‍ ‍ فأفعاله اللائي سررنَ أُلوفُ)
ونفسي له — نفسي الفداء لنفسه — ‍ ‍ ‍ ‍ ولكنَّ بعض المالكين عنيفُ
(فان كان يبغي قتلها —يكُ قاتلاً ‍ ‍ ‍ ‍ بكفيه— فالقتل الشريف شريفُ)

وهذه الحادثة وما كان من أبي الطيب فيها، وما قال من الابيات السالفة دليل قاطع على ان الرجل كان إذا أحبّ وأخلص الحبَّ لم يحوّله شيءٌ عن حبّه، وأن هجاءَه الذي كان منه لبعض من مدحهم، إنما كان منه لانه لم يكن يضمر لهم حبًّا ألبتّة، بل كثيراً ما كان يخفي بين جنبيه احتقارهم وازدراءهم، ولولا الضرورة لما مدحهم ولا قصدهم ولا وقف بأبوابهم. وهي أيضاً دليلٌ على ما قطعنا به — في موضعٍ من كلامنا — من أن أبا الطيب كان ودوداً ألوفاً، كريم الخلق، وفيًّا لمن وفى له وأحبّه وباذلهُ الودّ. وقد صدق صاحبنا إذ وصف نفسه يوماً ما فقال

خلقتُ ألوفاً، لو رجعتُ إلى الصِّبا لفارقتُ شيبي مُوجَعَ القلب باكيا

وهذا موضعٌ من أخلاق أبي الطيب ونفسيته ينبغي الوقوف عنده وتدبره، إذ كان كثيراً ما يعترض به المعترضون حين يذكرون أخلاقه، حتى أنهم من اضطرابهم في فهم أخلاق الرجل ونفسيته رموه هو بالاضطراب والملل في الصداقة والودّ، وليس الامر على ما ظنوا، بل هو كما ترى في كلامنا هذا. ورحم الله أبا الطيب، فقد حمل من نكد الدنيا في حياته وبعد موته ما لَقي من أرزاء

هذا . . . ، وقد لقي أبو الطيب وهو في جوار أبي العشائر — كما حدثناك في الباب السابق — كيداً كثيراً، وتقوَّل عليه المتقوّلون ما شاؤوا، وآذوه وكثّروا عليه الوشاية والسعاية، وغَرُوا بذمه وثلبه، وكان ما زعمناه من تشهيرهم به إذ نبزوه باللقب الذي عرف به بعد وهو (المتنبي). ولم يكن كل ذلك مما يرد أبا الطيب عن غايته التي قصد من أجلها أبا العشائر فبقي صابراً حتى كانت سنة ٣٣٧

ففي جمادى الاولى من هذه السنة قدم سيف الدولة — من حربه مع الروم وظفره بحصن بَرْزَوَيْه — إلى أنطاكية التي كان بها أبو العشائر وأبو الطيب، فاستقبله أبو العشائر، وأبلغه ما كان من مقدم أبي الطيب عليه، وإكرامه له، ووصف له ما حَسُن عنده من خلق أبي الطيب، وما وجد فيه من الفتوّة والمروءة، وما أعجب به من حسن عشرته، وجميل أدبه في المنادمة والمسامرة، وما عليه أبو الطيب من الطبيعة الثائرة الجبّارة، وما انطوى عليه قلبه من محبّة العرب وبغض الاعاجم، وما سمعه من آرائه في سياسة الأمة، وما ابتليت به من البلاء الاعجميّ والفتن الآكلة رطب الحياة العربية ويابسها، وذكر له شعره الذي مدحه به . . . . فذكر سيف الدولة ذلك الفتى العربي الصبوح الوجه الحسن السَّمت صاحب الوفرة المسترسلة التي تسيل الى شحمتَيْ أذنيه، ذكر ذلك الذي أنشده مديحه في سنة ٣٢١ وهو يتدفق بفصاحته وبيانه، ويتقلع بقوته وشدّته وحماسته وحدّة شبابه، ذكر سيف الدولة تلك الشخصية الطاغية بسحرها وجمالها

وجلالها ، والتي لا تدع للنسيان في الذاكرة يداً ماحية أو مفسدة . . . وقد كان أبو الطيب كما وصفوه « رجلاً يملءُ العين . . . . قويًّا بديناً خليقاً شخيصاً، عادي الخلق ، قوي الاساطين ، وثيق الاركان ، جيد الفصوص ، فيه جفاءٌ وخشونة » . ذكرهُ سيف الدولة واستيقظت في قلبه المحبة النائمة في غوره ، وتجمعت له اخباره التي كان قد سمعها عنه من سنة ٣٢١ إلى هذه السنة. فتقدّم الى ابي العشائر ان يستدعيه لساعته ، شاكراً له حسن وفادة الرجل واكرامه له

وكذلك لاقى العربي الثائر الشاعر الفذ ، العربي الفاتح الغازي المجاهد الفذ ، على شوق وحنين ، وحن الدم الى الدم ، وعلقت النفس بالنفس ، وتعانقت القلوب في ساعة من غفلات الدهر — اخرجت كلا الرجلين عن طوره . وكان هذا اللقاء الثاني فاتحة مجد ابي الطيب وخلود ذكر سيف الدولة في شعره وبيانه

وفي هذا اللقاء التاريخي الذي انتفضت فيه القلوب ، ورمت بأسرارها وأشواقها ، ثارت نفس الرجل البليغ ، واجتمعت لها كل حوادثها وما مر بها من الاهوال ، في مجلس امير العرب الفاتح المجاهد الظافر ، وتقاذفت المعاني من قلبه الى لسانه ، ووقفت محبوسة في هذه الابيات التي ضمها الشاعر الى قصيدته بعد في مدح اميرهِ وأمير قومه (١)

سلكتُ صروف الدهر حتى لقيتـه   على ظهر عزم مؤيدات قوائمهْ
مهالكَ لم تصحب بهـا الذئبَ نفسُهُ   ولا حملت فيها الغراب قوادمُهْ
(فأبصرت بدراً لا يرى البدر مثله   وخاطبت بحراً لا يرى العبر عائمُهْ)

ثم قال البيت الذي تنازعته كل عواطف قلبه ، ونوازع فؤاده، وآراء فكرهِ ، وفصح بيانه

(غضبتُ له لما رأيت صفاته   بلا واصفٍ، والشعر تهذي طماطمـهْ)

وكان ذلك بدء المجد الخالد الذي بقي للعرب في صفة امير فذ من امرائهم ، رد به القدر عادية الروم عن بلد من بلادهم ، لا يزال معقلاً للعرب والعربية الى يوم الناس هذا ... ألا وهو الشام الذي يضم فلذة اكباد الفاتحين من المهاجرين والانصار ، ومن سبقهم اليها في الجاهلية من الغرانيق الصباح من بني غسان ، وكان ذلك ايضاً بدءَ المجد الخالد للسان العربي ، والفكر العربي الصريح في ديوان شاعر فذ من شعراء العربية ، لم يرزق الشعر ولا الحكمة مثله ذا لسان وبيان . . . . ألا وهو أبو الطيب المتنبي واحد الشعراء الذي جاء (فملأ الدنيا وشغل الناس)

ولا بدّ لنا من الوقوف قليلاً عند هذا الموضع من الكلام ، وندع صفة ما نحن فيه من لقاء الاسدين العربيين الفاتحين . زعمنا لك فيما مضى أن تلك الابيات الاربعة كانت مما ثار في قلب أبي الطيب في هذا المجلس الاول، قبل أن يحتفل بيانه لقصيدته الاولى التي أنشدها سيف الدولة في

(١) انشد ابو الطيب هذه القصيدة في مجلس آخر غير هذا المجلس الذي وصفناه لك

تلك السنة وهذا موضع تدبر وبصر، لانحبُّ أن ندعه قبل أن نسوق اليك من أخباره طرفاً حتى تنهج لنفسك نهجاً متقارباً يعينك على استخراج أسرار أبي الطيب، واستنباط ما كان يلجُّ في نفسه من العواطف... بلى، وهو عندنا قانونٌ من قوانين شعر أبي الطيب ونفسه تستطيع به أن تعرف خفيات ما في شعره من ضمائره ومبهماته. هذا، وسنكشف لك عنه فيما يستقبل كشفاً مبيناً إن شاء الله (١)

كان أبو الطيب على ما وصفنا لك من قوّة النفس، وحدّة الطبيعة، مرهف الحسّ، سريع التأثر، تنطلق عواطفه كلها في ساعة من ساعات حياته، فلا تلبث أن تستثير كل قوّة فيه، وتجمع كلُّ قواهُ حين ذلك ماضية من قلبه الى لسانه لتثبت عليه عدد هزات الزلزلة التي وقعت في قلبه ونفسه، ويفزع لسانه إلى بيانه ليبين عنه ما ينبغي من الإبانة، فيحتفل بيانه كله في أبياتٍ قليلةٍ تكون هي أول القصيدة عند أبي الطيب، ثم يدخرها صاحبنا لأجلها وموضعها، فيثبتها في مكانٍ من شعره. وكثيراً ما تقع هذه الابيات في موضعٍ لا تتساوق فيه معاني الكلام على قاعدة مطّردةٍ من حق المعنى وتتابُعه، فلذلك تبقى هذه الابيات التي تحمل في ألفاظها هزات نفسه واقعةً بين كلامين، ولا تكون هي صلةً بينهما، بل تكون كالفارقِ الفاصلِ. وهذا هو ما نسميه في شعر أبي الطيب موضع (الانتقال). ومن مواضع الانتقال هذه تستطيع أن تستنبط الحالة النفسيّة التي كان عليها الرجل. فإذا تبصّرت فيها، واستخرجت معانيها، وفصّلت كلامها وألفاظها، وفسّرته على الاصول الشعرية والنفسيّة القائمة في شعر أبي الطيب ونفسه كما قدّمناها لك — استطعت أن تلمّس في ظلامِ التاريخ الحلقاتِ التي ينبغي لك أن تصل بعضها ببعضٍ، فيسري التيّار بينها فتضيء لك، فتتكشف المعاني في شعر الرجل، وتتبيّن المواضع الغامضة المظلمة من حياته.... وهذه هي الطريقة التي اتبعناها فيما كتبنا مما مضى بك، وقد تحققنا صدقها، وإسعادها في المشكلات التي وفّقنا إلى تفسيرها أو نقدها أو تمييزها

ويجمل بنا هنا أن نعود بك الى الابيات التي ذكرناها، ونبيّن ذلك فيها..... ونسألك أن تعذرنا اذا قصّرنا، وأن تسدّدنا إذا أخطأنا، وأن تصبر على ما نستطرد فيه من الكلام بصبر لا يفتُّ منه الملل، فلا حكم لملول ولا متترّع

يقول ابو الطيب قبل الابيات التي رويناها لك يصف سيف الدولة

له عسكرا خيل وطير، اذا رمى ... بها عسكراً لم يبق الاّ جماجمهْ
أجلّتها — من كل طاغٍ — ثيابه ... وموطئها — من كل باغ — ملاغمهْ

. . . .

(١) انظر لذلك الباب الثالث عشر من حديثنا عن المرأة التي صنعت لأبي الطيب حكمته، وأمدت بيانه ببيانها النسوي البليغ

سحابٌ من العقبان يزحف تحتها سحاب إذا استسقت سقتها صوارمهْ

ثم (ينتقل) أبو الطيب من ذكر الحرب ، وصفته جيوش سيف الدولة ، وما كانت تأتي به من اهوال الحرب ، وما يكون منها في ساحات الوغى فيقول غير متخلص الى غرضه — على ما يريد علماء البلاغة!! من حسن التخلص فيقول يصف نفسه وما لاقى هو من الاهوال والمهالك

سلكت صروف الدهر حتى لقيته على ظهر عزم مؤيدات قوائمه

الابيات الاربعة التي آخرها

غضبتُ له لما رأيتُ صفاتِهِ بلا واصفٍ ، والشعر تهذي طماطمهْ

ثم (ينتقل) بعد هذا البيت انتقالاً آخر فيقول يذكر نفسه ورحلته

وكنت اذا يممت ارضاً بعيدةً سريت فكنت السرّ والليل كاتمهْ

ثم (ينتقل) ايضاً بعده فيذكر سيف الدولة . . . فيقول

لقد سل سيفَ الدولة المجدُ معلما ، فلا المجد مخفيه ، ولا الضرب ثالمهْ

فاهذه الانتقالات المتالية وقفنا عند الابيات الاربعة التي قدمناها ، وتبصرنا فيها وفي معانيها ، وفي دلالات ألفاظها واحدة واحدة ، ورددنا البصر الى مقدم أبي الطيب الى انطاكية في جوار ابي العشائر سنة ٣٣٦ ، ثم مقدم سيف الدولة اليها في سنة ٣٣٧ ، ثم في اللقاء الذي رووْا خبره على علاته ، ونفضنا الابيات ومعانيها وتلمسنا الحلقات في ظلام التاريخ والترجمة ، فوصفنا لك اللقاء الذي كان في تلك السنة بين ابي الطيب وسيف الدولة ، ونحن تنظر بعين لا تحسر الى ما قدَّمنا من التاريخ في صدر هذا الباب ، وما عرفنا من خلق ابي الطيب وآرائه واغراضه وآماله ، وما وقفنا عليه من خلق سيف الدولة وآرائه واغراضه وآماله ، ثم حكمنا كما رأيت انها كانت اول ما قال ابو الطيب من قصيدته تلك وأتممنا الرأي على ذلك ، واعتمدناه وسرنا على بركة الله . فانظر ماذا ترى (١)

ثم نعود الى ما كنا فيه . . . . . . لقي ابو الطيب سيف الدولة ، وخرج من مجلس امير العرب ، وهو يقول كما قال اولاً في بعض من مدح بأنطاكية

مفدًّى بآباء الرجال ، سميذعاً هو الكرم المد الذي ما له جزرُ

وما زلت حتى قادني الشوق نحوه يسايرني في كل ركب له ذكرُ

واستكبر الاخبار قبل لقائه فلما التقينا ، صغَّر الخبرَ الخُبْرُ

(١) اعلم اننا اذا أردنا ان نقفك عند لفظ لفظ من الابيات ، ونكتب لك الرأي كله مقيداً ، لطوينا بذلك ورقات من هذا الحديث ، ولكان ذلك قاطعاً لنا عن اتمام هذا العدد من المقتطف . فلا بد لك اذن من النظر ، ثم النظر ، ولعلك بالغ بقوتك ما لم نبلغه بضعفنا وفقنا الله واياك

واحتفلت نفس الشاعر الثائر البالغ لهذا اللقاء، ونسي نفسه وما كان يذكرها به من القوة والفتوة، وما كان طول عمره يصفها به من صفات الرجولة والكمال، ووجد آماله في آمال سيف الدولة، وآراءه في آرائه، وعواطفه في عواطفه، فألقى في مديح (الرجل) كل نفسه وآرائه وأفكاره وعواطفه وألغى ذكر نفسه، ورمى بين يدي سيف الدولة الدرة الاولى في تاج بني حمدان مشرقة متلألئة تسطع وتتضوأ. وفي هذه القصيدة الاولى التي اولها «وفاؤكما كالربع اشجاه طاسمه» رجعت الى ابي الطيب قوة التصوير والتمثيل فرسم صورة سيف الدولة كأحسن ما تأتي من بنان مصور صَنَع لبق مبدع، ووصف المجلس الذي كان فيه سيف الدولة كأنك تراه. وذلك انه دخل عليه وقد جلس في فازة [١] من الديباج عليها صورة ملك الروم، وصور رياضٍ بدوحها وطيرها ووحشها وحيوانها. فكان مما قال في صفة تلك الفازة والاسد المقعي في ذراها

وأحسن من ماء الشبيبة كله حيا بارقٍ في (فازة) أنا شائمهْ
عليها رياض لم تَحُكْها سحابة وأغصان دوحٍ لم تغنِّ حمائمهْ
وفوق حواشي كل ثوب مُوَجَّهٍ من الدرّ، سِمط لم يثقّبه ناظمهْ
ترى حيوان البر مصطلحاً به يحارب ضدٌّ ضدَّه ويسالمهْ
إذا ضربته الريح ماج، كأنه تجول مذاكيه، وتَدْأى ضراغمهْ [٢]
وفي صورة الرومي ذي التاج ذلة لأبلجَ، لا تيجان إلاّ عمائمهْ
تقبل أفواه الملوك بساطه ويكبر عنها كمّه وبراجمهْ [٣]
قياماً لمن يشفي من الداء كيُّهُ ومَنْ بين أذني كل قرم مواسمهْ
قبائعها تحت المرافق هيبةً وأنفذ مما في الجفون عزائمهْ [٤]
له عسكرا خيل ورجلٍ اذا رمى بها عسكراً لم يبق إلاّ جماجمهْ
أجلّتها من كل طاغٍ ثيابهُ وموطئها من كلّ باغٍ ملاغمهْ
(فقد ملّ ضوء الصُّبح مما تُغيرُه وملّ سواد الليلِ مما تزاحمهْ)
(وملّ القنا مما تدقّ صدوره وملّ حديد الهند مما تلاطمهْ)

. . . .

(١) الفازة: المظلة تقوم على عمود في وسطها. وهي اشبه بما يتخذه الناس في يومنا هذا على شواطىء البحار

(٢) يصف الخيل (وهي المذاكي) والاسود وهي تختل صيدها من الظباء النافرة

(٣) البراجم: مفاصل الاصابع

(٤) القبائع: ما يكون على قوائم السيوف من الحلي، يعني السيوف المحلاة بالذهب والفضة

لقد سلّ سيفَ الدولة المجدُ معلماً فلا المجدُ مخفيهِ ، ولا الضربُ ثالمهْ
على عاتق الملكِ الاغرّ نجادهُ وفي يدِ جبّار السموات قائمهْ
تحاربه الاعداءُ ، وهي عبيدهُ ، وتدّخرُ الاموالَ ، وهي غنائمهْ
ويستكبرون الدهرَ والدهرُ دونه ، ويستعظمون الموت، والموت خادمهْ
وإن الذي سمّى علياً لمنصفٌ وإن الذي سمّاهُ سيفاً لظالمهْ
وما كلُّ سيفٍ يقطع الهامَ حدُّه وتقطع لزباتِ الزمان مكارمهْ

فاقرأ ثم اقرأ ثم تدبر ثم عُدْ إلى النهج الذي أشرنا اليه في الحديث عن بدر بن عمار ، ووصفه الأَسد هناك ، وقارن بين ما ترى هنا وما ترى ثمَّ تجد التقارب بيّناً واضحاً ، والنفس الشعري البليغ العظيم ممتدّاً من زمان بدرٍ إلى هذا الزمان غير منقطع ، وتدبر هذه الابيات الاخيرة وما وسمها به أبو الطيب من ميسمه الذي يتلذع بنار قلبه ، والذي صار علامةً بيّنةً في كل شعره الذي قاله في سيف الدولة بعد هذا . وفي الذي قدّمنا ذكره وما أشرنا اليه كفاية للبصير المتدبر

وبقي سيف الدولة بأنطاكية أشهراً من سنته تلك ، وأبو الطيب الى جواره وفي مجلسه ، وبين أصحابه وفي ركابه . واستصفاه سيف الدولة ومنحه بشره وقربه ، وامتدّ الحديث بينهما في بعض الخلوات عن شؤون الدولة وما وقع فيها ، وما ادركها من الضعف والوهن ، وما كان لوقته من أسباب ذلك . ورأى سيف الدولة ان محدّثه رجل داهيةٌ بصيرٌ محنَّك قد نجّذته الحوادث ، وله رأيٌ ومعرفةٌ وأسرارٌ قد استجدّها بعد اللقاء الاول في سنة ٣٢١ ، فضلاً عما كان يعرفه — فيما زعمنا — من نكبته الاولى في نسبة من قبل العلويين أصحاب الامير بالكوفة ، فزادهُ قرباً وكرامةً ومحبّةً ، لم ينل مثلها شاعرٌ من أمير ، وكان ذلك عجباً في أنطاكية وغيرها ، لما عرف من صرامة سيف الدولة وتحرزهُ وتشدُّدِه حتى على الكثير من أهله . فانظر إذا أردت الى ما كان بين سيف الدولة وأبي فراس الحمداني ، فإن القرابة والرحم لم تنفع أبا فراس في القرب من سيف الدولة — مع أنه كان متحققاً بخدمته ، ذاهباً في طاعته ومرضيته ، حامياً لحقيقته ، مفدّياً له في حروبه وغزواته بنفسه ودمه ، ممجّداً له في شعره ، مخلّداً ذكر غزواته وحروبه — كلّ هذا لم يقرّب أبا فراس من سيف الدولة قرب أبي الطيب منه ، مع تقدُّمهما في الشعر والادب ، ومع ان أبا فراس كان اولى بالتقديم والتكريم من أبي الطيب لحسن بلائه في الحرب وقدم عشرته لسيف الدولة ، وسبقه في تمجيده وتخليد ذكره وذكر حروبه . فلذلك نقول لك ان تقديم سيف الدولة أبا الطيب على سائر شعرائه المستظلين بظله ، والمبتدرين في طاعته وخدمته ، لم يكن من اجل الشعر وحده وحسب . بل للذي بلاه سيف الدولة من آراء ابي الطيب وافكاره وعواطفه في الامور السياسية التي كان يسعى في تحقيقها وإتمامها والقيام عليها بسيفه وخيله ورجله ، ورجاله

المحنكين من ذوي الدهاء والخبرة والمعرفة والعلم . وقد قدمنا ذكر مطالب سيف الدولة في اول هذا الباب [١]

ثم عزم سيف الدولة الرحيل عن انطاكية الى حلب مقر حكمه ، ولكن ابا الطيب لم يستطع ان يصحبه في رحيله هذا ، فعزم عليه سيف الدولة ان يلحقه بحلب . وعندنا ان الذي عاق أبا الطيب عن صحبة سيف الدولة في هذا الرحيل امرٌ يخصهُ هو، وليست له فيه ارادة . وقد قلّبنا الرأي في شعر المتنبي في تلك الفترة وما بعدها بقليل ، وتدبرنا كلام الرجل على الاصول التي قدمنا لك منها اطرافاً في كلامنا ، وظفرنا باشياء دلتنا على ان هذا الامر الذي عاقه كان مما يقطع في قلبه ويوجعه في عواطفه . وتبين لنا ان هذا الامر هو مرض زوجته والظاهر انها كانت حاملاً ثم جاءها المخاض فأعضلت وعسرت ولادتها ثم رمت ذا بطنها وماتت ، وكان مرضها ذلك في حماها وما تركت له وراء ظهرها — ولعلّه مات بعد اشهر قبل ان يستمسك — هو الذي منع ابا الطيب ان يصحب سيف الدولة يوم رحيله من انطاكية

وتأويل ذلك ، ان ابا الطيب كان ولا شك عازماً على رفقة سيف الدولة ولولا ما فجئه مما لا حيلة له في رده لفعل . فانه حين أزمع سيف الدولة الرحيل عن انطاكية قال له أبو الطيب

نحن من ضايقَ الزمان له فيـك ، وخانتـه قربك الايامُ

وقال ايضاً في يوم رحيله وقد كثر المطر وكاد يعوقه عن عزيمته

رويدك أيها الملك الجليلُ تأنَّ ، وعُدَّه مما تنيلُ
وجودَك بالمقام ولو قليلاً فما فيما تجود به قليلُ
لأَكبتَ حاسداً وأرى عدوًّا كأنهما وداعك والرحيلُ

فهو في البيت الاول يذكر ما يبتليه به الدهر من العوائق، وما يضايقه به من الارزاء التي تحول بينه وبين ما يروم من صحبة سيف الدولة والقرب منه ، وقد خصَّ نفسه بذلك اذ يقول « نحن من ضايق الزمان له فيك » . ولا نظنُّ أن قد كان إذ ذاك ما يمنع أبا الطيب من الرُّفقة إلاّ ما يخرج عن إرادته ، ويقع بينه وبين عزمه . فلما كاد المطر يعوق سيف الدولة، بان الفرح في كلام أبي الطيب مقروناً بالحسرة لما يعلم من أن ذلك لن يقطع فيما أبرم من عزمه ، فسأله أن يبقى قليلاً بأنطاكية ، وتعلّل له بعلّته التي ذكرها . وكان أبو الطيب إذ ذاك متأثراً بالحالة التي عليها امرأته ، فوقع في بيتٍ من قصيدته الاخيرة التي ذكرنا أولها ما يدُل على ما في نفس الرجل من آثار ما كان فيه من الكرب على عادته التي أسلفنا بيانها في مواضع فقال لسيف الدولة

(١) تلبث تجد بقية الحديث بعد قليل في هذا الباب ، فاجعله منك على ذكر

فلو جاز الخلودُ خلدْتَ فرداً (ولكن ليس للدنيا خليلُ)

فهذا الحزنُ الغالب على الشطر الاخير ، والتمثّل في كلماته ، وفي عبارته عن المعنى الذي أرادهُ حين استدرك بقوله « ولكن » ، بعد ما كان من فرحه وطربه وتدفق نفسه بالآمال ، واستبشاره ببقاء سيف الدولة ، والذي كشفت عنه قصيدته الاولى « وفاؤكما كالربع أشجاهُ طاسمه » على ما مضى في كلامنا — يدُل على أن الرجل كان قد أدركه ما أحزنه وغمّ قلبه ، وردّ عليه فرح نفسه غمّاً وحسرةً وتشاؤماً من الدنيا ، وما يكون فيها من بلايا الدّهر بالفراق والموت . وهذا بيّنٌ كما ترى

وانتقل أبو الطيب — بعد موت امرأته بقليل — من أنطاكية إلى حلب ، ثم ماتت والدة سيف الدولة فقال له في عزائه قصيدته المشهورة ، وأوّلها من دموع أبي الطيب التي كان يبكي بها ، وقد جاء فيها

نصيبكَ في حياتك من حبيبٍ نصيبك في منامكَ من خيالِ
رماني الدّهرُ بالارزاء حتى فؤادي في غشاء من نبالِ
فصرْتُ إذا أصابتني سهامٌ تكسّرتِ النصالُ على النصالِ
وهانَ فما أبالي بالرزايا (لأني ما انتفعتُ بأن أبالي)

. . . .

(يدفّن بعضنا بعضاً وتمشي أواخرنا على هامِ الاوالي)

وهذا الحديث عن نفسه ومصائبها ورزاياها ، وما فيه من الحزْن الغالب على عقله وعواطفه بعد الذي كان من أفراحه ، دليلٌ على ما قدمنا من أن الرجل كان قد أُصيب وابتلي ببلاء آلمه وحزّ في قلبه ، لا يزال يدفعهُ إلى القولِ الباكي الحزين . ثم يستمرُّ على ذلك في شعره مدّةً ، فإنه في هذه السنة نفسها (سنة ٣٣٧) قال وهو يمدح سيف الدولة ويذكر استنقاذه أبا وائل تغلب بن داود بن حمدانِ من أسر الخارجي

تفكُّ العناةَ ، وتُغني العفاةَ ، وتغفرُ للمذنبِ الجاهلِ
فهنّأكَ النصرَ معطيكهُ وأرضاه سعيُك في الآجلِ

يعني سيف الدولة — وكان حق الشعر ان يقف به أبو الطيب عند هذه الدعوة الصالحة بالظفر الذي كان ، والعمل الصالح فيما يستقبل . ولكن نفس الرجل كانت مضطربة متأثرة ، قد غلبها الحزن . وغمّها الدنيا (التي ليس لها خليل) بما جلبت عليها من ارزاء ومصائب ، فانتقل على عادته غير متخاص ولا حافل (بالمناسبة ومقتضى الحال) فقال في عقب البيتين

(فذي الدار أخون من مومسٍ وأخدع من كِفّةِ الحابلِ)
تفانى الرجالُ على حبها وما يحصلون على طائلِ

فأنت ترى ان هذه المعاني التي قيدناها لك ، آخذ بعضها برقاب بعض ، على طراز لا يختلف من الحزن والكرب . هذا ، وقد كان سيف الدولة سأل ابا الطيب بعد ذلك ان يسير معه الى الموصل لما ازمع هو المسير الى نصرة اخيه ناصر الدولة ، فاعتذر له ابو الطيب عن المسير معه بقوله

كن حيث شئت فما تحول تَنُوفةٌ دون اللقاء ، ولا يَشُطُّ مَزارُ
(إن الذي خلَّفتُ خلفيَ ضائعٌ ما لي على قلقي إليه خيارُ)
(واذا صحبتَ فكلُّ ماءٍ مشربٌ لولا العيال - وكل أرضٍ دارُ)
إذن الامير بأن أعود اليهم صلة تسير بذكرها الاخبار

فلو ان امرأته كانت إذ ذاك باقية لم تمت ، لما عز على ابي الطيب ان يفارق عياله في رفقته وصحبته . وبين من قوله (إن الذي خلفت خلفي ضائع) انه يعني صغيراً من ولده لا يطمئن قلبه اذا فارقه مضيعاً ليس له من يعوله او يكلؤه ويرعاه ، وأتم ذلك المعنى بقوله « مالي على قلقي اليه خيار » . وفي الابيات جميعها حنان الأبوة مائل بيّن لا خفاء فيه . . . وحسبك هذا من كلامنا ، فاذا رجعت الى الديوان فتدبر قصائده بعد ذلك ، ففيها من مثل هذا كثير . ولا يفوتك ان تذكر ما قدمناه من دقة احساس هذا الرجل ، وسرعة تأثره ، وظهور هذا التأثر في شعره اذا كربه أمر يغمه أو يثيره أو يهيج كبرياءه . وما يكون من جراء ذلك في شعره من الانتقال من معنى الى معنىً غير عابىء (بحسن التخلص ومقتضى الحال) ، ولا تنس ان تقرأ هذه الابيات الثلاثة في موضعها من الديوان متدبراً متبصراً ، وهي قوله

أبكي لموتانا ، على غير رغبة تفوت من الدنيا ، ولا موهبٍ جزلِ
إذا ما تأملت الزمان وصرفه تيقنت ان الموت ضرب من القتلِ
(وما الدهر أهل أن تؤمل عنده حياة ، وان يشتاق فيه الى النسلِ)

اجتمع على أبي الطيب كما ترى في اول صحبته لسيف الدولة أفراح قلبه بلقاء امير العرب الذي أحبه وأمل فيه الخير والبركة والنصر لآرائه وافكاره وسياسته ، وأحزان قلبه بفقد امرأته ثم صغيره الذي جدد له ما بقلبه من احداث الزمن ومصائبه من الآلام . فكان تنازع الفرح والحزن في تلك النفس المرهفة الشاعرة الثائرة سبباً في استخراج كوامنها ومضمراتها وذخائرها . واخذ ابو الطيب يروز ما عنده من العواطف والافكار ، ويتأمل ما تجدَّد في قلبه من المعاني التي ولّدتها الافراح والآلام ، ويستوعب ما في ضميره من الاحداث القديمة التي تركت وسمها فيه ، ويرمي ببصره الى ما يستقبله في ظل سيف الدولة ، وينظر فيما وجد عند الامير من العطف عليه والاكرام له ، وتقديمه على القدماء من اصحابه وشعرائه ورجاله ، وشغلته الايام بما يتجدد فيها

مما يخصه ومالا يخصه ، وحوته المجالس مجالس العلم والادب والشعر والسياسة ، واحاطت به الدنيا كلها مهيأة كانما أُعدّت له ، ليأخذ منها ما شاء ويدع ما شاء ، ... فكان هذا كله ترفُّقاً من القدر لصنع هذه الشاعرية الفذّة وتربيتها وتغذيتها وتنشئتها على غرارٍ فذ ، يكون به ابو الطيب شاعر العرب والعربية الذي (ملأ الدنيا وشغل الناس)

وكان تنازع الفرح والحزن في تلك النفس المرهفة الشاعرة الثائرة حدًّا لها من غلوائها ، وصرفاً لها عن الفكر في الكبرياء ، الى الكبرياء في الفكر ، فاصبح ابو الطيب ينظر في الحياة نظرة التدبر والتمحيص ، يقلب الرأي ، ويَسبر الفكرة ، ويقيس الاشباه والنظائر ، ويردُّ الامور الى اصولها ومنازعها ، وينتزع جوهر المعاني من بين اعراضها ، لا يأتلي في ذلك جهداً ولا يقصّر . فمن هنا تواردت عليه المعاني ، واتخذت لها بين قلبه وفكره منزلاً ومقرًّا ، فاذا قصد إلى الشعر واحتفل له بيانه وروافد هذا البيان من الحوافز والدوافع والعواطف ، ابتدرت هذه المعاني من منازلها بين قلبه وفكره الى منازلها بين اياته وقصائده . وهذا هو احد الاسرار العظيمة في بيان هذا الشاعر العظيم

وتلألأ مجد سيف الدولة في شعر ابي الطيب فقربه وزاده عطاء واقطاعاً ، واسبغ عليه نعمة لم يكن ابو الطيب ينتظر مثلها أو يؤمله ، فوقع ذلك من نفسه موقع الامنية التي تحققت من نفس اليائس الذي ضجر بامانيه وقد استيقنت نفسه انها لن تحقق ، وكان هذا ايضاً — مع الحزن والفرح اللذين يتنازعان في نفسه — عوناً على صنع شاعرية الرجل وصقلها وجلائها ، لتكون المرآة التي تتراءي فيها حقائق الحياة وفلسفتها وحكمتها وبيانها وما لها وما عليها

ولم يكن سيف الدولة يجهل ما سيكون من هذا الرجل اول ما لقيه ، بل يقيننا أنه كان قد انكشفت له نفسية أبي الطيب فأخذها من حيث ينبغي أن تؤخذ ، وعرف أن هذا الذي مدحه بأنطاكية سيكون مخلّد ذكره ، وحافظ أخباره وصفاته في شعره ، وليس مثل سيف الدولة من يغفل عن ذلك أو يتجاوزه بصرهُ . فقد كان سيف الدولة أديباً شاعراً قد اجتمعت له من أداة الأدب والشعر أداة كاملةٌ متقنة ، وكان بصيراً بنقد الشعر ، نافذاً في إدراك أسرار البيان وأيضاً . . . فقد كان ما عليه سيف الدولة مما ذكرنا ، من أكبر العوامل في شعر أبي الطيب ، فإنه كان يعرف يقيناً بصر صاحبه سيف الدولة بالادب والشعر ، فحمله ذلك على الإجادة والتبصّر ، وتقليب المعاني واختيارها ، واصطفاء أثوابها من الالفاظ واجتبائها ، وكان ذلك من أبي الطيب لما في نفسه من الكبرياء والعظمة ، إذ لو لم يفعل ذلك لعلا عليه في نظر سيف الدولة أحدٌ غيره من الشعراء أو لسواه به ، وصاحبنا هذا لا يرضى بأن يسبقه الى سيف الدولة غيره من الشعراء ، فهل يرضى بالمساواة ؟ . . . كلاّ ، وكذلك فاقَ أبو الطيب كل من سبقه أو جاءَ

بعده من شعراءِ العربية ، فقد اجتمع له من الدوافع وغيرها ما لم يجتمع لأحدٍ منهم

وبعد أيضاً ، فقد كان من العوامل في هذا النبوغ الفذ الذي استعلن في أبي الطيب ، ما أصاب من الاستقرار والاطمئنان في جوار سيف الدولة ، وما تيسَّر له من الرزق الذي لم يكلِّفه همّاً ولا كرباً ، بعد أن كان لا يمضغ لقمةً من عيشه الا ومعها نكدها وهمُّها وشقاؤها وأيضاً . . . فقد علمت قبل أن هذا الرجل كان من صغره محبّاً للعلم والادب ، لا يدع استيعاب ما يقع اليه من الكتب في كلّ فنّ وعلم وفي جوار سيف الدولة ، تيسَّر له من ذلك ما لم يكن يتيسَّر ، فقد كان مايئاً بماله الذي أفاده ، يشتري ما يشاء ويستنسخ ما يرغب فيه ، وما كان سيف الدولة ليمنعه أن يستفيد مما اجتمع عنده من نوادر الكتب والمؤلفات قديمها وحديثها ، فأخذ أبو الطيب يقطع أيامه بالتزوُّد من كل علمٍ ، والإستزادة في كل فنّ ، وقد وهبه الله ذاكرة واعية ، وفهماً نافذاً ، وقدرة على النقد والتمييز ، ونفساً شاعرةً تأخذ من ذخائرها ما تشاء ، وتنفضُ عنه ما يعلق به ، وتجلوه جلوة العروس في ثياب عرسها . وكذلك اتفق لابي الطيب في هذا العهد كل ما يعينه على النُّبوغ والسَّبق

قلنا قبل أن سيف الدولة قد قرَّب أبا الطيب وزاده كرامة ومحبّة لم ينل مثلها شاعرٌ من أمير مع ما عرف عن سيف الدولة من تحرّزه وتشدده حتى على الكثيرين من أهله ، وضربنا المثل بأبي فراسٍ الحمداني وهو من هو في قربه من سيف الدولة لقرابته ورحمه ، وتحققه بخدمته ، والذهاب في طاعته ومرضيته ، وتمجيده في شعره ، وتخليد ذكر وقائعه وحروبه ببلاغته وبيانه ، وأشرنا الى ان السياسة كانت أيضاً مما قرَّب أبا الطيب وأدناه من مجلس سيف الدولة وسامره وخلوته . ولعلَّ هذا الامر الاخير — مع ما قدمناه ذكرهُ من أحوال سيف الدولة ، وأبي الطيب وما فيه من النبوغ والدهاء . — هو الذي جعل لابي الطيب عند سيف الدولة منزلةً لا تدانيها منزلة أحدٍ من أقاربه أو أهله أو شعرائه الذين كانوا ببابه ، وقد قالوا إنه لم يجتمع بباب أحدٍ من الامراء مثل ما اجتمع بباب سيف الدولة من الشعراءِ والادباءِ

وقد تتبعنا ديوان أبي الطيب كله لنظفر بالدليل على أن سيف الدولة كان قد استصفى أبا الطيب واتخذ منه أخاً يمنحه ودّه ويكشف له عن سرّه ، ويحدّثه بآماله في السياسة والحكم فوقعنا على أشياءَ من ذلك لا بأس من ذكرها والتدليل عليها ، على ما درجنا عليه في كلامنا من استنباط المعاني وردّ بعضها الى بعض — هذا على كثرة ما يتصل بهذا من أحوال أبي الطيب وسيف الدولة ، مما لا نستطيع أن نجمعه لك في فصل واحد ، ولذلك سنكتب ما نكتب ، وعلى القارىء أن لا ينسى ما مضى من القول فيضعه في موضعه ليزيد ما أمامه قوةً وبياناً ، وأن يستأنيَ لما يستقبل فيحله محلهُ ليرتبط الاول بالآخر ، وينكشف له ما يغمض عليه أو يستبهم مما نحن فيه

كان أبو الطيب كما رأيت أولاً رجلاً ثائراً بما في نفسه غير راضٍ عن الحكم القائم في البلاد العربية وقد ذكر ذلك في كثير من شعره الذي مضى بك ، وهدّد الامراء والملوك والسلاطين بما سوف يفعله بهم ، وما يأتيهم به من القتل والفتك ، وخص بالذكر والحقد والوعيد الاعاجمَ الذين كانوا قد استولوا على مقاليد السلطان والحكم ، ولم يفتأ يذكر ذلك من أول أمره الى ان اتصل ببدر بن عمار ، وكان — كما قلنا قبل — يؤمل ان يجد في بدر بن عمار (الرجلَ) الذي يستعين به على آماله وآرائه ، ويحقق بعونه له ، ما كان يدور في نفسه من المطامع السياسية — من رد الحكومة الى العرب دون الاعاجم ، وكذلك هدأ حين اتصاله ببدر ولم يكثر من ذكر وعيده وانذاره وآرائه ، وفسرنا هذا هناك . فلما كان اتصاله بسيف الدولة على ما وصفنا في هذا الفصل من توافق الرجلين في المذهب السياسي ، والرأي الذي يريانه لانقاذ العرب من عادية الاعاجم وغيرهم ممن يكيدون بالفتنة لامتها ، هدأ أبو الطيب هدأته تلك ، وانصرف بيانه الى تمجيد صاحبه كما فعل حين كان في جوار بدر . وقد ألممنا بحالة أبي الطيب النفسية وفسرناها ، وبيّنا ان ذلك عادة له اذا لاقى العربي المحارب الفاتح الذي يؤمل في وجهه النصر والظفر وتحقيق الآمال التي تسمو بهمته الى غزو الامة ، وانقاذها من البلاء الذي حل بها وأوهاها وفرق شملها . وجمعنا الى ذلك ما كان من تقريب سيف الدولة أبا الطيب اليه ، واصطفائه بمودته دون سائر الشعراء ، وجميع اهله وقرابته ، والمتصلين به من اصحاب الفكر والرأي والدهاء . وقد مضى بك ايضاً ان ابا الطيب كان قد ذكر — حين قدم الى انطاكية على ابي العشائر — انه لم يأته مستميحاً ولا طالب رفد وعطاء ، بل اشار الى مراده ومبتغاه الذي من اجله قصد انطاكية فقال

فسرت اليك في (طلب المعالي) وسار سواي في (طلب المعاش)

وتبينا من شعر ابي الطيب في المدة التي سلخها في ظل سيف الدولة من سنة ٣٣٧ الى سنة ٣٤٦ انه كان يقول الشعر في سيف الدولة ــ ممجداً له ورافعاً من ذكره وذكر غزواته وحروبه ــ وقد تآزرت عوامل نفسه كلها على منحه التجويد والابداع في ذلك . وتفسير ذلك عندنا ان هذا الرجل الثائر حين لاقى سيف الدولة الفاتح ، وجه كل ما كان في قلبه من القوة التي دفعته الى مدح نفسه وذكرها والافصاح عن آرائها وآمالها ، الى مدح هذا الرجل (سيف الدولة) ووصفه ووصف حروبه وغزواته ، فصارت القوة التي كانت بيّنة في شعره الاول الى هذا الشعر ، فكان وحده هو أبدع ما أتى به وما أخرجه من البيان . وكان صورة اخرى من شعره الاول الاّ انها اقوى وأتم وأمثل في التجويد والتصوير

ثم فارق ابو الطيب سيف الدولة ، وهو لا يزال ثابتاً على محبته والاخلاص له ، وكان سيف الدولة لا يزال مستقصياً لاخباره في كل بلد ينزله ، متتبعاً لشعره الذي يقوله لكل من مدحه

من بعده ، وكان ايضاً لا يزال يهدي اليه من هداياه مع انه فارقه ومدح غيره — بعد إكرامه له اكراماً لم يلق مثله ابو الطيب قبل اتصاله به او بعد فراقه له ، وكان ايضاً يكاتبه ويتلقى منه بعض كتبه — وهذا دليل على ان المحبة التي كانت بين الرجلين لم تكن محبة امير لشاعره وحسب بل كانت صداقة لا يقطع فيها حدث من احداث الزمان ، او سعي بالنميمة من سعي الوشاة والمتقولين هذا . . . وقد رووا ان سيف الدولة أنفذ الى ابي الطيب — وهو بالكوفة سنة ٣٥٢ بعد خروجه من مصر — هدية مع أحد أقاربه ، فكتب اليه قصيدة أهداها اليه كما أهدى ، فكان مما ورد في هذه القصيدة ، يخاطب سيف الدولة

أنت طول الحياة للروم غاز فمتى (الوعدُ) ان يكون القفولُ
وسوى الروم خاف ظهرك رومٌ فعلى أيِّ جانبيك تميلُ
قعد الناس كلهم عن مساعيـك وقامت بها القنا والنصولُ
ما الذي عنده تدار المنايا كالذي عنده تدار الشمولُ(١)
لست أرضى بأن تكونَ جواداً وزماني بأن أراك بخيلُ
نغص البعدُ عنك قربَ العطايا مرتعي مخصب وجسمي هزيلُ

. . . . .

ما أبالي — اذا اتقتك الليالي — من دهته حبولها والخبولُ

وقد ذكرنا قبل ان سيف الدولة كان قد عزم في نفسه ان ينال بهمته غاية الغايات في ضمّ أشتات البلاد العربية تحت سلطانه وفي ظلّ حكومته ، وكان أول ما أتم من ذلك ان زحم الاخشيديين بمناكبه حتى أزاحهم عن اكثر البلاد الشامية وردهم الى الرملة ، واراد ان يوطد سياسته وحكمه بالشام حتى اذا أعدّ العدّة ، واستجمع الاداة ، تحفز بقوته كلها على العراق فمال عليه ميلة رابية ، ليزيل عنه سلطان الموالي الذين استولوا على سلطة الخلافة . وكان هؤلاء الموالي ، او اكثرهم ممن استقل بالدويلات ، من شيعة العلويين الذين اطاعوا داعية الفاطميين ، وكان سيف الدولة لا يقرّ بحكم الفاطميين ولا يرضى عنهم ، ولذلك نصر الخلافة العباسية مع انه علويّ المذهب . كانت هذه هي سياسة سيف الدولة ، وكانت هذه هي ارادته ، ليجمع شمل العرب ويرد الحكم الى اليد التي لا تضطرب ، والى الفكر الذي لا يحلحله من مكانه كيد الكائدين للعربية من اصحاب الفتن والدسائس ..... فجاء ابو الطيب يقول في هذه الابيات

أنت طول الحياة للروم غاز فمتى (الوعد) ان يكون القفولُ
وسوى الرُّوم خاف ظهرك رومٌ فعلى اي جانبيك تميل

(١) هي الخمر

في البيت الاول يصرح بأن سيف الدولة كان قد وعده ان يقفل من غزو الروم الذين يهددون اطراف الشام ، ويعدّ العدّة لغزو غيره ، فإن قوله (الوعد) معرّفاً دليل على تخصيص وعد بعينه ، ولا يكون كذلك الاّ ان يكون وعداً وعده سيف الدولة أبا الطيب لتحقيق ما يريدان من ردّ الحكومة الى العرب ، وذلك بأن يغزو سيف الدولة العراق و (يميل عليه) ويزيل عنه سلطان الموالي والاعاجم ، ولذلك سأل أبو الطيب سيف الدولة في البيت الثاني فقال (فعلى اي جانبيك تميل) . وقد جعل القائمين بالحكم ، والمستولين على السلطان في العراق — روماً ، لما أشرنا اليه قبل من ان هؤلاء لما وقفوا على عزيمة سيف الدولة في إزالتهم عن العراق ، أوعزوا الى ملك الروم أن يقاتله اذ أوقعوا في قلبه وفكره بمكرهم ودهائهم أن سيف الدولة الذي كان يمدُّ سلطانه على الشام يوماً بعد يوم ، انما يريد بذلك أن يزيل الملك من بين يديه ويغلبه على بلاده وبذلك يتم لهم ما يريدون من صرف سيف الدولة عن حربهم ، وانصرافه الى حرب الروم ، ويكون ذلك استهلاكاً لقوته . حتى اذا ما أراد أن يميلَ عليهم يكون قد فقد صفوة المحاربين معه في قتال الرُّوم ، فلا يصيب إذ ذاك في حربهم وقتالهم ظفراً ولا نصراً . وهذا التعبير من أبي الطيب دليلٌ على أنه كان يعرف سرّ هذا الامر كما يعرفه سيف الدولة ، ثم إن أبا الطيب أخذ يهوّن على سيف الدولة أمر غزو العراق ، ويغريه بالإقدام على ما وعده من الفتح ، إذ وصفه ووصف أهل العراق فقال

ما الذي عندهُ تدارَ المنايا كالذي عنده تدارُ الشَّمولُ

فهو بهذا يغريه بهم إذ كانوا قوماً أهل سكر وعربدة ، لا أهل حرب وقتال كسيف الدولة الذي لم يكن يفرغ من غزوة ويقفل منها حتى يبادر إلى أُخرى يصيب فيها النّصر والظّفر ، أو التجربة في القتال والمران على مكر الحرب وخدَعها . وهذا الذي كان من (الوعد) بين سيف الدولة وأبي الطيب كان هو السبب في ان أبا الطيب حين دخل العراق في تلك السنة لم يعبأ بأحدٍ من السلاطين والحكام وأولي الامر من الوزراء ، واستكبر عن جميعهم فلم يمدح منهم أحداً ، بل راغمهم حتى كان ما كان من أمر الوزير المهلبي وغيره ، وعداوتهم له ، وإغرائهم الشعراء بالوقوع في عرضه وشرفه ونسبه ، وتحريضهم الادباء على معاندته ومجادلته للنضّ منه والإزراء عليه — كما مرّ بك في أوائل كلامنا

وفي ذي الحجة من سنة ٣٥٣ كتب سيف الدولة إلى أبي الطيب كتاباً (بخطه) يسأله المسير اليه فأجابه أبو الطيب بقصيدة أنفذها اليه أولها

فهمتُ الكتابَ، أبرَّ الكتبْ فسمعاً لأمرِ أمير العربْ
وطوعاً له ، وابتهاجاً بهِ، وإن قصَّر الفعل عما وجبْ

فإذا كان هذا الكتاب — كما وردت الرواية — قاصراً على رغبة سيف الدولة الى أبي الطيب في أن يلحق به ، ويكون في جواره ، فيكون قول أبي الطيب (فهمتُ الكتاب) من أسخف القول وأرذله وأحطّه وأسقطه ، ويكون سقوطاً قد أصاب عقل هذا النابغة . أيقول أبو الطيب أنه فهم كتاب سيف الدولة (الذي كتبه له بخطه) يسأله أن يسير الى الشام ؟ وما في هذا الطّاب مما يحتاج الى الفهم ؟ وما فيه مما تقتضي الإجابة عنه أن يخبرهُ بأنه قد فهمه ؟ أيكون هذا أو يُعقل ! ! والبيّن أن سيف الدولة كتب الى أبي الطيب — بعد القصيدة التي مرَّ ذكرها والتي أغراه فيها بغزو العراق وفتحه — كتاباً يشرح له فيه الامر — غير مصرح بشيء — ، ويذكر العوائق التي تعوقه دون غرضهما ، ويبّن له ما هو فيه من الكرب والضيق وأنه لولا ذلك لما تأخر عن عزيمته ، ولوفى لابي الطيب بالذي وعده من فتح العراق . ولهذا لم يأمن سيف الدولة أحداً على هذا الكتاب الذي كتبه الى أبي الطيب ، فكتبه اليه بخطه حيطةً وحذراً أن يشيع ما ورد فيه . وقد أراد سيف الدولة في كتابه هذا ان يزيد ابا الطيب بياناً ولكنه لم يستطع خشية الاحداث التي لا يملك صرفها ، من وقوع هذا الكتاب في يد عدو من اعدائه ، ولذلك طلب من ابي الطيب ان يقدم عليه بالشام فيخلو به ، ويشرح له الامر في غير كناية ولا تعريض ، ولكن ابا الطيب كان قد فهم ما وراء كنايات سيف الدولة وإشاراته الخفية ، فكتب اليه

« فهمتُ الكتابَ ، أبرَّ الكتبْ فسمعاً لأمرِ أميرِ العربْ »

فهذا الذي أفضنا فيه دليل كله على أنه كانت بين سيف الدولة وأبي الطيب اسرارٌ سياسية تخصُّ أغراضهما وآمالهما في اعادة المجد العربي ، وإزالة الحكام الطاغين من الموالي ؛ وقمع الفتن التي قام بها العلويون والفاطميون في البلاد وهم لا يقدرون مغبّاتها وعواقبها ، ولا يزنون أمرها إذ يتخذها أعداء العرب والاسلام ذرائع لقضاء مآربهم في تمزيق الامة ، وتفريق شملها ، وإضاعة مجدها وسلطانها ، ليقيموا على انقاضها ما تسوّله لهم أحقادهم وضغائنهم من الأوهام والأحلام

لعينيك ، ما يلقى الفؤاد ، وما لقي
وللحب . ما لم يبق مني ، وما بقي
وأحلى الهوى، ما شكَّ في الوصل ربُّه
وفي الهجر ، فهو الدهرَ يرجو ويتَّقي
سَقَى الله أيام الصبا ما يسرُّها
ويفعل فعل البابليّ المعتَّقِ
إذا ما لبستَ الدهر مستمتعاً به
تخرَّقتَ ، والملبوس لم يتخرّق

قد رأيت قبل ان الحوافز التي اجتمعت على أبي الطيب من[1] اول امره الى عهد اتصاله بسيف الدولة ، انما كانت ترفُّقاً من القدر وتطريقاً وتمهيداً للنبوغ الفذّ الذي صار به صاحبنا شاعر العرب ولسان العربية الذي استحكم في عصره ، وضرب بحكمته على من كان قبله ، ومن أتى بعده . وقد ذكرنا من أداة نبوغه واسبابه ما تيسَّر لنا جمعه في هذه الكلمة ، إذ كانت الاشياء مرهونة بأوقاتها من المعاني ومنازلها من الكلام

ورأيت ان اتصاله بسيف الدولة نقل قلب الرجل من منزلة الى أخرى ، نقله من منزلة الاحساس الشخصي المتوحد ، الى منزلة الاحساس الشخصيّ المتولج في الاجتماع المزاحم في سياسته ، المؤمل في سيف الدولة ردّ السلطان الى العرب والعربية ، بعد الغلبة والظفر وتحقيق الامانيّ . وكان هذا سبباً في انتفاض قلب (الرجل الشاعر) بالفرح المستولي عليه والغالب على عواطفه ، ثم كان ايضاً ما استنبطناه مما سبب في هذا القلب اسباباً للالم والحزن والانين والبكاء والحسرة ، فصار التنازع في هذا القلب بين الفرحة الغالبة والحسرة المتمكنة سبباً في استخراج مكنونات هذا القلب ، وتوليد المعاني الجديدة من الصراع الهائل الذي كان فيه . وبذلك خرج أبو الطيب عن طوره الاول المحدود بحده الى الطور الثاني المتفاسح المترامي الى كل غايات الحياة وأسبابها وما يكون فيها وما يكون منها

---

(١) كان حق هذا الباب ان يسبقه — في ترتيبنا — باب آخر ، نذكر فيه ما تميز به شعر ابي الطيب ونفصل فيه اسلوبه كله على تدريج لا يتفاوت . ولكن منعنا من ذلك ضيق الوقت

وكان هذا الرجل الشاعر انما يعتمد في توليد معاني شعره على استيعاب ما بنفسه من الافراح والآلام ، ما تقادم منها وما جدَّ ، ثم الاستغراق في تأمل هذه الذخائر التي في نفسه وردّ بعضها الى بعض، وربط الغائب منها بالشاهد ، وعطف الاول منها على الآخر ، كلما كانت تتراءى لعينيه حوادث قلبه وحوادث دهره ، وتتردّد في سمعه اصوات قلبه موصولة باصوات الناس وكلامهم ما قلّ منه وما عظم . وهذا الاستغراق في تأمل ما بنفسه هو احد الاسرار العظيمة في تصوير شاعريته ، وتسويتها وتنشئتها وتغذيتها وتميتها الى الغاية التي هي عليها في شعره

وقد بينا قبل ان من أداة هذا الشاعر العظيم ما أودعه الله فيه من الحس المرهف ، وما وهبه من العاطفة الملتهبة المتوقدة التي لا يخبو لها ضرام ، وراثةً كان ذلك من جدته أو فطرةً فطره الله عليها غير موروثة . وكان هذا الرجل في أول أمره مطالباً بثأر قد نشىء عليه ، وأُخذ به من صغره ، حتى شغل فكره وعقله ، وتدفق في بنيانه كله تدفق الدم ، وصار أصلاً من الاصول التي قامت عليها كل حالته النفسية — على ما ذكرناه أولاً ، وتدرجنا في بيانه إلى عهد اتصاله بسيف الدولة — وكان قد بلغ من العمر أربعاً وثلاثين سنة ، وهي السنُّ التي تستحكم فيها الاصول ، وتستقرُّ المذاهب ، ويقف الرجل عندها لا يملك في تبديل أمره حولاً ولا قوةً الاّ أن يشاء الله ، وخاصةً من كان مثل المتنبي قد عركته الايام من صغره وتحاملتْ عليه ورمتْ به في تشورها حتى استوى على صورة بعينها ، واستمرَّ مريرهُ على ما فيه من القوة المستحصدة ، والمنّة الدائبة الفورة والنزاع ، لا تستقرُّ ولا تهدأ ولا تطمئنُّ

هذا ، . . . وقد استوقفنا ونحن نتتبّع شعر الرجل على طريقتنا ومذهبنا ، الفرق الكبير الكائن بين شعره الاول وشعره الذي قاله في حضرة سيف الدولة ، وتدبرنا الاسباب على ما بيّناه قبل ، فلم يستو عندنا أن يكون ذلك من أجل ما ذكرناه قبل وحسب ، فعدنا نجدّد الرأي لذلك ، ونقرأ ما بين كلمات الرجل من المعاني ، ونستنبط من روائع حكمه وبلاغته ما يهدينا الى السبب الاكبر في هذا التجويد الفذّ الذي غلب به الرجل على شعراء العربية ، فاستروحنا في شعر الرجل نفحةً من نفحات المرأة التي تكون من وراء القلب وتصنع للشاعر المبدع بيانه ، وتتخذ من فنّها النسويّ مادّةً تهيّئها لفنّ صاحبها وعبقريته ونبوغه . فأتممنا الامر على ذلك ورجعنا الى شعر ابي الطيب وما وقفنا عليه من أسرار نفسه ، وتمثلنا المرأة بينهما وهي دائبة تصنع له بيانه وتهيء له فنه فاستوى الامر على ذلك ، وطلبنا الدليل فدلنا على المرأة التي سكنتْ قلب أبي الطيب — وهو في ظل سيف الدولة — وجعلته حكيم الشعراء ، وشاعر الحكماء

كان صاحب الحكمة أبو الطيب يصنع حكمته بالتدبر في معرفة نفسه ، واستبطان أسرارها وإدراكها ، فلما جاءته المرأة ، وأرادت كبرياءه على الخضوع لها والتصرّف بأمرها ، وقعت نفس

هذه المرأة بأسرارها وأحداثها بين نظرات أبي الطيب النافذة المتولّجة إلى ماوراء الواقع والحس الملموس ، وبين نفسه بأحداثها واسرارها وما انطوت عليه وما تجلّت به . ولما كانت نفس المرأة المحبوبة هي تمام نفس الرجل المحبّ وتكملتها، كانت دراسة الحكيم المحب لنفسه المكملة التامة بالمرأة المحبوبة ، انما هي دراسة للكون كله ، فان العاشق لا يرى الدنيا باسرارها الاّ بعيني من يعشق ، وهي على ذلك الدنيا المترامية ، بعدان كانت قبل عشقه محصورة في دائرتها من نفسه الناقصة غير التامة . والحب القويُّ النافذ الذي يتملك حواس المحب ويغلب عليها ، هو بطبيعته امتداد بهذه الحواس الى غايات بعيدة لم تكن تصل اليها قبل غابته على القلب والنفس والفكر . فاهذا حين احبّ ابو الطيبُ — الرجل الثائر المتكبر الشاعر الحكيم البياني الفكر واللسان — كان امتداد نفسه وترامبها الى غايات بعينها من الرجولة والثورة والكبرياء والحكمة والفكر ، ولم يستطع ان يكون — بعد ان غلب الحب قلبه وتفاسح به — شاعراً غزلاً رقيق البيان . وهذا هو السرُّ عندنا في ضعف مادة الغزل عند أبي الطيب ، وقوة مادة الحكمة وما اليها مما هو من طبيعته المتأصلة فيه على ما فصلناه في اثناء كلامنا . وليس يصح عندنا ان لا يكون ابو الطيب عاشقاً صبًّا متدلهاً ما لم نجدْ في شعره غزلاً ولا أنيناً وحنيناً وبكاءً

والآن ، وبعد هذه المقدمة ، نعين لك المرأة التي احبها ابو الطيب على ما يتفق لنا [١]، إذ كان ترتيب هذا الموضع من الكلام مما يستدعي النظر في اكثر شعر ابي الطيب وتقليبه على المذهب الذي اتخذناه ، فيخرج الامر من حده ولا تتسع له هذه الورقات

لما ماتت اخت سيف الدولة الصغرى وقف ابو الطيب يعزيه ويرثيها ويسليه ببقاء أخته الكبرى وذلك في يوم الاربعاء للنصف من شهر رمضان سنة ٣٤٤ فانشده قصيدته التي اولها

ان يكن صبرُ ذي الرزيئة فضلاً   تكن الأفضل الأعزّ الأجلاّ

وطفق يمدح سيف الدولة بمناقبه مما يصلح لهذا الموضع من العزاء الى ان قال

أين ذي الرّقة التي لك في الحر   ب اذا استُكرِهَ الحديدُ وصلا ؟
أين خلّفتها غداة لقيت الـ   روم والهامُ بالصوارم تفلي
(قاسمتك المنون شخصين جوراً   جعل القسم نفسه فيه عدلا)
(فاذا قستَ ما أخذنْ بما غا   دَرْن سرّى عن الفؤاد وسلّى)
(وتيقّنت أنّ حظك أوفى   وتبيّنت أن جدّك أعلى)

فابو الطيب يطلب من سيف الدولة ان يقيس اخته الصغرى التي ماتت الى اخته الكبرى التي بقيت

(١) اعلم انا كنا نؤمل أن نكتب هذا الباب في خمسين وجهاً من المقتطف أو اكثر ولكن حالت دون ذلك أحوال

له فاذا فعل ذلك كان سلوى له وتسرية للهم عن قلبه . ولا ندري كيف يتفق لشاعر يرثي امرأة ماتت ان يذكر اخرى — وتكون اختها — ويعزي اخاها بهذا العزاء الغريب ؟ ثم يزيد فيقول له انك اذا فعلت ذلك الذي دللتك عليه، « تيقنت » ان حظك في بقاء هذه الكبرى أوفى من حظ الموت في أخذ الصغرى ، وكيف يتيقن ابو الطيب سيفَ الدولة من حسن حظه ببقاء الكبرى إلاّ اذا كان هو على يقين من ذلك ؟ وكيف يكون على يقين من ذلك إلاّ وهو يعرفها معرفة تفضي به الى هذا اليقين ؟

ثم مضى ابو الطيب في القصيدة كلها يمدح سيف الدولة ولم يتعرض لهذه الفتاة أخته الصغرى إلاّ في موضع آخر إذ يقول

خطبة للحمام ليس لها ردٌّ وإنْ كانت المسماة ثكلاَ
واذا لم تجد من الناس كفئاً ذاتُ خِدرٍ أرادت الموت بعلاَ

فالعجب ان يكون ذلك عزاء — فإن ابا الطيب قد قدم الكبرى في المنزلة ، فكان اولى اذن ان تموت الكبرى إذ هي ولا شك عند ابي الطيب — افضل من هذه الصغرى التي لم تجد من الناس كفئاً يكون لها زوجاً ، فاختارت الموت بعلاً لها . وهذا التناقض يدلنا على ان الرجل كانت قد اقترنت في عينه صورة الكبرى بصورة الصغرى فاضطرب قوله ولم يمض على سنن ونهج، وذلك لاضطراب نفسه الذي اظهر ما في قلبه وكشف عنه في تدفقه حين ذكر هذه الكبرى فقال فيها البيتين « فاذا قست . . . . الخ »

فلما ماتت الكبرى هذه التي ذكرها هنا — وهي خولة أخت سيف الدولة — في سنة ٣٥٢ اي بعد ذلك بسنوات ثمانٍ ، وكان ابو الطيب بالكوفة فورد عليه خبرها كتب الى سيف الدولة قصيدة فيها (٤٤) بيتاً ، منها واحد وثلاثون في ذكر خولة هذه ، وستة ابياتٍ في ذكر الدنيا ونكدها، ولم يذكر سيف الدولة الاّ في سبعة ابيات منها . هذا مع ان القصيدة التي رثى بها الصغرى ، لم يذكر فيها الصغرى مفردة الاّ في بيتين هما « خطبة للحمام . . . » ، وذكر الكبرى ومعها الصغرى في ثلاثة ابيات هي « قاسمتك المنون . . . »، وجعل بقية القصيدة وعدتها (٤٢) بيتاً في مدح سيف الدولة الاّ قليلاً في الحكمة والحياة

وكان الفرق بين القصيدتين بيناً واضحاً لا خفاء فيه ، وكانت الثانية في رثاء خولة عاطفة قد اخذها الحزن وغابها البكاء . . . يقول ابو الطيب

يا أختَ خيرِ أخٍ ، يا بنت خير أبٍ كنايةً بهما عن أشرفِ النسبِ
أُجلُّ قدرَكِ أن تُسمَيْ مؤبَّنةً ومن يصفْكِ فقد سمّاكِ للعربِ
(لا يملكُ الطَّرِبُ المحزون منطقهُ ودمعهُ ، وهما في قبضةِ الطربِ)

غدرتَ ياموتُ ، كم أفنيت من عددٍ بمن أصبت ! وكم أسكتَّ من لجبِ !
وكم صحبتَ أخاها في منازلةٍ ! وكم سألت فلم يبخل ولم تخبِ !
(طوى الجزيرةَ حتى جاءني خبرٌ فزعتُ فيه بآمالي الى الكذبِ)
(حتى اذا لم يدَعْ لي صدقُه أملاً شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي)
تعثرت بك في الافواه ألسنها والبُرْدُ في الطرق والاقلام في الكتبِ
كأن خولة لم تملأ مواكبها ديار بكر ، ولم تخلع ، ولم تهبِ
(ولم تردَّ حياة بعد تولية ولم تغث داعياً بالويل والحربِ)
(أرى العراق طويل الليل مذ نعيتْ فكيف ليل فتى الفتيان في حلبِ ؟)
(يظنُّ أن فؤادي غيرُ ملتهب ! وأن دمع جفوني غيرُ منسكبِ !)
(بلى ، وحرمة من كانت مراعية لحرمة المجد والقصاد والادبِ)
(ومن مضت غيرَ موروث خلائقها وإن مضت يدها موروثة النشبِ)
(وهمها في العلى والمجد ناشئة وهم أترابها في اللهو واللعبِ)
(يعلمنَ حين تحيا حسنَ مبسمها وليس يعلم الاَّ الله بالشنبِ)

. . . .

(وان تكن خلقتْ أُنثى، فقد خلقتْ كريمة، غير أُنثى العقل والحسبِ)

. . . .

(فليت طالعة الشمسين غائبة وليت غائبة الشمسين لم تغبِ)
(وليت عين التي آب النهار بها فداء عين التي زالتْ ولم تؤبِ)

. . . .

(ولا ذكرت جميلاً من صنائعها إلاَّ بكيت ، ولا ودٌّ بلا سببِ)
(قد كان كل حجابٍ دون رؤيتها فما قنعتِ لها يا أرض بالحجبِ !)
ولا رأيت عيون الانس تدركها فهل حسدت عليها أعين الشهبِ ؟)
(وهل سمعتِ سلاماً لي ألمَّ بها فقد أطلتُ ، وما سلمتُ من كثبِ)
(وكيف يبلغ موتانا التي دفنتْ وقد يُقصّر عن أحيائنا الغيبِ)

. . . .

(قد كان قاسمكَ الشخصين دهرُها وعاش دُرُّها المفديُّ بالذهبِ)
(وعاد في طلبِ المتروكِ تاركهُ إنا لنغفلُ ، والايام في الطلبِ)
ماكان أقصر وقتاً كان بينهما كأنه الوقت بين الورْد والقربِ

ولست بمخطىء فيما نرى ما تضمَّنته هذه الابيات من القصيدة من العاطفة التي علقته على هذه التي رثيها ، وما يتوهَّج في ألفاظها من نيران قلبه ، ولست بمخطىء أنين الرجل وحنينه وبكاءه . ولا بدَّ لنا هنا من بعض القول في أبياتٍ منها نشرح به أمر أبي الطيب على وجهه

قد ذكرنا قبل ان الانتقال من معنىً الى معنىً في شعر ابي الطيب ، هو الموضع الذي ينبغي لنا الوقوف عنده وتمييزه والتبصُّر في أوائله واواخره ، إذ كان الانتقال في شعره هو الذي يعينك على الكشف عن اسرار قلبه ونفسه وحياته . فإذا شئت الآن فانظر الى انتقاله من قوله في مخاطبة الموتِ « وكم صحبت اخاها في منازلةٍ ! » الى ذكر ما أفزعه وكربه ؛ وهزَّ نفسه وحزَّ فيها إذ يقول

« طوى الجزيرة حتى جاءني خبرٌ فزعتُ فيه بآمالي إلى الكذبِ »

« حتى إذا لم يدع لي صدقهُ أملاً شرقتُ بالدمع حتى كاد يشرق بي »

والرأي عندنا ان هذين البيتين هما اول ما قال ابو الطيب من القصيدة حين بلغه خبرُ موت خولة وهو بالكوفة ففزع قلبه ، واضطرب أمره وانتشرت عليه عواطفه . ففي البيتين أثر قلبه الفزع المضطرب ، وعليها وسمٌ من لوعته وحُرقته

وقد غلب أبا الطيب بيانه في هذين البيتين فصرَّح فيهما بكل ما يضمر لخولة من الحبِّ . انظر كيف جعل الخبر يطوي الجزيرة كلَّها يقصِدُهُ وحدهُ دون غيره ، وقد خصَّص ذلك بقوله «حتى جاءني» وفي هذا من غلبة الحبّ على قلب أبي الطيب ما جعلهُ يرى أن هذا الخبر بموتها — الذي سمعه وهو بالعراق — وكان قد علمهُ الناس ولا شك — لم يقطع أرضَ الجزيرة الاّ ليبلغهُ هو ، والحبُّ دائماً يخصُّ ويضيق بمثل ذلك ، ولا يرى فيه الشَّركة ، ولو تساوى الناس جميعاً في المشاركة فيه أو العلم به . ثم إن أبا الطيب نسب الفزَع الذي لحقَه الى آمالهِ ، إذ كانت آماله كلها في الحياة بعد حبّه لخولة متعلّقةً بها وبحياتها ، فلما جاءه الخبر بموتها فزعتْ آمالهُ هذه أملاً أملاً إلى الشكّ في الامر الواقع وطلب الحيلة في رده وتكذيبه عسى ان تجد لها متعلقاً تستمسك به ، فلما اخفقت الآمال أملاً أملاً وقطّعها الخبر الذي سمعه بالصدق واليقين، سقطت نفس الرجل ولم تستمسك على رجولتها وقوّتها وغرقتْ في دمعها حتى شرقت به . وهذه حالة في الحبّ القويِّ العنيف الذي يستولى على القلب ، ولا يجعل للحياة بآمالها معنىً اذا فقد من يحب او ساءه من امره ما يسوءه . فهذا من ابي الطيب دليل على ان كلامه هذا ليس كلام شاعر يرثي أخت صديقه وأميره ، وانما هو كلام قلب محبٍّ مفجوع قد تقطعت آماله من الدنيا بموت حبيب قدفجعته المنية فيه

ومثل ذلك في الدلالة على ما اصاب قلب ابي الطيب من الفجيعة التي تخصه بموت خولة قوله

« أرى العراق طويل الليل مذ نعيت فكيف ليل فتى الفتيان في حاب ؟ »

« يظنُّ أن فؤادي غير ملتهبٍ وأن دمع جفوني غير منسكب »

فليس يطول الليل على شاعر من اجل اخت اميره، وانما يطول عليه من أجل حبيبته التي فاته بها الموت . ثم زاد ابو الطيب في الدلالة بقوله ان سيف الدولة يظن ان فؤاده غير ملتهبٍ، وأن دمعه غير منسكب ، وما لسيف الدولة ولهذا؟ أيحبُّ سيف الدولة ان يلتهب قلبه وينسكب دمعه من اجل اخته ، أو يسوءه اذا لم يكن ذلك كذلك ؟

هذا ولا نشكُّ نحن — من قبل ما جمعناه عندنا من الدلائل في هذا الامر المتعلق بحب أبي الطيب وخولة اخت سيف الدولة — في ان سيف الدولة كان على علم بما كان بينهما من المحبة الغالبة على امرهما ، وانه كان قد وعد ابا الطيب عدة لم يف له بها في ان يزوّجه اخته هذه، وكان ذلك سرًّا بينهما اتصل بابي فراس الحمدانيّ ، فكان سبباً في العداوة الباغية بين الرجلين . ولولا علم سيف الدولة بذلك لما استباح أبو الطيب لنفسه ان يكتب هذه القصيدة الى سيف الدولة على كثرة الاشارات فيها الى امره وامر خولة والحب الذي بينهما : فمن ذلك غير ما ذكرناه مما يدلُّ على الحب الذي بينهما دلالة واضحة لا تخفى على مثل سيف الدوله قوله

« ومن مضت غير موروث خلائقها وان مضت يدها موروثة النّشب »

الابيات الثلاثة ، فقد ذكر ابو الطيب اخلاق خولة ، ثم ذكر ما كانت عليه من علوّ النفس والهمة منذ نشأتها ، ثم ذكر ابتسامتها ، وهذه كافية في الدلالة على معرفته خولة معرفةً صحيحة عن خبرة ولقاءٍ . وايضاً قوله

« ولا ذكرْتُ جميلاً من صنائعها إلاّ بكيتُ ولا ودّ بلا سبب »

وهذا دليلٌ على ما كانت تسبغ عليه خولةُ من صنائعها وفواضلها مما يستجلب له البكاء حين يذكرها ، وما نظنّ ان صنائع خولة عنده كانت تبلغ معشار صنائع سيف الدولة . ولكن حب أبي الطيب هو الذي جعل صنائعها من قلبه بهذه المنزلة . ثم تدبر قوله « ولا ودّ بلا سبب » ، وفي رواية أخرى « بلا ودٍّ ولا سبب » وكأن هذه الرواية يراد بها نفيُ أمرٍ بعينه ، كان الوشاة يكثرون القول فيه عند سيف الدولة مع علمه بالامر الذي بينهما، من ان صنائع خولة التي كانت تتخذها عند أبي الطيب لم تكن من أجل هذا الوُدّ ، وإنما كانت من كرم نفسها وطيب عنصُرها . ويكون المقصود بهذه الرواية غير سيف الدولة ممن كان يتزيّد في القول ويتكذب عليه بما هو منه براء . ولينفيَ التّهم بذلك عن هذه التي كان يحبُّها ويمنحها قلبه

واذا شئت الزيادة فاقرأ قوله

فليتَ طالعة الشمسين غائبةً . . . .

وتدبر البيتين وما فيهما من العاطفة . . . واقرأ

وهل سمعت سلاماً لي ألمَّ بها . . . .

ثم انظر الى هذا الالتفات الى الماضي الذي جعلناه من المذهب في الكشف عن أسرار أبي الطيب إذ ذكر ما كان منه حين رثى أخت سيف الدولة الصغرى — من ذكر خولة هذه وذلك إذ يقول

قاسمتـك المنونُ شخصين جوراً . . . .

فعاد يقول في هذه

«قد كان قاسمك الشخصين دهرهما   وعاش دُرُّهما المفديُّ بالذهب»

«وعاد في طلب المتروك تاركهُ،   إنا لنغفـل، والايام في الطلب»

وتدبر الصّلة بين هـذا وذاك، والحسرة المتميّزة في قوله «إنا لنغفـل . . . . . .»، و «ما كان أقصر وقتاً كان بينهما» . . .

وندع هذا الآن ونتنقل بك في مواضع من الديوان على غير ترتيب، لترى أثر هذا الحبّ في شعر أبي الطيب وفي حياته، وما أصابه وهو في ظلّ سيف الدولة من جراء هذا الحبّ. وكان حق هذا الموضع من هذا الباب أن نتتبّع لك حياة أبي الطيب سنةً سنةً، ونكشف لك عن تدرُّج هذا الحبّ في شعره وقصائده حتى ننتهي الى الغاية ولكن . . . . وقف المتنبي في مجلس سيف الدولة ينشده قصيدته التي اولها

واحرَّ قلباه ممن قلبه شبم   ومن بجسمي وحالي عنده سقم

وقد زعموا ان سبب هذه القصيدة كان على ما قالوا . . . . «جرى له خطاب مع قوم متشاعرين وظن الحيف عليه والتحامل» الى غير ذلك. وقد اتى المتنبي في هذه القصيدة بكل عجيبة من القول في الكبرياء والحب لسيف الدولة والوعيد له كقوله

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا   بأنني خيرُ من تسعى به قدمُ

. . . .

كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم   ويكره الله ما تأتون والكرمُ

وقوله في حب سيف الدولة

يا من يعز علينا ان نفارقهم   وجداننا كل شيء بعدكم عدمُ

وقوله في انذاره

لئن تركنَ ضُمَيراً عن ميامننا   ليحدثن لمن ودعتهم ندمُ

اذا ترحلت عن قومٍ وقد قدروا   ان لا تفارقهم فالراحلون همُ

قالوا فلما انصرف ابو الطيب من مجلس سيف الدولة وقف له رجالةٌ في طريقه ليغتالوه، فلما رآهم ابو الطيب ورأى السلاح تحت ثيابهم، سل سيفه وجاءهم حتى اخترقهم فلم يقدموا عليه،

ونمى ذلك الى ابي العشائر فأرسل عشرة من خاصته فوقفوا بباب سيف الدولة ، وجاء رسوله الى ابي الطيب . فسار اليهم حتى قرب منهم ، فضرب احدهم يده الى عنان فرسه ، فسل ابو الطيب سيفه ، فوثب الرجل امامه ، وتقدمت فرسه الخيل ، وعبرت قنطرة كانت بين يديه ، واجترّهم الى الصحراء ، فأصاب احدهم نحر فرسه بسهم فانتزع ابو الطيب السهم ورمى به ، واستقلت الفرس وتباعد بهم ليقطعهم عن مدد كان لهم ، ثم كر عليهم ، بعد ان فني النشّاب . . . . . فلما يئسوا منه قال له احدهم في آخر الليلة نحن غلمان ابي العشائر فقال قصيدته التي مضت «ومنتسب عندي الى من أحبُّه » . ثم عاد ابو الطيب الى المدينة مستخفياً فأقام عند صديق له والمراسلة بينه وبين سيف الدولة ، وسيف الدولة ينكر ان يكون قد فعل به ذلك او امر به..... وكان ذلك في سنة ٣٤١ فلما رضي عنه سيف الدولة قال له قصيدة اولها

اجاب دمعي وما الداعي سوى طلل وظل يسفح بين العذر والعذل
ظللتُ بين أُصيحابي أكفكفهُ وظلَّ يسفح بين العذرِ والعذلِ
أشكو النوى ولهم من عَبرتي عجبٌ كذاك كنت وما أشكو سوى الكللِ

ثم انتقل من هذا المعنى الى معنىً غيره فقال

وما صبابةُ مشتاقٍ على أملٍ من اللقاء كمشتاقٍ بلا أملِ

وكأنه بهذا الانتقال يهوّن على سيف الدولة الامرَ ويذكر له أن هذا الحب الذي بينه وبين خولة كان على غير املٍ . وأنه لا يطمع في ان يظفر بادراك امله من الزواج بها . ثم يدلل على ذلك بما كان من الحادثة التي كاد يقتل فيها ، والتي تولى امرها ابو العشائر (وهو من قوم خولة) ، ويذكر لسيف الدولة ان اهل خولة لن يدعوه ان يكون بينه وبينها صلة كما بلغه الوشاة فانتقل من معنى البيت الى قوله

« متى تزر قوم من تهوى زيارتها لا يتحفوك بغير البيض والاسل »

وهذه صفة ما لقي ابو الطيب في ذلك اليوم الذي رويناه لك ، فانظر الى هذا الانتقال الذي يدل دلالة واضحة على ما في ضمير الرجل ، وما كان من سبب تلك الحادثة التي كادت تودي بحياته ، ثم انظر الترفق في قوله « لا يتحفوك بغير البيض والاسل » وذلك لما بينه وبين ابي العشائر من المودة والحب ، فهو يجعل اداة القتال (تحفة) ، وقد قال لابي العشائر في هذه الحادثة نفسها ابياتاً تدل على حبه له ، وتقرب اليك بيان هذا المعنى ، وقد مضى ذكرها ، ويقول له في آخرها

« فان كان يبغي قتلها ، يك قاتلاً بكفّيه ، فالقتل الشريف شريف »

وفي تلك السنة نفسها (٣٤١) يقول ابو الطيب ما نقلناه في رأس هذا الباب

« لعينيك ، ما يلقى الفؤاد وما لقى وللحب، ما لم يبق مني وما بقى »

فعلى ما نذهب اليه من شدة تأثير الحوادث في ابي الطيب ونفسه ، واستخراجه معاني شعره من تلك الحوادث ، وهجمه دائماً على ذكر الحوادث القريبة ، تجد في هذه القصائد ما يشير الى هذه الواقعة وما لقي فيها من الكيد . والظاهر أن هذه الجفوة التي كانت في سنة ٣٤١ امتدت الى اوائل سنة ٣٤٢ ، وكان من جرائها ان انقطع ابو الطيب مدة عن مدح سيف الدولة فاستبطأه وتنكر له ، فركب سيف الدولة يوماً في رجاله ، وقدم عليه ابو الطيب راكباً مهره ، فلما سلم عليه ازورّ عنه وأعرض فقال ابو الطيب

أرى ذلك القُرْبَ صار ازورارا وصار طويل السلام اختصارا
تركتنيَ اليوم في خَجْلةٍ أموت مراراً واحيا مرارا
أُسارقُك اللحظ مستحيياً وأزجر في الخيل مُهْري سِرارا
واعلمُ أني إذا ما اعتذرتُ إليك ، أراد اعتذاري اعتذارا
كفرت مكارمك الباهرا ت ، ان كان ذلك مني اختيارا

ثم يذكر له العلّة في ذلك الانقطاع عن مدحه فيقول

(ولكن حَمَى الشعرَ — الاّ القليل — همٌّ حمى النوم الاّ غِرارا)
(وما أنا أُسقمت جسمي به ولا أنا أضرمت في القلب نارا)
(فلا تلْزمَنِّي ذنوب الزمان اليّ أساء وإيّايَ ضارا)

وهذا الهم الذي يسقم الجسم ويضرم ناراً في القلب ، ولا يملك له الانسان ردًّا ، لا يكون الاّ هذا الحب العنيف الذي تقطع دونه الآمال ، ولا يكون هذا الهم الاّ ذلك ، فان ابا الطيب كان ممتعاً بكل شيء في ظلّ سيف الدولة فقد كان صاحب اقطاع ومال كثير قد أسبغه عليه سيف الدولة

وحسبك هذا من شعره وهو في جوار سيف الدولة ، ثم انظر الى أثر هذا الحب في شعره بعد فراق سيف الدولة ، فانه أدلُّ وأبلغ في الكشف عن سرّ قلبه . ولا بأس في ان نسرد لك ذلك على ما وقع في ترتيب ديوانه

فمن آثار هذا الحب في شعر ابي الطيب ، ما وقع في القصيدة الاولى التي أنشدها كافوراً في جمادى الآخرة سنة ٣٤٦ حين قدم عليه بالفسطاط . وقد رأيت قبل أننا لم نتعرض لعاطفة ابي الطيب في شعره الى ان اتصل بسيف الدولة ، فاذا انت عدت الى شعره في ذلك العهد الاول لم تجد فيه الاّ قسوة وشدة وعنفاً ليس لشعر ، وقلما لان الرجل او ترقق الاّ متكلفاً للغزل . وكان قد فارق قبل سيف الدولة رجالاً احبهم وصحبهم وباذلهم مكنون صدره من الودّ ، ولم يظهر في شيء من شعره بعد فراقهم اثر لهذا الفراق الاّ قليلاً قليلاً . ولكنه حين فارق سيف الدولة

ودخل مصر ظهرت في شعره رقة لا عهد له بها ، ولا تكون العلة في هذه الرقة التي ظهرت فيه بعد ان جاوز الاربعين ، واستحكم واستمر مريره ،واستوت طبيعته على طريقة من القوة والتشدد والاستمساك — من أجل فراقه سيف الدولة وحسب ، فان ذلك الفراق بين (الرجلين) لا يعمل في تغيير الطبيعة المتأصلة كل هذا العمل . وليس لشيء من العمل في تغيير الطبائع وتبديلها مثل ما للحبِّ في القدرة على ذلك . وكان أبو الطيب حين فارق سيف الدولة ، يتلفتُ قلبه الى تلك التي خلّفها من ورائه ، وخلّف عندها قلبه وعواطفه ، فأثار ذلك في قلبه ذكرى وآلاماً ، جعلت الدنيا تضيق بها نفسه وتضجَرُ منها، فكان أول ما لقي كافوراً لقيه بالبيت الذي عدَّه الادباء والنُّقاد من سوء أدب المتنبي ومن جفائه وغلظته ، وليس الامر على ذلك ، فان الرجل لم يكن جافياً ولا غليظاً ولا سيء الادب،ولا ضعيف البيان ، ولكنه كان كما حدثناك مرهف الحسّ ، تغلبه العاطفة على أمره فلا يملك لبيانه تصريفاً ، وتصرّف عاطفته هذا البيان كما شاءت والعاطفة لا تعرف أميراً ولا كبيراً ، ولا تفرق بين لقاء الملوك ولقاء الصعاليك ، فلذلك رمى في وجهِ كافور بهذا

كَفَى بك داءً أن ترى الموتَ شافيا — وحَسْبُ المنايا أن يكنَّ أمانيا
تمنيتَها لما تمنيْتَ أن ترى — صديقاً فأعيا أو عدوًّا مداجيا

ثم يمضي ابو الطيب على طريقته حتى يرقّ رقّةً ، لو انت قلبت ديوانه كله لم تجد لها شبيهاً ولا مثيلاً ، وذلك قوله في خطاب قلبه ، ذلك القلب الذي حطم فيه فراق خولة، وهد بنيان رجولته وقوته

(حَببتك قلبي،قبل حبك من نأى،[1] — وقد كان غدَّاراً ، فكن أنتَ وافيا)
(وأعلم أن البَيْن يُشكيك بعده ، — فلست فؤادي إن رأيتك شاكيا)
(فإن دموع العين غُدْرٌ بربّها — إذا كنَّ إثر الغادرين جواريا)
اذا الجود لم يرزق خلاصاً من الاذى — فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقيا
وللنفس أخلاق تدل على الفتى — أكان سخاءً ما أتى أم تساخيا
(أقِلْ اشتياقاً أيها القلب ، ربما — رأيتك تُصفي الود من ليس صافيا)
(خُلِقتُ أُلوفاً،لو رجعتُ إلى الصبى — لفارقت شيبي موجع القلب باكيا)

فاقرأ الابيات وتدبرها ، وانظر في خطابه قلبه — على غير عادته — خطاباً رفيقاً متنهداً ذا زفرات ، وانظر اضطراب امره بين قلبه وفكره ، وبين عاطفته ورجولته ، يقول لقلبه : « لست فؤادي ان رأيتك شاكيا » ثم يعود فيقول « خلقت ألوفاً . . . . » فليس في الابيات حبه لسيف الدولة وحسب بل فيه نفحات من لوعة الحب الذي يستولى على القلب : حب المرأة التي

(١) يريد بهذه الكناية (سيف الدولة)

يهجرها الرجل وهو يعلم يقيناً انه لا يهجرها وإنما يهاجر قلبه الذي بين جنبيه ويعانده ويراغمه . هذا وقد ظهر نفس هذا الأثر في كثير من شعر المتنبي ، ظهر في حكمته ظهوراً بيناً وذلك كقوله

ليت الحوادث باعتني الذي أخذتْ مني ، بحلمي الذي أعطت وتجريبي
فما الحداثة من حلمٍ بمانعةٍ قد يوجد الحلم في الشبان والشيبِ

وهذا القول ليس من مذهب المتنبي في كلامه الاول الى فراقه سيف الدولة ، ومثل ذلك قوله

أودُّ من الايام ما لا تودُّهُ وأشكو اليها (بيننا) وهي جنده
(يباعدن حِبًّا يجتمعن ووصله فكيف بحِب يجتمعن وصدُّه ! ؟)
(أبى خُلُقُ الدنيا حبيباً تُديمه فما طلبي منها حبيباً تردُّه)

ثم تلفت المتنبي الى ما كان من فراقه خولة ومهاجرتها مراغماً لقلبه ، متكلفاً الصبر والجلد فقال في عقب ذلك

(وأسرع مفعول فعلتَ ، تغيُّراً تكلف شيء في طباعك ضده)

وكان ابو الطيب يظن ان في الفراق ما ينسيه خولة ويمحو من قلبه آثارها ، وقد فارق ، وعلم ان ذلك لن يكون ، وان ما كان من اندفاعه ومراغمته عند اول الفراق إنما كان أمراً يخالف طبيعة حبه التي وصفها في شعره قبل وهو عند سيف الدولة بقوله

إلامَ طماعيــة العاذل ولا رأي في الحب للعاقلِ
(يُراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقلِ)

هذا .... واذا انت اخذت في دراسة شعره في المدح والحكمة في هذه الفترة ، وجدت آثار هذا الحب الذي انقطعت منه آمال اللقاء والنظر والابتسامة والتلطف ، وما رمى في قلب ابي الطيب من الكمد والحسرة والاسف والحنين ، فأصبح كلامه وبيانه من تلك العواطف اليائسة التي انطوى عليها قلبه ، واضطرب بها ضميره وفكره [1] ، وبذلك تميز شعره في هذا العهد عن شعره فيما سبقه وتباين عنه تبايناً عظيماً

ويقول ابو الطيب يذكر فراقه سيف الدولة ومقدمه على كافور

فراقٌ . . . ، ومن فارقتُ غير مذمَّم وأمٌّ . . . ، ومن يممتُ خير ميمَّمِ
وما منزل اللذَّات عندي بمنزل إذا لم أُبجَّلْ عنده وأُكرَّمِ
سجيَّةُ نفس لا تزال مُليحةً من الضيم ، مرميًّا بها كلُّ مخرَمِ
(رحلتُ ... فكم باكٍ بأجفانِ شادن عليَّ !! وكم باكٍ بأجفانِ ضيغمِ !!) [2]

---

(١) سيكون بيان ذلك تفصيلا في بيت بيت وقصيدة قصيدة في موضعه من كتابنا عن ابي الطيب ، ونعتذر عن ذلك هنا ، لما ترى من تشعب الموضوع وسعته ، وما يقتضي من الوقت

(٢) الشادن ولد الغزال ، يريد به المرأة الغريرة الحسناء ، والضيغم الاسد

(وما ربّةُ القُرْطِ المليحِ مكانُهُ ، بأجزعَ من ربّ الحسام المصمّمِ)
(فلو كان ما بي من حبيبٍ مقنّعٍ عذرتُ ، ولكن من حبيبٍ معمّمِ)
(رمى،واتّقى رميي،ومن دون ما اتقى، هوًى كاسرٌ كفي ، وقوسي ، وأسهمي)

فهو بالبيت الاول قد عين من أراد بهذه القصيدة . فالذي فارقه هو سيف الدولة ، والذي قصدهُ ويممه هو كافور وعلى ذلك اتفق الشراح جميعاً ، فلما أتى البيت الرابع قال « رحلت » يعني رحلته عن حلب، ثم ذكر بعده ما كان من جراء هذا الفراق وأبان عن الذي كان سبباً فيه، وقابل في ذلك بين اثنين رجل وامرأة . فذكر باكية تبكي على فراقه بعيني غزال ، وباكياً يبكي بعيني أسد ، وجازعة لفراقه زينتها قرطها الذي في أذنها ، وجازعاً زينته حسامه ، وقد اتفق الشراح ايضاً — ولا شك فيما قصده ابو الطيب — على انه قصد سيف الدولة بقوله « ضيغم » وقوله « رب الحسام المصمم » . والمقابلة بين سيف الدولة وهذه المرأة دليل على صلتها بسيف الدولة وأبي الطيب ، ومعرفة سيف الدولة بهذه الصلة ، ولا نشك بعد ما رأيت انه عنى بالباكية الجازعة لفراقه « خولة » اخت سيف الدولة ، ثم قال بعد « فلو كان ما بي من حبيب مقنعٍ عذرتُ » وصبرت على ما يصيبني منه لحبي اياه ، والاذى من المرأة المحبوبة ينزل من قلب المحب منزلة الرضا، فهو لا يحمل على فراق ولا بينٍ . ولكن الذي حملني على الفراق كون هذا الاذى انما اصابني « من حبيب معمم » هو سيف الدولة . ثم صرح في البيت الاخير مبيناً عن هواه فقال ان سيف الدولة رماه بسهمه (يريد الاذى الذي اصابه منه) ، واتقى بدرعه ان يرميه ابو الطيب بسهم مثله، وهذا الاتقاء من سيف الدولة عمل لا محل له ، إذ كان يعلم يقيناً ان أبا الطيب لن يرميه جزاءً له كما رماه ، لما في قلبه من حب خولة اخته وهواها الذي يحبس يده ويكسر كفه ، ويحطم قوسه ، ويدق سهامه

هذا . . . وقد رووا ان ابا الطيب اتصل به وهو بمصر ان قوماً نعوه في مجلس سيف الدولة بحلب فقال قصيدة يذكر ذلك ولم ينشدها كافوراً ، وكان مما جاء في أولها قوله

بمَ التعلل...؟! لا أهلٌ ولا وطنُ ، ولا نديم ، ولا كأس ، ولا سكنُ
أريد من زمني ذا أن يبلغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمنُ !!
لا تلقَ دهرك إلاَّ غير مكترثٍ ما دام يصحب فيه روحك البدنُ
فما يُديم سرورٌ ما سُررْتَ به ولا يَرُدُّ عليك الفائتَ الحزنُ
(مما أضرَّ بأهل العشق أنهم هَوُوا وما عرفوا الدنيا،وما فطنوا)
(تَفنى عيونهم دمعاً وأنفسهم في إثر كل قبيح وجهه حسنُ)
تحمّلوا . . . حملتكم كلُّ ناجيةٍ ، فكلُّ بينٍ عليَّ اليومَ مؤتمنُ

(ما في هوادجكم من مهجتي عوضٌ إن متُّ شوقاً ، ولا فيها لها ثمنُ)
يا من نعيت على بعدٍ بمجلسه كلٌّ بما زعم الناعون مرتهنُ
كم قد قُتِلتُ ،وكم قد مِتُّ عندكم!! ثم انتفضت فزال القبر والكفن

وفي هذه الابيات عندنا قول كثير نوجزه ونمدُّ منه أطرافاً تتفادى الإطالة ...، ففي الابيات الاولى تأخذ عينك أثر الاحزان التي كانت في قلب الرجل متمثلة مصورة في شعره . وتدبر عبارته عن آلامه بقوله « بم التعلل » ...!! وهذا السكون الذي يعقب استفهامه وتعجبه ، فهو بيان في غير لفظ ، ثم يعود الى القول فيقول « لا أهلٌ ولا وطن ، ولا نديم ، ولا كأس ولا سكنٌ » . فقد كان بمصر وليس بها أحد يسكن اليه الاّ ولده محسّد ، وهو مهاجرٌ لاوطن له ، وهو بمصر غريب لا صديق له ولا نديم ، وقد سئمت نفسه كل شيء حتى الكأس من الخمر لا تسليه ولا تحرّكه ، ثم تمم ذلك بلوعة قلبه إذ فقد سكنه وحبيبه الذي يسكن اليه ويأوي . ثم مضى يتنقل في المعنى حتى انتقل من تجلده تارةً ومن احزانه اخرى الى الداءِ الذي يسلُّ قلبه ويسقمه فقال متنقلاً على عادته التي بيّناها قبل

مما أضرَّ بأهل العشق أنهمُ هوُوا ، وما عرفوا الدنيا ولا فطنوا

وهو بيان عن نفسه وما يحزُّ فيها من آلام (خولة) ، وما لقيه بعدها من الاضطراب بين رجولته التي تأبى ان تخضع أو تضعف ، وبين عواطفه التي تأبى الاّ ان تخشع لخولة ، وتتعبد بذكرها وهواها وآلام حبها . وكان من جراء هذا الاضطراب أن أنكر (الرجل) قلبه ، وقساعليه وتعنّف به ، وذم له هذه التي قد تولّه بها ، وهي التي أضرت به وأشقته وعذبته ،سفهاً وجهلاً منه اذ اراد ما لا يكون ، ولا تأتي به الاقدار ، ولا ترضى به التقاليد الاجتماعية في هذه الدنيا ، كما ذكر في البيت الماضي ، فقال في عقب ذلك معانداً ومراغماً لما في قلبه

« تفنى عيونهم دمعاً ، وأنفسهم في إثر كل قبيحٍ وجهه حسن »

رحمك الله يا أبا الطيب . . . ثم انطلق يعاند قلبه ، ويذمُّ له خولة ، ولا ذنب لها الاّ ما تكلفه هو بالفراق ، وإرادة نسيانها ، « وتأبى الطباع على الناقل » أن يكون ذلك . ثم انظر خطابه بعد لسيف الدولة بقوله

يا من نعيتُ — على بُعدٍ — بمجلسه كلٌّ بما زعم الناعون مرتهن

فوربّك إني لأخال أبا الطيب قد قال هذا البيت وهو يبكي، فإن في الشطر الاخير عبرات من دمعه لا تزال تجول فيه وتترقرق . فكلُّ ذلك آثارٌ بينةٌ على انتقال طبيعة أبي الطيب من تكبرها وعتوّها وتزمّتها الى حالةٍ نفسية طارئة قد نفذت فيه آلامها وأهوالها . فهو يعاني منها ما يعاني ، ويضطرب لها ويهتزُّ ويتلذع ، حتى كان شعره بعد فراق سيف الدولة كثير الشكوى ،

مخالطاً بالحزن والحسرة والألم، وقد تنبه الى ذلك أبو الطيب نفسه فقال في قصيدة من مدائحه لكافور

لحى الله ذي الدنيا مناخاً لراكب ! فكل بعيد الهمّ فيها معذّب
(ألا ليتَ شعري ، هل أقول قصيدة فلا أشتكي فيها ولا أتعتَّب ؟ !)
وبي ما يذودُ الشعرَ عني أقلّه ولكنَّ قلبي ، يا ابنة القوم ، قلّب)

وهذا الذي به مما يذود عنه الشعر ويمنعه من أن يقوله ، هو الذي ذكره أولاً فيما تقدم

ولكن حمى الشعرَ — إلاَّ القليل — همٌّ حمى النومَ إلاَّ غرارا
وما أنا أسقمت جسمي به ولا أنا أضرمتُ في القلب نارا

وهو حب (خولة) الذي ملأ قلبَ الرجل وأخذه وتفرَّد به دون فكره وإرادته

. . . . . . فلما ماتت خولة رحمها الله في سنة ٣٥٢ بعد خروجه من مصر ، تغيرت طبيعة أبي الطيب واسودت الدنيا في عينه ، وامتلأ قلبه حزناً ، وتقطعت نفسه عليها حسرات ، فكان شعره بعد من هذه المادة ، وأول ذلك ما كان من شعره في القصيدة التي رثاها بها اذ يقول لسيف الدولة

فلا تنلكَ الليالي ! ! إن أيديَها إذا ضربنَ كسرنَ النَّبع بالغرَبِ
ولا يُعِنَّ عدوًّا أنت قاهره فانهنَّ يصدنَ الصقرَ بالخرَبِ
(وإن سررن بمحبوب فجعن به وقد أتينك في الحالين بالعجبِ)
(وربما احتسب الانسان غايتها وفاجأته بأمرٍ غير محتسبِ)
وما قضى أحدٌ منها لبانته ولا انتهى أرب الاّ الى أربِ
تخالف الناس حتى لا اتّفاق لهم الاّ على شجَبٍ، والخلف في الشجبِ
فقيل تخلُصُ نفس المرء سالمةً وقيل تشرَكُ جسمَ المرء في العطبِ
ومن تفكر في الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعبِ

وأعد قراءة الابيات الثلاثة الاخيرة وتدبر نفس ابي الطيب فيها ، فهو يكاد ينقطع ويسقط من العجز والتعب والفكر في الذي أصابه بموت حبيبته خولة . فاذا اردت ان تعرف تمام حالة ابي الطيب هذه ، وامتداد فكره فيها فاقرأ قصيدته التي قالها حين توفيت عمة عضد الدولة بن بويه في سنة ٣٥٤ والتي يقول فيها

نحن بنو الموتى ، فما بالنا نعافُ ما لا بُدَّ من شربهِ ! !

. . . .

لو فكر العاشق في منتهى حسن الذي يسبيه لم يَسْبِهِ

وبقي كثير من الاشارات الى هذا الذى في قلبه ، طويناه حتى يأتي أجله ، والله المستعان

يا رجاءَ العيون في كلِّ أرضٍ
لم يكن – غير أن أراك – رجائي
ولقد أفنتِ المفاوزُ خيلي ،
قبل أن نلتقي ، وزادي ومائي
فارمِ بي حيث شئت مني ، فإني
أسدُ القلب آدميُّ الرُّواء
وفؤادي من الملوك ، وإن كا
ن لساني يُرَى من الشعراء

قد ذكر الرُّواة في موضع القول من فراق أبي الطيب حضرة سيف الدولة أسباباً موجبة لهذا الفراق ، كالذي يروون من انه كان بحضرة سيف الدولة، وفي المجلس أبوالطيب اللغوي، وابن خالويه النحوي ، وجرت مسئلة في اللغة بين ابي الطيب اللغوي وابن خالويه ، فتكلم أبو الطيب المتنبي ، وضعف قول ابن خالويه ، فأخرج ابن خالويه (من كمه مفتاحاً من حديد) يشير به إلى المتنبي ، فقال له المتنبي : ويحك ! اسكت ، فانك أعجميٌّ ، وأصلك خوزيٌّ ، فمالك والعربية ! فضرب ابن خالويه وجه المتنبي بذلك المفتاح فأسال دمه على وجهه وثيابه . فغضب المتنبي من ذلك ولاسيما إذ لم ينتصرْ له سيف الدولة ، قولاً ولا فعلاً ، فكان ذلك أحد اسباب مفارقته لسيف الدولة . وكالذي يروون من كيد أبي فراس له عند سيف الدولة بمثل قوله له: « إن هذا المتشدق (يعني المتنبي) كثير الإدلال عليك ، وانت تعطيه كل سنةٍ ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد. ويمكن ان تفرق مئتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره ، فتأثر سيف الدولة من هذا الكلام وعمل فيه » فأعرض عن أبي الطيب لذلك

فهذه الروايات وغيرها — كما حدثناك قبل(١) — هي من الاحاديث التي تتناقلها مجالس الادباء ، ولا يراد بها التحقيق ، ولا ينظر فيها الى صدق الرواية وسياق التاريخ وما الى ذلك، ولكنا نستفيد منها على علاتها ، ونأخذ منها وندع ، ولا نطيل القول هنا بنقدها وتجريحها ، فلذلك أجله وموضعه ان شاءَ الله

---

(١) ص ١١١

والرأي عندنا ان فراق أبي الطيب لسيف الدولة مشكلة معقدة يطول تفسيرها وتبيانها على وجه معقول لا يتناقض ولا يختلف . ومختصره ان هذا الفراق كان لاسباب قد اقتضاها حبّ أبي الطيب خولة أخت سيف الدولة . وبقي أبو الطيب في جوار صاحبه وحبيبته يتلذع بآلام قلبه وفكره تسعة أعوام محرّمة ، وهو على عدة من سيف الدولة ان يحقق آمال فكره السياسية ، وأمانيّ قلبه وعواطفه بزواج خولة ، ثم أدركه اليأس وظن أن في الفراق راحة له ونسياناً ، وهو ما أشار إليه في قوله — على ما فسرناه به (١)

« وأسرع مفعولٍ فعلت تغيراً تكلف شيء في طباعك ضده »

وقد حمله على ذلك ما كان يلقاه من الكيد والسعاية من قبل (قوم) خولة ، كأبي فراسٍ وأبي العشائر وغيرهما ، وما فعلوه من تحريض الادباء عليه كابن خالويه ، واغراء الشعراء بغيظه ومنافسته والنيل منه حتى ضاق بهم فاستعدى عليهم سيف الدولة بمثل قوله

أزلْ حسَد الحسّاد عني بكبتهم فأنت الذي صيرتهم لي حُسَّدَا
(إذا شدَّ زندي حسن رأيك فيهم ضربت بسيف يقطع الهام مغمدا)
(وما أنا الاّ سمهريٌّ حملته فزيّن معروضاً وراع مسدَّدا)
وما الدهر الاّ من رواة قصائدي اذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
فسار به — من لا يسير — مشمّراً وغنى به — من لا يغني — مغرّدَا
(أجزني اذا أُنْشِدْتَ شعراً، فانما بشعري أتاك المادحون مردَّدا)
(ودع كل صوت غير صوتي ، فانني أنا الطائر المحكيُّ والآخر الصدى)

وقوله أيضاً في ذلك

أفي كل يوم تحت ضِبْني شويعر ضعيف يقاويني قصير يطاول

. . . .

وقد بين في هذه الابيات ايضاً عن وشايات وسعايات كان يكاد بها لدى سيف الدولة من الطعن في نسبه ، والتشهير به في خلقه وضميره

أنا السابق الهادي الى ما أقوله إذ القول قبل القائلين مَقول
(وما لكلام الناس فيما يريبني أصول ، ولا للقائليه أصولُ)
أعادَى على ما يوجب الحبَّ للفتى وأهدأ والافكار فيَّ تجولُ
سوى وجع الحساد داوِ ، فانه إذا حلّ في قلب فليس يحولُ

(١) انظر ص ١٣٩

ولا تطمعنْ من حاسد في مودة وإن كنت تبديها له وتنيلُ
وإنا لنلقى الحادثات بأنفس كثير الرزايا عندهن قليل
يهون علينا ان تصاب جسومنا وتسلم أعراضٌ لنا وعقول)

وقد كان يتولى امر هذا الكيد كله ابو فراس الحمداني ، وعندنا ان المنافسة في الشعر لم تكن هي السبب ، وإنما كانت (خولة) السبب الاكبر الذي جاب عليه كيد أبي فراس ، ثم أبي العشائر — مع أنه هو الذي قدمه الى سيف الدولة وقرَّبه اليه على ما يقولون . وقد بلغ من ذلك أن أغرى أبو العشائر غلمانه بقتله ، وقد رأيت قبل أن أبا الطيب على ذلك لم ينقص حبه لأبي العشائر ولا ضعُف . وهذا لأنَّ الامر لم يكن منافسةً في شعرٍ او غيره ، وانما كان غيرة من أبي العشائر على بعض حرَمه ، وأبو الطيب كما حدثناك في موضع كان يضع (الرجولة) وتوابعها في المنزلة الاولى ، ويحب من عدوه أن يستمسك بعروتها ، فلذلك لم يحقد على أبي العشائر حين أخذته الغيرة على حرَمه ، بل ازداد تعطفاً عليه وتلطفاً له ، على تكبره وتعاليه وعتوّه ، حتى قال له

(ونفسي له — نفسي الفداء لنفسه — ولكن بعض المالكين عنيف)
فان كان يبغي قتلها ، يكُ قاتلاً بكفَّيه ، فالقتل الشريف شريف

وبهذا يصبح لفراق أبي الطيب لسيف الدولة معنىً يُعقل ويعتمد عليه ويعتدُّ به ، ثم تتسق حالته النفسية الظاهرة في شعره ، وتتساوق معاني ديوانه متدرجة على أساس من نفسه وآلامها وآمالها وأشواقها ، وما أصابها من الكيد والعدوان، وما منيتْ به من حرقة الحب،ولوعة الحرمان

خرج أبو الطيب من حلب حيث كان سيف الدولة قاصداً دمشق ، وقد احتال لذلك حتى تم له الفراق قبل ان تدركه مكايد أبي فراسٍ وأصحابه وذلك في اواسط سنة ٣٤٦ . وكان يحمل بين جنبيه قلباً ممزقاً قد اعتورته السهام او كما قال

رماني الدهر بالارزاء حتى فؤادي في غشاء من نبالِ
فصرت اذا أصابتني سهامٌ تكسرت النصال على النصالِ
وهان . . . فما أبالي بالرزايا لأني ما انتفعت بأن أُبالي

فهو قد أصيب في آماله السياسية ، وأُصيب في هوى قلبه ، وأصيب في محبة سيف الدولة، وما كان يضمر له من الاخلاص والتوقير والودّ ، فانطوى على ما به ، محزوناً ضجراً ملولاً ، يتبرّم بالدنيا ويضيق بها وبأهلها ذرعاً . فلما وافى دمشق ودخلها ، كان بها رجل يهوديٌّ من قبل كافور، كان أبو الطيب يستثقل ظله على قلبه ، وكان قد لقيه قبل في سنة ٣٢٧ حين نزل على صاحبه أبي

علي (هرون بن عبد العزيز الاوراجي) الكاتب ، فسوّلت نفسُ هذا اليهودي لارادته ورغبته ان يحمل ابا الطيب على ان يمدحه بعد ان مدح أمير الامراءِ سيف الدولة ، وتقذّر ابو الطيب هذا اليهودي وغثيت به نفسه ، فسكّنها بالاعراض عنه وازدرائه والتهاون به ، فغضب اليهودي (ابن ملك) غضبة يهودية ، حتى اذا ما كان من كافور ما كان ، من مكاتبته في طلب ابي الطيب ان يقدم عليه ، فعلها ابن ملك ، وكتب الى كافور أن ابا الطيب قال : « لا أقصد العبد ، وان دخلت مصر فما قصدي الاّ ابن سيّده » . ثم ضاقت دمشق بأبي الطيب ، فخرج منها يريد صاحبه الامير ابا محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج بالرملة الذي مدحه في سنة ٣٣٦ كما قدمنا ، فاستقبله وانزله منزلاً كريماً وحمل اليه الهدايا النفيسة ، وخلع عليه الخلع الفاخرة ، وحمله على فرس بموكب ثقيل ، وقلده سيفاً محلًّى ، جزاءً لما كان مدحه به اولاً ووفاءً بالصحبة . فكان كافور يقول إذ ذاك لاصحابه « أترونه يبلغ الرملة ولا يأتينا ! ! » . وبلغ ذلك ابا الطيب ، وأن كافوراً يجد عليه في نفسه ، أن يقصد عماله (كابن طغج) ولا يقصده ، وأتت ابن طغج كتب كافور في طلب ابي الطيب ، وكان ابن طغج فيما نرى رجلاً بصيراً داهية مترفقاً حلو اللسان مطاع الرغبة ، فأخذ يراود ابا الطيب ، وأبو الطيب يتعسر عليه ويضيق بطلبه ، لما تحمل نفسه من الضجر والتبرم ، وبعد لأي ما ظفر به الامير ابن طغج وحمله على المسير الى كافور . فلما قدم عليه امر له بمنزل ووكل به جماعة ، واظهر التهمة له ، وطالبه بمدحه فلم يمدحه ، فخلع عليه الخلع حتى أحرجه بكرمه ، فلم يجد ابو الطيب الذي يقول

« ومن وجد الاحسان قيداً تقيَّدا »

بدًّا من ان يحمل نفسه على مدح هذا الأسود الخصي ، عله يصيب عنده ما فاته عند غيره من الفحول البيض . وعزى نفسه بذلك ، ولكنها أبت عليه أن تكون خالصة لكافور ، فرمت في وجه كافور بأبياتها لا أبيات ابي الطيب

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا
تمنيتها لما تمنيت ان ترى صديقاً فأعيا ، او عدوًّا مداجيا

واستقبال كافور بهذين البيتين هجاء دونه كل هجاء فيه اقذاع وفحش وسخرية وتهكم . وبقي ابو الطيب بعد ذلك بمصر يحتال لامره ، ولا يزال ينفث في كل شعر ذات صدره من الآلام والآمال ، وألقى على شعره ظلاً من الحزن والفجيعة والحسرة واليأس . ولكنه كان مع ذلك يجتهد في ان يظفر من كافور بولاية من الولايات يقوم عليها ليجرب نفسه بعد ان أخفق في عقد آماله على غيره . وكان أبو الطيب حين خرج من حلب ، خرج ومعه الخالديان (أبو عثمان سعيد بن هاشم وأخاه محمد) . وكانا يريدانه على أن يصحبهما الى العراق ، فيمدح الوزير أبا محمد المهلبيّ ،

فأبى عليهما وخالفهما ، فذلك حيث يقول أبو الطيب يذكر ما كان من أمره وأمرها ، ويعرّض بحاجة نفسه لكافور

وفي النفس حاجاتٌ وفيك فطانةٌ سكوتي بيانٌ عندها وخطابِ
وما أنا بالباغي على الحبّ رشوةً ، ضعيفٌ هوًى يبغى عليه ثواب
(وما شئت إلاّ أن أدلّ عواذلي على أن رأيي في هواك صواب)
(وأعلم قوماً خالفوني ، فشرّقوا وغرّبت، أني قد ظفرت وخابوا)[1]

. . . .

(إذا نلت منك الودّ ، فالمال هينٌ ، وكلُّ الذي فوق التراب ترابُ)
وما كنت — لولا أنت — إلاّ مهاجراً له كلَّ يومٍ بلدةٌ وصحاب)

ولم يكن أبو الطيب يؤمّل من كافور ماله أو عطاياه أو هداياه، فقد كان غنيًّا بما أعطاه سيف الدولة، او ما ادخره من عطائه وإقطاعه الذي كان له بالشام،[2] بل كان يريد أن يلي بعض بلاد الصعيد، أو صيداء كما ذكروا ، وذلك ليحقق ما استطاع آماله السياسية التي تترامى الى غاياتها التي قدمناها قبلُ . وقد زعموا أن كافوراً قال له حين ذكر حاجته : « أنت في حال الفقر وسوء الحال وعدم المعين ، سمت نفسك الى النبوة ، فان أصبت ولايةً وصار لك أتباعٌ فمن يطيقك » . وهذا من كلام الرواة وحسبُ . . . . والذي نراه رأياً أن كافوراً كان يعلم يقيناً أن أبا الطيب لا يضمر له حبًّا ولا كرامة ، بل كان يزدريه في نفسه ، وحسبه ما لطمه به في أول لقاء كما مرَّ بك ، وحسبه ما كان يذكر في مدحه له من الحنين الى سيف الدولة وندمه على فراقه كقوله

أرى لي بقربي منك عيناً قريرة وإن كان قرباً بالبعاد يشابُ

وأبينُ تعريضاً وأبلغ إفصاحاً عن حقارة هذا الأسود في نفس أبي الطيب ما يقول له في اول مديحه

أغالبُ فيك الشوقَ ، والشوقُ أغلبُ وأعجبُ من ذا الهجرِ، والوصلُ أعجبُ

والضمير في قوله (فيك) يرجع الى سيف الدولة ، ويريد بالهجر مفارقته سيف الدولة ، وبالوصل مقدمه على كافور ، ثم يزيد فيقول بعد

أما (تغلط) الأيام فيّ بأن أرى (بغيضاً) تُنائي ، أو (حبيباً) تُقرّبُ
ولله سيري ، ما أقلّ تَئِيَّةً عشيةَ شرقيَّ الحدالَى وغُرَّبُ
عشية أحفى الناس بي (من جفوته) وأهدى (الطريقين) التي أتجنب

---

(١) يعني بالتشريق ذهاب صاحبيه الى العراق قصدين المهلبي ، والتغريب مقدمه هو على مصر لمدح كافورا
(٢) يذكرون أن سيف الدولة تقدم الى (ديوان البر) باخراج الحال فيما وصل به أبو الطيب المتنبي فخرجت بخمسة وثلاثين ألف دينار في مدة (اربع سنين)

فانظر الى نفس ابي الطيب في شعره ، ودقة بيانه بقوله (أما تغلط الايام) وهذا التصريع الذي وضعناه بين الاقواس يريد به سيف الدولة وكافوراً ، أفتظنُّ ان هذا كان مما يخفى على (الاستاذ) كافور ، وكان من علماء عصره وأدبائهم . وهل كان يخفى على كافور ماسخر أبو الطيب به في شعره من ذكر سواده والتعريض به ، وجعله من مادة مدحه له ، والاتيان في ذلك بكل غريبة ونادرة ، مما يدل على تمكن الاصول البيانية في لسان أبي الطيب وقلبه . انظر الى قوله وهو يهنئ كافوراً ببناء الدار التي أقامها بإزاء الجامع الاعلى على البركة

نزلتْ إذ نزلتَها الدَّارُ في أحســن منها ، من السَّنى والسناء

وهذا لا بأس به ، ولكن تدبر التهكم العجيب في هذه الابيات ، وذكر المستحيلات التي لا تقع ولا تكون ولا تُتَوهم إذ جعله (شمساً منيرة) ولكنها سوداء .... !!

تفضحُ الشمسَ — كلما ذرَّتِ الشمــسُ — بشمس منيرة (سوداء)

إن في ثوبك — الذي الجد فيه — لضياءً يزري بكلِّ ضياء

وهذا الضياء هو سواده

إنما (الجلد) ملبسٌ، وابيضاض الــنَّفس خير من ابيضاض القباء[1]

كرمٌ في شجاعةٍ ، وذكاءٌ في بهاء ، وقدرةٌ في وفاء

من لبيض الملوك أن تبدل اللوْ نَ (بلون الاستاذ ، والسحناء)

ثم يجعله بعد ذلك (رجاء العيون في كل ارض) ، وذلك لانه عجيبة من عجائب الدهر . وتدبر كل شعر الرجل في مدح كافور تجد أمثال ذلك بيّناً دالاً على نفسه ، وتنبهْ لالفاظ الرجل فانها هي التي كان يطوى تحتها معاني تهكمه بكافور كقوله « يا رجاء العيون » ، وتنبهْ إلى قلبه المعاني ، ولفها عن وجوهها كقوله مثلاً

وما كنتَ ممن أدرك الملك بالمنى ولكن بأيام أشبن النواصيا

(عداك تراها في البلاد مساعياً وأنت تراها في السماء مراقيا)

وهذا البيت الاخير تعريض بسقوط همة كافور ، وليس بمدح . وكان حق المعنى ان يكون

(عداك تراها في السماء مراقياً وأنت تراها في البلاد مساعيا)

وذلك أن الاعداء يستعظمون ما كان من تملكه البلاد ، ويعدونه أمراً عظيماً كالرقيّ إلى السماء — وذلك لحسدهم وعداوتهم التي تربو في صدورهم فترمي في الواقع بالوهم فيتعاظم في العيون — ولكن كافوراً لبعد همته ، لايراها أمراً عظيماً بل هي مساعٍ في الارض لاجهد فيها إلاّ كجهد

(١) تدبر قوله (الجلد) فهو هنا من أقبح الهجاء باللفظ قبل المعنى ، وكذلك قوله « لون الاستاذ والسحناء »

المثني . . . فهذا هو المعنى الذي قلبه ابو الطيب ببيانه القويّ ، ليعرضه مدحاً . وهو ذمٌّ بليغٌ وهجاءٌ نافذ

فكان كافور يجيد فهم ذلك وينفذ الى اسراره ، ويبصّر به إن لم يكن قد ادركه ، فقد كان ابو الطيب وهو بمصر ماقيّ بالرزايا ، مقصوداً بالعداوة من اقوام بعينهم كانوا يمهدون للدعوة الفاطمية ، وكانوا على صلة بكافور وثيقة ، يبدون له المحبة والاخلاص ، وهم يعملون على إهلاكه. وكان كافور يتقي ذلك بدهائه وحياته وخبرته السياسية فكان يهادي المعز لدين الله الفاطمي صاحب المغرب ويظهر ميله اليه ، وهو مع ذلك يذعن بالطاعة لبني العباس ويداري ويخدع هؤلاء وهؤلاء . وايضاً ما كان من عداوة الوزير أبي الفضل ابن حنزابه (جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات)، وكان عالماً فاضلاً له درس يلقيه وهو في وزارته، وكان المتني لم يمدحه ولا عبأ به فلذلك عاداه ، وكاد له كيداً بالغاً حتى ان المتنبي ذكره بعد خروجه من مصر فقال

وماذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحكٌ كالبكا
بها (نبطيٌّ) من أهل السواد يدرّس أنساب أهل الفلا

والنبطي هو هذا الوزير ، وكان عالماً بالانساب قائماً عليها ، ألف كتباً في أسماء الرجال والانساب ، وقصدته العلماء لذلك، كالحافظ المحدث ابي الحسن الدارقطني، قدم عليه من العراق واقام عنده

وأقام ابو الطيب بمصر على كره الى ان ورد ابو شجاع فاتك غلام الاخشيد (محمد ابن طغج) من الفيوم فلقيه المتنبي بالميدان على رقبة من كافور . وكان فاتك عند مقدمه قد أهدى إليه هدايا قيمتها ألف دينار فانشده قصيدته التي اولها

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق ان لم تُسعدِ الحالُ

وقال له فيها يذكر ما كان منه

(وما شكرت لان المال فرّحني سيان عندي إكثار وإقلالُ)
لكن رأيت قبيحاً أن يجاد لنا وأننا بقضاء الحق بُخّالُ
لطّفت رأيك في برّي وتكرمتي، إن الكريم على العلياء يحتالُ
وقد أطال ثنائي طول لابسهِ إن الثناء على التّنبال تنبالُ

يشير بالتنبال الى كافور ، . . . ثم يزفر المتنبي زفرته من جوف قلبه

لولا المشقّة ساد الناس كلّهم ، . . الجود يفقر ، والإقدام قتّالُ
وانما يبلغ الانسان طاقته . . . ، ما كلّ ماشية بالرحل شملالُ
إنا لفي زمنٍ تركُ القبيح بـه من أكثر الناس إحسانٌ وإجمالُ

ذكر الفتى عمره الثاني . . . ، وحاجته ما قاته . . . ، وفضول العيش أشغالُ

وكذلك كان أبو الطيب قد يئس من بقائه في مصر ، وبرم بالمال وأصحاب المال ، وعزم على الرحلة من مصر ، فأعدّ له العدة ، واعتمد على الهرب بحيلته ودهائه قبل أن يدركه كافور الذي أرصد له الرقباء وبثّ عليه العيون . وانتهز هذا الداهية الخبير البصير الفرصة في العيد يوم عرفة من سنة ٣٥٠ — وكان رسْم كافور أن يستقبل العيد بيوم (هو يوم الوقفة الآن) ، وتعدُّ فيه الخلع والحمْلانات والهدايا وأنواع المبارّ لرابطة جنده، وراتبة جيشه، وصبيحة العيد تفرّق وثاني اليوم يذكر له من قبل ، ومن ردّ واستزاد — فاهتبل المتنبي غفلة كافور واشتغاله بالعيد، ودفن رماحه برّاً ، وسار لياته ، وحمل بغاله وجماله ، وهو لا يألو سيراً وسرًى . وقطع في هذه الليلة مسافة أيام حتى وقع في تيه بني إسرائيل ، الى أن جازه على الحلل والاحياء والمفاوز المجاهيل ، والمناهل الاواجن . . . . فلما بلغ كافوراً الخبر بذل في طلبه ذخائر الرغائب، وكتب الى عمّاله في سائر أعماله ولكن . . . . يقول المتنبي

فربّتما شُفيت غليل صدري بسيرٍ أو قناةٍ أو حسامِ
وضاقتْ خطّةٌ فخلصتُ منها خلاص الخمر من نسج الفِدامِ

فلما أنخنا ، ركَزْنا الرما
ح بين مكارمنا والعلى
وبتنا نُقبّلُ أسيافنا
ونمسحها من دماء العدى
لتعلم مصر ، ومن بالعراق ،
ومن بالعواصم — أنّي الفتى
وأني وفيتُ ، وأني أبيتُ ،
وأني عتوتُ على من عتا
وما كلّ من قال قولاً وفى ،
ولا كلُّ من سيم خسفاً أبى

خرج أبو الطيب من مصر ، وقد اجتواها ، وبُغّضت اليه هذه الحياة الفاسدة التي بها وبغيرها من البلاد العربية ، والتي وصفها في قصيدته حين مرض بالحمى وهو بمصر فقال . . . .

(ولما صار ودُّ الناس خبًّا — جزيت على ابتسام بابتسامِ)
(وصرت أشك فيمنْ أصطفيه — لعلمي أنه بعض الأنامِ)
يحبُّ العاقلون على التصافي ، — وحبُّ الجاهلين على الوسامِ
(وآنف من أخي لأبي وأمي — إذا ما لم أجده من الكرامِ)
أرى الاجداد تغلبها كثيراً — على الاولاد أخلاق اللئامِ

وتنازعت قلب ابي الطيب كل أسباب همه ويأسه ، همُّ الحب ويأسه من اللقاء ، وهمُّ السياسة ويأسه من إدراك المطلب وتحقيق الآمال ، واثبت كل ذلك في قصيدته التي قالها يوم خروجه من مصر ، فتدبرها وفصّلها على ما رسمنا فيما مضى . . . . يقول

عيدٌ بأية حالٍ عدْت يا عيدُ — بما مضى أم لامر فيك تجديدُ
أما (الاحبة) فالبيداء دونهم — (فليت دونك بيداً دونها بيد)

. . . .

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي — شيئاً تُتيّمهُ عينٌ ولا جيدُ

يا ساقييَّ ! أخمرٌ في كؤوسكما أم في كؤوسكما همٌّ وتسهيدُ ؟ !
أصخرة أنا ؟ ! مالي لا تحركني هذي المدام ، ولا هذي الاغاريدُ !
إذا أردت كميت اللون صافيةً وجدتها ، و(حبيب النفس) مفقودُ
ماذا لقيت من الدنيا !!...وأعجبه أني — بما أناشاكٍ منه — محسودُ
أمسيت أروح مثرٍ خازناً ويداً.. أنا الغنيُّ .. وأموالي المواعيد

ثم يخلص ابو الطيب الى ذمّ مصر وأهلها ، ووصفهم بالكذب والماطلة ، وما كان من ولاية كافور الاسود الخصيّ عليها ، وما كان يجري من المكر فيها وفي سياستها ثم يهجو كافوراً بأفحش الهجاء ، ثم يذكر همّ نفسه وفراق سيف الدولة وذلك قوله .

اولى اللئام كُوَيفيرٌ بمعذرةٍ في كل لؤمٍ ، وبعض العذرِ تفنيدُ
وذاك ، أن (الفحول البيض) عاجزة عن الجميل ، فكيف (الخصية السود) !!

ونحن نقدّم العذر لابي الطيب فيما ذمّ به مصرٍ ، وما ذكر من أخلاقها ، فقد كان الرجل منكوباً في نفسه وآماله ، وقلبه وهواه ، وزاده القوم كيداً ، وأثبت عليه هذا الاسود كافورٌ عداوةً باغيةً ، وهو الذي أقدمه على مصر بطلبه ، وقد أعذر ابو الطيب بمدحه إياه أيَّما كان ، بعد أن كان في جوار امير العرب سيف الدولة . هذا . . . وليس يمنعنا من شهادة الحق — ولو على أنفسنا — ما يأتي به بعض الناس من الغضب الباغي (للقومية) ، وقد ذكر ابو الطيب عيوباً لا تزال متأصلةً في مصر ، ولا خير في الغضب من ذكرها ، بل الخير كل الخير في معرفتها والتنبُّه لها والعمل على إصلاحها . والحقيقة التي لا تجحد ان أبا الطيب قد نفذ ببصيرته الى ما كان يسلُّ مصر ويقتلها من الخلق الفاسد ، وقد كشف عنه في قصائده التي قالها في هجاء كافور ومدح فاتكٍ ورثاءه . وليس ابو الطيب وحده هو الذي عرف ذلك وأدركه بل قد عرف ذلك كثيرٌ من أهل عصره ، وإذا أنت قرأت التاريخ الذي بين أيدينا ، وقفت على ذلك وعلمت ان الرجل كان بصيراً نافذاً الى ضمائر الناس يجلوها ويكشف عنها . ولا بأس هنا من ان نذكر لك أبياتاً قد قالها القاضي التنوخي الكبير حين قدم هو أيضاً مصر وخرج منها كارهاً يقول

تركنا أرض مصرٍ لكلّ فدمٍ له باعٌ يقصّر عن ذراعِ
نفوسٌ لا تليق بها المعالي وأخلاقٌ تضيق عن المساعي
أقمت بها . . . ومن محن الليالي مقام الأُسد في كهف الضباعِ
أقول : وقد نأوا ، بعداً وسحقاً لشرّ الخلق في شر البقاعِ
وكم خلّفت من كرمٍ مهين بِرِصْها ، ومن عرض مضاعِ
وأجسامٍ مسمّنةٍ شباعٍ وأحسابٍ مضمّرةٍ جياعِ

ونَقْص في أكابرها حضيضٍ — وجَهْل في أصاغرها مشاعِ
لقد نامتْ سريرتكمْ وكانت — فضيحتكم قناعاً للقناعِ
جعلتمْ ذنْبنا أنا سمعنا .. — وما الآذان إلاّ للسماعِ

وهذا ليس مما يغضب منه ، فإن في التاريخ من امثال ذلك مالا يدفع ، وقد كانت في مصر لذلك العهد، وفي غير مصر، اخلاق فاسدة هي التي عصفت بالمجد العربي وأضاعته بين ذناب الأعاجم وغيرهم حتى صرنا إلى ما نحن فيه الآن . فهذا الغضب التاريخي لا محلّ له ولاوجه ،الاّ القصور في معرفة التاريخ . هذا .... وليس بمنكر أن تكون هناك فضائل أخرى تلطّف هذه العيوب وتخفف منها فتنسى في جانبها ، وتخفى صورتها في ظلّها

. . . سار ابو الطيب يطوي الفلوات بماله ورجاله ورماحه وخيله ، هارباً من كافور وما أتبعه من الطلب ، وقطع في سيره الفلاة ما بين مصر وطورسيناء خائفاً يترقب ، وتراءت له ايامه كلها بأهوالها وغفلاتها ، وحسناتها وسيئاتها ، واضطربت نفسه وعلت امواجها ، وأدركته رجولته وفتوّته ، حين لفحته هبات الهجير وقد نصب لها حُرَّ وجهه ، وتنسم من سمائمها التي اعتادها في اول ايامه قبل أن يستنيم الى بعض الدعة ، ويركن الى غفلات الراحة ، وكذلك غلب ما كان به من اليأس والضجر ، ومد ذراعيه يستمسك بالحياة ، يبغي الظفر وتحقيق الامل . ومن هنا قال في قصيدته التي ذكر فيها رحلته عند وروده الى الكوفة . . . . يصف النوق التي نجا على ظهرها

ولكنهنّ (حبال الحياة) ، — و (كيدالعداة) ، و (ميْط الأذى)
ضربت بها التيه ضرب القما — ر ، إما لهذا وإما لذا
إذا فزعت قدمتها الجياد ، — وبيض السيوف ، وسمر القنا

. . . .

وقلنا لها اين ارض العراق — فقالت — ونحن بتربانَ — : ها

ولم يكن ابو الطيب في مخرجه هذا يريد مكاناً بعينه يقصده ، بل كان متردداً بين ان يقصد المدينة ويقيم بها، او يقطع في رحلته الفلاة الى نجد ، او ينحدر الى العراق . ولعله كان يتلقف الاخبار وهو في طريقه حتى يرى رأيه في قصده ، ويتقي شر الكيد الذي كان يكاد به طول عمره من جراء السياسة ، ومن أجل تقحمه على أصحاب الدسائس متهاوناً بهم ، والظاهر (١)

(١) قد حاولنا أن نهتدي في ظلام التاريخ الى وجه من الرأي فلا نقرر الآن شيئاً ، فن ذلك يقتضي التنقيب في تاريخ العلويين خصة في ذلك العهد ، وما كان لهم وما كان منهم . والكتب التي بين أيدينا من التاريخ ناقصة ، ومفرقة . فإذا تم لنا شيء من السند التاريخي فحينئذ نقدم على القطع برأي من أمر مدخله الكوفة . هذا على أن في أيدينا أشياء ولكنها لا تكفي في الدلالة على الوجه الصحيح

من شعر ابي الطيب انه ـ لامر ما ـ اعتمد الرحلة الى الكوفة ودخولها . وقد رأيت قبل في خبر موت جدته أنه حين أراد دخول الكوفة ليراها ، منعه العلويون — فيما ذهبنا اليه — وحملوه على مفارقة جوارها الى بغداد ، فكان من جراء ذلك ما استعلن — في قصيدته التي رثى بها جدته — من الحدة والتهور والثورة ، والتعريض بما أريد به من الظلم والضيم ، فكان مما قال

لئن لذَّ يوم الشامتين بيومها لقد ولدت مني (لأنفهم رغما)
تغرَّب لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً الاَّ لخالقه حكما
ولكنني مستنصرٌ بذبابهِ ومرتكبٌ في كل حال به الغشما
وجاعله يوم اللقاء تحيَّتي وإلاَّ فلست (السيد البطل القرْما)
(إذا قلَّ عزمي عن مدى خوف بعده فأبعد شيءٍ ممكن لم يجد عزما)
وإني لمن قوم كأنَّ نفوسهم بها أَنفٌ أن تسكن اللحم والعظما
(كذا أنا يادنيا ، إذا شئت فاذهبي ويانفْسُ زيدي في كرائهها قدْماً)
(فلا عبرتْ بي ساعةٌ لا تُعزني ولا صحبتني مهجةٌ تقبل الظلما)

وقد قلنا ثم انه أراد بالشامتين الذين كان لانوفهم (رغما) — العلويين ، وانه أنذر وأوعد وهدد بريدهمْ بذلك ، لما أنزلوه به من الكيد له حتى خفيتْ نسبته إلى الشجرة العلوية المباركة . ولم يزل أبو الطيب يسرّ ذلك في نفسه ، وهو في كل مرة يلقي من العلويين كيداً كثيراً ، كما رأيت من إرصادهم لقتله بكفر عاقب

فالآن ، يتمكن أبو الطيب — بعد استمرار عزيمته ست عشرة سنة (من سنة ٣٣٥ إلى سنة ٣٥١) — من دخول الكوفة ، بعد أن حِيلَ بينَهُ وبينها في موتِ جدَّته ، وقد لقي في هذه السنوات من المصائب والأرزاء ما فتَّ حيناً في عضُده ، وما رمى في قلبه بالعزم والقوة حيناً آخر . يدخُلُ الكوفة وقد رغمت أنوف من منعوهُ عن دخولها أولاً ، ومن فارق الكوفة وتغرَّب غير قابل لما أرادوهُ عليه من ظلمهم له . . . فيقول

فلمَّا أنخنا ركزنا الرما ح ، بين (مكارمنا) والعُلى

فانظر إلى قوله (مكارمنا والعلى) ، أتكونُ (مكارمه والعلى) هذه هي السقاءة وما إليها؟ إذ تكذَّبَ عليه القوم فزعموا أن أباهُ كان (سقاء بالكوفة على بعير له) . والعجب أن يذكر أبو الطيب هذه المكارم والعلى وهو مقيم بالكوفة ، التي كان بها من يعرفه من لداته الذين كان معهم في المكتب وهو صغير . إن يكن ما زعموا... فتبًّا (لابن السقاء) هذا من شيخ لا يستحي من الله ولا من الناس ! ! هذا ، وفي الأبيات التي تلي هذا البيت نفحةٌ من نفحات الصدقِ ، وصورة من قوة العزيمة ، وكَرَم العنصر ، وعزة نفسٍ تتميّز في ألفاظها ، لا تقبل لكذّاب ولا دعي

بأن يجعلها تتراءى في كلامه واضحةً بيّنةً سمحةً مستعانة . . . . يقول

وبتنا نُقبّل أسيافنا ونَمسحُها من دماءِ العِدَى
لتعلم مصر ، ومن بالعراق ، ومن بالعواصم ، أني الفتى
(وأني وفيتُ ، وأني أبيتُ ، وأني عتوت على من عتا)
(وما كل من قال قولاً وفى ولا كلُّ من سيم خسفاً أبى)
(ومن يكُ قلبٌ كقلبي له يشقُّ إلى العزّ قلب التوى)
(ولا بدّ للقلب من آلةٍ ورأيٍ يصدّع صمّ الصفا)
وكل طريق أتاه الفتى على قدر الرجل فيه الخُطى

وفي قوله « واني وفيت » البيتان اشارات يلمّ إلى ما مضى في كلامنا عن نسبه وغيره ، لا نطيل باعادتها هنا مرّة أخرى . وكذلك أرغم أبو الطيب أنوف أعدائه جميعاً ، وأراهم أن عزمه لا يزال ماضياً متقحماً لا يردُّ على بعد الشقة وتطاول الايام ، وانه قرب اليه ما كانوا يباعدونه عنه بتهكمهم وسخريتهم به إذ قالوا « ما أنت في كل بلدة ! ، وما تبتغي؟ » . . وقد صدق إذ قال

إذا فلَّ عزمي عن مدى خوفُ بعده فأبعد شيء ، ممكن لم يجد عزما

لم يرد في خبر أبي الطيب ومدخله الكوفة في شهر ربيع الاول من سنة ٣٥١ شيٌ يمكن ان يتوجه به التاريخ في هذه الفترة الى وجه بعينه . والذي في رواية الرواة انه توجّه بعدها الى مدينة السلام (بغداد) ولكن من قبل رحلته حدث بالكوفة حدَثٌ حضره المتنبي ، وذلك ان رجلاً خارجيًّا كان قد ثار بالكوفة ، وكان من بني كلاب ، واجتمعت اليه فئة من المقاتلة الخوارج فانتهض اليهم أبو الفوارس دلّير بن لشكروزّ ، وانصرف هذا الخارجيّ قبل وصول دلّير إلى الكوفة فمدحه ابو الطيب ، وأنشده وهو في الميدان ، فحمله على فرسٍ بمركب ذهب . ولسنا نعرف سبباً لمدح ابي الطيب هذا الرجل (دلّير) ، ولم يرد في كتب التاريخ التي بأيدينا ذكر هذا الحادث ، ولا ذكر الخارجي الذي ثار بالكوفة في سنته تلك . وهذا مما يجعلنا نأخذ الحذر في القطع برأيٍ ، والظاهر أن لهذا الرجل (دلير) علاقة بالمشاكل العلوية التي كانت لذلك العهد بالكوفة ، وانه كان ممن يميلون الى الجانب الذي فيه سيف الدولة وأبو الطيب ، فان نفْس أبي الطيب كما رأيت كانت نفس الرجل المنتصر الظافر الذي خرج من هوج العواصف سالماً غالباً كما مرّ بك في قوله

فلما أنخنا ركزنا الرما حَ بين مكارمنا والعلى

أقام ابو الطيب بالكوفة أشهراً ثم خرج من سنته تلك الى بغداد فنزل على صاحب له هو علي بن حمزة البصري[١] ، وأقام عنده في داره . ويبيّن من نزول أبي الطيب على هذا الفتى دون سواه من رجال الدولة في ذلك العهد ، أنه قصد بذلك ان يبدي بفعله ازدراءه لهم ، واستهانته بهم . ولعله كان مما أراد ايضاً ان يكون على مقربة من سياسة الدولة ، ليخبر الرجال الذين كانوا يوقدون نار الفتنة إذ ذاك ، وليبرز ما عندهم . وهذا يبيّن مما قدمناه قبل[٢] من المراسلة التي كانت بينه وبين سيف الدولة . ويبيّن ايضاً انه كان متعالماً عند أهل السياسة في ذلك العهد ان أبا الطيب كان مَقْدمهُ من أجل ذلك ، فقد ذكر الحاتمي (صاحب الرسالة الحاتمية) ان معز الدولة بن بويه الديلمي (ساءه ان يرد على حضرته رجلٌ صدر عن حضرة عدوّه) يعني سيف الدولة . ثم ان أبا الطيب لم يقف أمره عند ذلك بل قد رغب اليه جماعة من أصحاب الوزير المهلبي أن يمدح الوزير، فأبى عليهم ابو الطيب وجبههم بأسوأ الردّ . وكان السبب في سوء ردّهم ان أبا الطيب كما علمت لم يكن يرضى أبداً عن هؤلاء الاعاجم الذين مزّقوا الدولة العربية وتقاسموها بينهم — ونعني منهم هنا بني بويه — وكان المهلبيّ وزير معز الدولة ، وكان مشايعاً لهم في كثير ، وعلى أن مشايعة الوزير المهلبي لبني بويه كانت — فيما نرى — ارتفاقاً للرزق فإن أبا الطيب لم يعبأ به ، بل أغضى عنه تهاوناً وازدراء . فأحفظ ذلك الوزير المهلبي فآسد عليه الادباء والشعراء وأغراهم به ليغيظوه ويكيدوا له ، ويغلظوا له القول في مجلسه . فكان ما رأيت قبل من هجائهم إياه وزعمهم أن أباه كان سقاءً بالكوفة كما ورد في الشعر الذي قدمناه في أول الابواب . ولا يفوتنك هنا ان تعلم أن التنوخي الذي روى قصة نسبه كان بالعراق لذلك العهد ، وايضاً ان ابن أم شيبان الهاشمي ، وأبا الحسن العلويّ كانا كذلك ببغداد . وقد رأيت في الباب الاول كلامنا عن هؤلاء وما ادّعوه من ان أباه كان سقاءً ، فاجتماع هؤلاء ببغداد ، ومقدم أبي الطيب عليها من أجل السياسة ، وهو عدوّ بني بويه ، إذ كان من اصحاب سيف الدولة ، ورجلاً من الذين اتخذهم لسره وآرائه السياسية ، ثم ما كان من امتناعه عن مدح الخليفة العباسي ، ومعز الدولة الديلمي (العلوي الفاطمي) المذهب ، وازدرائه لوزير معز الدولة (أبي محمد المهلبي) ، ثم ما كان من عداوة الشعراء والأدباء له باغراء المهلبي وغيره، نقول : إن هذا كله مما يجعلك تستيقن فسادَ الروايات التي يرويها الرواة عن أمر المتنبيّ وحياته ، وخاصةً ما كان ظاهرَ التحامل ، بيّن الضغينة.... عفا الله عنهم ! ! لقد رمَوا الرجل بكل نقيصة ، ووضعوا لكل ما كان يتمدحُ به في شعره قصةً تخالف ذلك : رأوا المتنبي يتمدحُ بالكرم ويمدح عليه فوضعوا القصص في بخله وشراهته على المال ، ورأوه يمجّد الرجولة والشجاعة ويصف بهما نفسه ، فوضعوا

(١) انظر التعليق في ص ٢٤ (٢) من ص ١٢٥ — ١٢٧

الأكاذيب في حكايات جُبنه وخوره .... إلى غير ذلك من الأحاديث التي لا تصلح لتحقيق ولا ترجمة

وبقي أبو الطيّب ببغداد مستهيناً بكل كيد وحقد، وأخذ يقرأ ديوانه على بعض أصحابه بدار علي بن حمزة البصري. ثم فرغ من أمره ورجع إلى الكوفة في اواسط سنة ٣٥٢ وبقي بها، ولم يقل شعراً بلغنا، إلى أن بدأت سنة ٣٥٤ فارتحل إلى بغداد وكان الوزير المهلبي قد مات

والظاهر من أمر أبي الطيب أنه حين بلغه وهو بالكوفة في سنة ٣٥٢ موت خولة أخت سيف الدولة، تمزقت أحلامه ولم يبقَ له قلب يمده بالقوة والتدافع والثورة، كالذي كان له من قبل، واستيأس من أمره إلا قليلاً. فلما جاءه كتاب سيف الدولة في ذي الحجة من سنة ٣٥٣ يذكر العوائق التي تمنعه عن فتح العراق، ويبيّن له ما هو فيه من الكرب والضيق والعُسر على ما قدمنا في شرح قوله (١)

«فهمتُ الكتابَ، أبرَّ الكتب فسمعاً لأمر أمير العرب»

أحيط بأبي الطيّب، وأسلمت نفسه قيادها لأحزان قلّما به، فلم يحمل نفسه على الرحلة إلى سيف الدولة لئلا يذكره المكان وأهله، بمكان قلبه والساكنيه، نعني خولة، فأراد أن يُنسى همّه بقصد أرض غير الشام التي يتلفّتُ قلبُه إليها في حنين وأنين وبكاء.

وكان أبو الفضل بن العميد (٢) وهو بالري يخرج كل عام خرجتين إلى أرّجان فبلغه مقدم المتنبي إلى بغداد فراسله، وعزم عليه في الحضور إليه بأرّجان. وقد زعموا ان ابن العميد (كان يسمع بأخبار ابي الطيب — وكيفية اشتهاره في الاقطار، وترفعه عن مدح الوزراء، فسمع انه خرج من مدينة السلام متوجهاً الى بلاد فارس، وكان يخاف ان لا يمدحه، ويعامله معاملة المهلبي — فيتكره من ذكره، ويعرض عن سماع شعره). والصحيح من هذا ان ابن العميد كان يخاف ان لا يعبأ به المتنبي فراسله وأسبغ عليه من فواضله. فمضى ابو الطيب في سيره من بغداد الى أرجان يصحبه تلميذه علي بن حمزة البصري. قال عليٌّ هذا: «فلما أشرف عليها (أبو الطيب) وجدها (يعني أرجان) ضيقة البقعة والدور والمساكن، فضرب بيده على صدره وقال: تركتُ ملوك الارض وهم يتعبَّدُون بي، وقصدتُ ربَّ هذه المدرة ..؟! فما يكون منه!! ثم وقف بظاهر المدينة وأرسل غلاماً له على راحلته إلى ابن العميد فدخل عليه وقال: مولاي أبو الطيب المتنبي خارج البلد — وكان وقت القيلولة، وهو مضطجع في دسته — فثار من

---

(١) ص ١٢٧ (٢) هو محمد بن الحسين بن محمد الكاتب وزير ركن الدولة الحسن بن بويه الديلمي، وكان عالماً أديباً فصيحاً ذا بيان، وكان من أئمة الترسل، وقد سمي بالجاحظ الثاني، وكان من دهاة السياسة وتدبير الممالك

مضجعه ، واستثبته ، ثم أمر حاجبه باستقباله ، فركب واستركب من لقيه في الطريق ، ففصل عن البلد بجمعٍ كثير فتلقوه وقضوا حقه وأدخلوه البلد . فدخل على ابي الفضل فقام له من الدستِ قياماً مستوياً ، وطرح له كرسي عليه مخدة ديباج ، وقال أبو الفضل : كنت مشتاقاً اليك يا أبا الطيب...» وكان دخول أبي الطيب أرّجان ولقاؤه ابن العميد في شهر صفر سنة ٣٥٤

كان ابن العميد من رجال عصره في السياسة وتدبير الملك ، ومن شيوخهم في العلم والفلسفة وما اليهما، ومن أفذاذ البلغاء والادباء ، وكان أمةً وحده . فلا عجب أن يحتفل له بيانُ ابي الطيب احتفالاً عظيماً في اول اللقاء فيمدحه بقصيدته المشهورة « بادِ هواك صبرت أم لم تصبرا » والتي يقول فيها يصف ابن العميد

من مبلغُ الاعرابِ أني بعدها جالستُ رِسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه متملكاً متبدّياً متحضّرا
ولقيت كل الفاضلين كأنما ردّ الإلهُ نفوسَهم والاعصرا

وأكرمه ابن العميد واحتفل له ، فبقي عنده المتنبي شهرين او أشفّ قليلاً . وكان المتنبي، وهو في جوار ابن العميد ،لا يزال يعاوده همُّ قلبه ويغلبه اضطراب نفسه ، فكان ذلك في شعره ، ولكنه كان يتماسك على الضعف، ولا يعطي المقادة إلاّ مقهوراً . وقد وقع ذلك في قصيدته التي مدح بها ابن العميد ، وفطن ابن العميد الى هذا الاضطراب . رووا أنه لما أنشده

بادِ هواك ، صبرتْ أم لم تصبرا وبكاك، إن لم يجرِ دمعك أو جرى
كم غرّ صبرُك وابتسامُك صاحباً لما رآك .. وفي الحشا ما لا يُرى !!

فقال له ابن العميد :ياأبا الطيب، أتقول «بادِ هواك» ثم تقول بعده « كم غر صبرك»؟ ما أسرع ما نقضت ما ابتدأت به !! فكان جواب ابي الطيب : « تلك حالٌ ، وهذه حالٌ » وهذا هو ما نقول به ... فان ابا الطيب كان يذكر خولة احياناً فلا يخفي هوى ، ولا يردُّ دمعاً ، وتنطلق عواطفه من عقال رجولته ، فاذا ما ارتدّت اليه قوّته وارادته ،ردّ ذلك رجولته وأبدى الصَّبر ، واظهر الابتسام والرضى . وهذه حالةٌ من أحوال الحب الطاغي المسيطر ذي السلطان والغلبة . وظهورها في شعر ابي الطيب في بيتين متعاقبين ينقض معنى أحدهما معنى الآخر كما قال ابن العميد — دليلٌ على ان الرجل كان أخيذاً في أسر الهوى لا يملك نفسه ، ولا نجدُ في تناقض معاني البيتين شيئاً . وذلك لان هذا التناقض الذي نراه في معاني شعره يكون عنده اتساقاً في معاني عواطفه وحبه، وتعبيراً بليغاً صادقاً عن إحساسه وضميره وحاجة نفسه، ..فهذا قوله :« تلك حال،وهذه حال» وانظرْ ... فان الرجل حين ودع ابن العميد قال

ومن لي بيوم مثل يوم كرهتهُ قربتُ به عند الوداع من البعد
(وألاّ يخُصّ الفقدُ شيئاً ، . . لانني فقدتُ ، فلم أفقدْ دموعي ولا وجدي)
تَمَنٍّ يلذُّ المستهامُ بذكرهِ وان كانَ لا يُغني فتيلاً ولا يُجدي
وغيظٌ على الايام ، كالنار في الحشا، ولكنهُ غيظُ الاسير على القِدِّ

وهذه الاشارة التي في البيت الثاني بقوله (لانني فقدتُ ..) هي الى صاحبته خولةِ التي ماتت في سنة ٣٥٢ ، فلم ينسها بل بقي مضطرباً مغلوباً على امره لا يستطيع الصبر تارةٍ فتغلبه دموعه، ويتحامل أُخرى بصبره فينطوي على وجده ولوعته، . . . والنارِ التي في حشاه

مغاني الشِّعبِ طيباً في المغاني
بمنزلة الربيع من الزمانِ
ولكنّ الفتى العربيّ فيها
غريبُ الوجهِ واليدِ واللّسانِ
ملاعبُ جِنّةٍ ، لو سار فيها
سليمانٌ لسار بتَرجُمانِ
إذا غنّى الحَمامُ الوُرْقُ فيها
أجابتْهُ أغانيُّ القيانِ
ومن بالشّعب أحوجُ من حَمامٍ
—إذا غنّى وناح— إلى البيانِ
وقد يتقارب الوصفانِ جِدّاً
وموْصوفاهما متباعدانِ

ورد على أبي الطيب — وهو عند ابن العميد — كتابٌ من عضد الدولة بشيراز يستزيره ويطلب منه المسير اليه ، ولم تكن لأبي الطيب رغبةٌ تحملُه ، فلم يخفّ إلى استدعائه . فكلمه ابن العميد في ذلك فقال له : مالي وللديلم ؟ فقال له : عضد الدولة أفضل مني ، ويصلك بأضعاف ما وصلتُك به . فقال ابو الطيب : اني مُلَقّى من هؤلاء الملوك ، أقصد الواحد بعد الواحد وأملّكهم شيئاً يبقى بقاءَ النيِّرين ، ويعطوني عرضاً فانياً ....ولي ضجراتٌ واختيارات ، فيعوقوني عن مرادي ، فأحتاج إلى مفارقتهم على أقبح الوجوه !! فكاتب ابن العميد عضد الدولة بهذا الحديث ، فورد الجوابُ بأنه يملّكُ مراده في المقامِ والظّعن . فسار المتني من أرّجان ، فلما كان على أربعة فراسخ من شيراز ، استقبله عضد الدولة بأبي عمر الصبّاغ ، فلما تلاقيا وتسايرا ، استنشدهُ . فقال المتني : الناس يتناشدون ، فاسمعه . فاخبرهُ أبو عمر انه رسم له ذلك من المجلس العالي . ثم دخل البلد فأنزل داراً مفروشة ، وأنشد أبا عمر قصيدته التي قالها في الكوفة والتي قال فيها

فلما أنخْنا ركزنا الرّما حَ بين مكارمنا والعُلى

وبتنا نقبّل أسيافنا ونمسحها من دماء العدى
لتعلم مصر ، ومن بالعراق ، ومن بالعواصم ،.. أنّي الفتى
(وأنّي وفيتُ ، وأني أبيتُ ، وأنى عتوتُ على من عتا)

فرجع أبو عمر الصباغ إلى عضد الدولة فأخبره بما جرى ،وأنشده هذه الابيات فقال عضد الدولة : هوْناً .... يتهدّدنا المتنبي ! !

ويبيّن مما روينا لك أن أبا الطيب كان لا يزال يحقر الأعاجم ويبغضهم لما أصابوا به قومه من البلاء ، وكان استعصاؤه على ابن العميد وجداله معه في الرحلة الى عضد الدولة ، من أجل مذهبه السياسيّ ، ومن أجل ان هؤلاء ، بني بويه ، كانوا اعداءَ صاحبه سيف الدولة ، ومن أجل أنهم كانوا من شيعة العلويين الفاطميين الذي لا يرضى عنهم ابو الطيب ولا سيف الدولة ، ومن أجل أنه يعلم أن مديحه فيهم سيبقى لهم ذكراً خالداً في شعره ، وهمْ له أعداءٌ . ولكنّ الرجل — كما علمت قبل — كان مضطرباً قد داخله اليأس واستبدّ به ، فسار وهو يقول

وأيًّا شئتِ يا طرقي فكوني أذاةً ، أو نجاةً ، أو هلاكا

فلما دخل شيراز واستقبله أبو عمر الصباغ ، واستنشده كأنه يختبر شعره ، لم يصبر المتنبي فرماه بقوله : الناس يتناشدون ، فاسمعه . إذ كان شعره قد سار مسير النيّرين الشمس والقمر، فلما عرف أن ذلك الطلب بأمر من عضد الدولة، غضب لنفسه ولعربيته ولشعره ،فاختار من قصائده قصيدةً فيها ذكر ظفره بمراده ، وفاجه على الخصوم من الملوك والأمراء ، وهجاء كافور الذي كان عنده قبل أن ينزل على عضد الدولة لتكون هذه القصيدة تهديداً ووعيداً وإنذاراً ، ومقابلةً لاساءة عضد الدولة بأساءةٍ مثلها . ولذلك لما سمع عضدُ الدولة

« وأني وفيتُ ، وأني أبيتُ ، وأني عتوتُ على من عتا »

عرف مرادَ المتنبي فقال : هوناً . . . . يتهددنا المتنبي ! !

ويبيّن أن هذا اللقاءَ الأوّل ، وضع بين أبي الطيّب وعضد الدولة أسباب الحذر والاحتراس ، فكان أحدُهما يتملّق الآخر خوف البغْي والعدوان . ولاشكّ أن عضد الدولة كان يعلم من أمر هذا الداهية السياسي أبي الطيّب كثيراً،وكان يرصد عليه العيون والرقباء.... على أن أمر أبي الطيّب كان بيّناً فأنه حين حضر سماط عضد الدولة بعد أيام من مقدمه عليه أنشده قصيدته التي أولها

مغاني الشّعْب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان

ولكنّ الفتى العربيّ فيها غريب الوجه واليد واللسانِ
ملاعبُ جنّةٍ، لو سار فيها سليمانٌ لسار بترجمانِ

فهذا مجالا بيّنٌ لارض فارس وأهلها . فقد زعم أن سليمان عليه السلام — الذي عُلّم منطق الجنّ والطير والحشرات والبهائم — لو دخل أرضهم لاحتاج إلى ترجمان، فأخرجهم بذلك من منزلة من ذكرنا وجعلهم دونهم . وأنّهُ — من هوانهم على الله ، وقلّتهم في الارض — لم يعلم الله سليمان لسانهم ، وليس يخفى هذا على عضد الدولة . ولم يكتف ابو الطيب بذلك بل أتبع هذا قوله بعد

إذا غنى الحمامُ الورقُ فيها أجابتْه أغانيُّ القيانِ
(ومن بالشعب ،أحوج من حمام — اذا غنى وناح — إلى البيان)

فتم المعنى وأبان مقصده من الابيات الاولى، إذ جعلهم أقل منزلةً من الطير في البيان والافصاح. ولم يكتف ايضاً بهذا بل اراد ان يعلم عضد الدولة ، ان هذه البلاد ليست مكانه الذي يرتاح اليه ، وليست بالارض التي تحرص عليه اويحرص عليها ، وانه غريبٌ عنهم ، وان مدحه لهم ليس شيئاً ، وانه عربيٌّ ليس بأعجمي يميل اليهم او يكون له شأنٌ بينهم، فقال

ولكنّ (الفتى العربي) فيها (غريب الوجه واليد واللسان)

فكل ماقال أبو الطيب في مديح هذا الديلمي (عضد الدولة) ليس من قلبه ولا من نفسه . وشعره بين الدلالة على ان الرجل كان يقول متكلفاً بعد ان أُحرج بمقدمه عليه . وقد فطن عضد الدولة الى كل هذا — فقد كان أديباً شاعراً جيد القريحة — وقال :

«إن المتنبي كان جيّد شعره بالغرب» (يعني غرب فارس) ويشير بذلك إلى عدوه سيف الدولة خاصة. وبلغت المتنبي مقالة عضد الدولة فقال : «الشعر على قدر البقاع »... وهذا تصريح بليغ، ولاشك أن عضد الدولة أخبر بقول المتنبي هذا

ولم يكن كل ذلك مما يمنع هذا الملك المدبر عضد الدولة الديلمي — الذي وصل بدهائه وسياسته وحسن تدبيره أن كان أول من خوطب بالملك في الاسلام وأول من خطب لهُ على المنابر بعدَ الخليفة — من ان يكسوَ ابا الطيب من نعمته ، ويغرقه بنداه وكرمه . فانهم يروون أنه حين أنشده « مغاني الشعب ... » حمل اليه من انواع الطيب في الاردية والامنان، من بين الكافور والعنبر والمسك والعود ، وقاد اليه فرسه الملقب بالمجروح — وكان قد اشتري له بخمسين ألف شاة — وبدرةً دراهمها عدلية، ورداءً حشوه ديباج روميٌّ مفصل، وعمامةً قوّمت بخمسمائة دينار، ونصلاً هنديّاً مرصع النجاد والجفن بالذهب

هذا ... وقد كان الجمال الطبيعي — الذي مسح الله به بلاد فارس — مما اراح نفس أبي الطيب

وأزاح همها قليلاً ، فكان شعره الذي مدح به عضُد الدولة مقارباً ليس فيه اضطرابٌ بيّنٌ ، أو أثرٌ ظاهرٌ من داء قلبه . إلاّ في أبيات قلائل . ولم يظهر في شعره ذلك ، لأن مدة إقامته هناك كانت قليلة ، فانه بقي بشيراز على الأرجح من أواخر ربيع الثاني إلى أول شعبان من سنة ٣٥٤

ولكن ظهر همُّ ابي الطيّب واستعان ، وعادت إليه ذكرى خولة وموتها ، وذكر آماله ومغامرته وجرأته حين توفيت عمة عضد الدولة فرثاها بقصيدة ليس فيها شيء إلاّ هذه الأبيات

لا بُدَّ للانسان من ضجعةٍ ... لا تَقلِبُ المُضْجَعَ عن جنبهِ
ينسى بها ما كان من عُجْبه ... وما أذاقَ الموتُ من كربهِ
نحن بنو الموتى . . ، فما بالنا ... نعافُ ما لا بُدَّ من شربهِ !!
تَبْخَلُ أيدينا بأرواحنَا ... على زمانٍ هيَ من كَسْبِهِ !!
فهذه الأرواحُ من جوِّه ... وهذه الأجسامُ من تُرْبِهِ !!
(لو فكّر العاشقُ في منتَهى ... حُسْنِ الذي يسبيه لم يَسْبِهِ)
لم يُرَ قرن الشّمس في شرقه ... فشكّت الأنفس في غربهِ
يموت راعي الضأن في جهْله ... مِيتةَ جالينوسَ في طِبِّهِ
وربما زادَ على عمره ... وزاد في الأَمن على سِربهِ
وغاية المفرط في سِلْمه ... كغاية المفرطِ في حرْبهِ
فلا قَضَى حاجتَه طالبٌ ... فؤاده يخفق من رعبهِ

ففي هذه أثرٌ بيّن لتفكر ابي الطيب في الموت ، بعد الذي لقي من فقد خولة . كما بيناه في مواضع

لا بدَّ للانسان من ضَجْعة

لا تقلب المُضْجَعَ عن جنبهِ

نحن بنو الموتى ، فما بالُنا

نعافُ ما لا بدّ من شربهِ ! !

يموتُ راعي الضأن في جهله

مِيتة جالينوس في طبّهِ

وربما زاد على عمرهِ

وزاد في الأمن على سِربْهِ

وغايةُ المُفْرطِ في سلْمهِ

كغاية المُفْرطِ في حربهِ

فلا قضى حاجته طالبٌ

فؤاده يخفق من رعبهِ

أشرنا قبل إلى أن الرجلين (أبا الطيب وعضُد الدولة) كانا يتخادعان ، وانهما كانا في الباطن عدوّين لا يأمن احدهما جانب صاحبه ولا غدْرته ولا سوء المنقلب . ويبين لك عن هذا ان أبا الطيب مع إكرام عضد الدولة له — كما رأيت — لم يستطع القرار بأرض فارس اكثر من ثلاثة أشهر ، ولولا ما أشرنا اليه لاستطابَ أبو الطيب المكان الذي وجد فيه غاية الاكرام ، والمال الكثير المبذول ، والعطايا السابغة الكريمة . وهو مع ذلك دليل على ان أبا الطيب ليس من الطمع والحرص على المال بالمنزلة التي يذكرونه بها ، ويتابعهم عليها كثير من الذين نصبوا أنفسهم للكتابة عن الرجل والترجمة له من المحدثين . . . . . .

وقضية هذه العداوة بين أبي الطيب وبني بويه الديلميين قضيةٌ معقدة طويلةٌ ، ولها في التاريخ الاسلامي والعربي أسباب ممتدة . ونحن نختصرها هنا ونجعلها في وجهين قريبين :

فالاول منهما : ما عرف عن أبي الطيب من بغضاء الاعاجم على ما فصلناه في مواضع

والآخر : هو المسألة السياسية المتصلة بالخلافة العباسية ، والدعوة العلوية ، والدعوة الفاطمية ..

وهذه هي اكبر مشاكل التاريخ الاسلامي، وخاصة في هذا العصر الذي كان المتنبي أحد رجاله الافذاذ

كان العلويون يريدون اخراج سلطان الخلافة من يد العباسيين الى ايديهم ، وقد تمكنوا بالدعوة التي قام بها الدعاة العلويون ان يحزموا أمرهم ، ويجمعوا اليهم رؤوس الدولة فيكونون من شيعتهم ، وكان من شيعة العلويين — ممن نذكرهم هنا — بنو بويه الديلميون ، وبنو حمدان العرب التغلبيون. ثم غلبت على بني بويه الدعوة الفاطمية فصاروا من العاملين عليها في المشرق ، واستعصى على هذه الدعوة بنو حمدان . وكانت سياسة بني بويه علوية أعجمية ، وكانت سياسة بني حمدان علوية عربية. فاشتعلت البغضاء بينهما ، ثم زاد العداوة وضرّاها وضرّمها ما كان من استجابة بني بويه للدعوة الفاطمية ، واستعصاء بني حمدان عليها ، ومناوأتهم إياها في الشام والموصل . وكان بنو بويه يعلمون أن بني حمدان قد أدركوا خفايا السياسة الديلمية الاعجمية المظاهرة للدعوة الفاطمية، وانهم يعملون على نقضها . وكان دليل ذلك عندهم مناصرة بني حمدان للخلافة العباسية، مع انهم من رؤس شيعة العلويين مذهباً وعملا ، وقد علم بنو بويه أن هذه المناصرة إنما يراد بها إزاحة بني بويه عن مواضعهم من العراق وإبعادهم عن مقر الخلافة

فلما كان ما كان من امر سيف الدولة وظهور سلطانه بالشام ، ووقوفهم على نيته في اتخاذ العُدة واستجلاب العدد، وتهيئة أمره لفتح العراق — على ماذكرناه — استحرّت العداوة بين هؤلاء وهؤلاء، وخاصة سيف الدولة، وهو رأس بني حمدان، وأصلبهم عوداً ، وأشدهم مراساً ، وأقدرهم رأياً ، وأحزمهم دهاءً ، وأبعدهم نظراً ، وأمضاهم عزيمةً وهمّاً. وكان من آثار ذلك ما أشرنا إليه قبل في سبب حروب الروم وسيف الدولة .

وكان ابو الطيب كما علمت من المقربين لدى سيف الدولة ، ولم يكن بنو بويه ليخطئوا معرفة الرجل ومذهبه في السياسة ، وان هذا المذهب هو مذهب سيف الدولة ، فلذلك حذره عضد الدولة على ما رأيت ، وبقي له (عدواً مداجياً). وقد كان ابو الطيب — فيما ذهبنا اليه — علوياً منكوباً في نسبه ، فليس بمستنكر ان يراد به — من قِبل العلويين — ما أُريد به من قبل وهو بطبرية سنة ٣٣٦ حين أرصد له العلويين (العلويون) عبيدهم السودان ليقتلوه ، فيكون من ذلك ان يسعى هؤلاء العلويون لدى عضد الدولة في ايذاء الرجل والنيل منه . وأيضا ما كان الدعاة الفاطميون يريدونه به لما يعلمون من أمره أولا ، وإنكاره نسبهم ، وقوله إنهم من نسل اليهود كما قدمنا [1] في خبر نبوته إذ قال

« فلا تسمعن من الكاشحين ولا تعبأن (بعجل اليهود) »

يريد (بعجل اليهود) احد الدعاة الفاطميين . ولعلّ الذي جعل الفاطميين يكيدون له ، سعاية

(١) ص ٦١

الاسود الخصي كافور ، فانه كان قد بذل أموالا في طلب المتنبي حين مخرجه من مصر قبل هجائه له، فلا عجب أن يبذل أكثر من ذلك بعد ان يبلغه الهجاء المقذع المفزع، ومافيه من السخرية والتمثيل به كقوله

(وأسود.. مشفره نصفه) يقال له : أنت بدر الدجى

وأبلغ من ذلك تحريضه أهل مصر على قتله والفتك به كقوله

ألا فتىً يورد الهنديَّ هامته كيما تزول شكوك الناس والتهم
فانه حجةٌ يؤذي القلوب بها من دينه الدهرُ والتعطيل والقدم
ما أقدر الله أن يخزي خليقته ولا يصدق قوماً في الذي زعموا

وقد كان كافور — كما قدمنا — على صلة بالفاطميين والعباسيين معاً، ويخادعهم ويداجيهم معاً، فليس بعيداً أن يكون هو الذي حمل الفاطميين الذين بالعراق على الارصاد لأبي الطيب ، وأن يكون بذل مالاً كثيراً للانتقام منه

والظاهر أن عضد الدولة كان قد علم بكل ذلك الذي يكاد به أبو الطيب، ففضل أن يرفع يده عن دمه ، فأغرى بعض أتباعه بأن يوقع في نفس أبي الطيب شيئاً من الخوف والرعب، فيخف أبو الطيب للرحلة عن شيراز ، ويبتعد عن دياره ليلاقي حتفه في مكان آخر . ولذلك (أستأذنه المتنبي في المسير عن شيراز ليقضي حوائج في نفسه ثم يعود إليه). وكان هذا من أبي الطيب ضرباً من ضروب دهائه ومخادعته ، فلما عزم الرحلة ، كان من دهاء عضد الدولة أن زاده كرامة ليوقع في نفسه أنه مصدقه (فأمر أن تخلع عليه الخلع الخاصة ، وتعاد صلته بالمال الكثير). ويقيننا أن أبا الطيب حين وجد ذلك — من إكرام عضد الدولة له — وكان قد بلغه طرفٌ من أخبار الكيد الذي يكادُ به ، عرف ما يريده عضد الدولة ، وما يُراد به، ولذلك أشار في آخر قصيدة مدحه بها — وهو مفارقٌ لهُ في أول شعبان سنة ٣٥٤ — إشارات كثيرة ، منها قوله

ومن يظنن (نثر الحب جوداً وينصب تحت ما نثر الشباكا)

وهذا المثل هو مثل لما تراه قبل من أمر عضد الدولة . ثم انظر إلى يأس أبي الطيب وقد علم أنه قد أحيط به ، وأنه مقتولٌ لا محالة . . . إذ يقول

« وأيا شئت يا طرقي ، فكوني أذاةً أو نجاةً أو هلاكا »

. . . .

« وما أنا غير سهم في هواء ، يعود ، ولم يجد فيه امتساكا »

فلما فصل أبو الطيب من شيراز ووصل إلى دير العاقول — وهي ضيعة بالعراق — اجتمعت عليه

بنو أسدٍ وبنو ضبّة، فقتلوه وقتلوا غلمانه وقتلوا ولده محسداً. وقد قدمنالك[1] أن سيف الدولة كان قد أوقع بعمرو بن حابس من بني أسدٍ، وبني ضبّة، وبني رياح من بني تميم، وذلك في سنة ٣٢١، وقد هجاهم أبو الطيب في مدحه لسيف الدولة في تلك السنة . وكان ذلك المدح وهذا الهجاء سبباً في أن أحفظ عليه هؤلاء القوم من بني أسدٍ وبني ضبة . . قال ابو الطيب لسيف الدولة

مهلا ألا لله ما صنع القنا في «عمرو حابٍ» و«ضبّة» الاغنامِ

يريد عمرو بن حابس من بني أسدٍ

لما تحكمت الأسنّةُ فيهمُ جارتْ، وهنَّ يجرن في الاحكامِ
فتركتهم خَلَل البيوت كأنما غضبتْ رؤوسهم على الاجسامِ
أحجار ناسٍ فوق أرضٍ من دمٍ ونجومُ بيضٍ في سماء قتامِ
وذراعُ كلِّ أبي فلانٍ كنيةً حالتْ، فصاحبُها أبو الايتامِ

واعلم أن بني أسدٍ وبني ضبة هؤلاء كانوا من شيعة العلويين، والظاهرُ أنهم كانوا قد انحازوا الى الاعاجم مخدوعين، وصاروا بعدُ من شيعة بني بويه الفاطميين . وليس يبعدُ أن يكون كافور هو الذي أمدهم بالمال ليقتلوا الرجل، وتوسط له في ذلك أصحابُه من أهل العراق العباسيين أو الفاطميين

هذا هو مختصر القول في مقتل أبي الطيب في ٢٧ رمضان من سنة ٣٥٤ . أما مايروونه من السخف في حكاية مقتله بسبب القصيدة[2] التي أولها

ما أنصف القوم ضبهْ وأمهُ الطرطبّهْ
وإنما قلت ما قلتُ رحمةً لا محبّهْ

الى آخر الفحش القبيح الذي ورد بها، فانا في نقده ونقضه وجوه لانطيل القول بها هنا، ولها موضعها إن شاء الله من كتابنا . وأيضاً فقد ورد أن سبب قتله « أنه لما ورد على عضد الدولة ومدحه، وصله بثلاثة آلاف دينار وثلاثة أفراسٍ مسرجة محلاة بالذهب، ثم دسّ له من يسأله : أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة ؟ فقال أبو الطيب: «إن سيف الدولة كان يعطي طبعاً وعضد الدولة يعطي تطبُّعاً».. فبلغ ذلك اليه، فغضب. فلما انصرف من أرضه، جهّز اليه قوماً من بني ضبّة فقتلوه — بعد أن قاتل قتالاً شديداً ثم انهزم، فقال له غلامه أين قولك

الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

(١) ص ٥٤ (٢) هذه القصيدة عندنا باطلة النسبة لأبي الطيب